

منير محمد الفضبان

٢٠

الآية ..

أيتها الفتاة المسلمة



مكتبة المنار

إِلَيْهِ
أَيُّهَا الْفَتَاةُ الْمُسَلِّمَةُ

الجزآن الاول والثاني

منير محمد الغضبان

مكتبة المنار

الزرقاء - الأردن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة السابقة

اختي المسلمة:

هذه أحاديث وأبحاث يجمعها أنها تتناول موضوع الفتاة المسلمة، فالكتاب لكِ أولاً، ومن أجلكِ ثانياً، على أمل أن يقود خطانا على هدى هذا الدين الذي يجمعنا إخوة تحت لوائه.

هولكِ أولاً دليل في خضم هذا المجتمع الجاهلي العاتي الذي يسد عليك الأفق من كل جانب؛ ليخضعك إلى قيمه ومفاهيمه التي يقودها الشيطان.

ولعل هذه الأحاديث والأبحاث تكون شمعة هادية لكِ على الطريق، بحيث تبدد الضباب المتكاثف، وتضع قدميكِ على درب النور.

وهو من أجلكِ ثانياً: ينادي المسؤولين عن تربيتك ليتقوا الله فيك، ويسيروا بك على منهج الله ورسوله.

ولا أدعي أنني أصبت الهدف: «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب».

«ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين».

مقدمة الطبعة الرابعة

أختي المسلمة:

كان اللقاء في الطبعات السابقة من هذا الكتاب - كما ذكرت - أنه أحاديث وأبحاث يجمعها أنها تتناول موضوع الفتاة المسلمة . . .

لكني عدت إليها فوجدتها عقداً قد انتشرت حياته. غاض جماله وبهاؤه بهذا التبعض. ولعل كثيراً من الفائدة قد تغيب، وكثيراً من الجني المستطاب قد يضيع.

فحكفت عليه أعيد ترتيبه. في عقد منظوم موحد، واضح المعالم، بين المقاصد. وأضفت إليه كل ما نقص منه، ووزعته في أبواب ثلاث موزعة إلى فصول متعددة.

الباب الأول: الفتاة المسلمة.

الباب الثاني: تربية الفتاة المسلمة.

الباب الثالث: جهاد المرأة المسلمة.

وحرصت على أن تكون المعاني متسلسلة آخذاً بعضها برقاب بعض أهوون عليك يا أختاه بذلك. بذل الجهد في الربط بينها. وأذلل الصعاب في الاستفادة منها. لتكون بين يديك سلسلة محببة كالماء البارد على القلب الطيبي.

وحرصت قاصداً كذلك على أن أطلق على الطبعة الجديدة -

الجزآن الأول والثاني . لأنني أضفت إليها فعلاً ضعفها بين إتمام وإكثار من الأمثلة والنماذج .

أختي المسلمة :

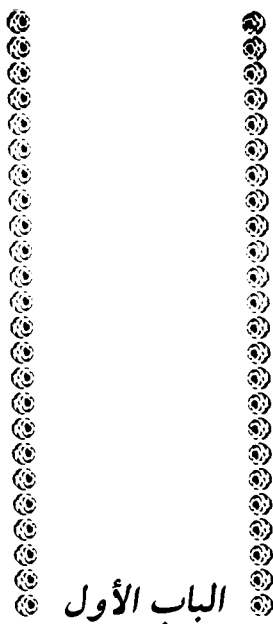
أرجو أن يكون الكتاب في طبعته الرابعة هذه أكثر من شمعة هادية لك على الطريق . فالعواصف الهوج . لا يقف في وجهها العاتي إلا مصباحٌ مضيءٌ مستعصٍ على الانطفاء . . وجذوة مستعصية على الخبو .
والله نسأل أن يبقى النور الذي نعيش فيه من خلال هذه البحوث .
مستقى من النور الذي أضاء به الوجود بسيد هذا الوجود .

﴿ . . . فأتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً ، رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾
الطلاق / ١٠ - ١١ .

وحسبي أن أجلي هذا النور للتأثبات على الدرب . وأذكيه للسالكات فيه .

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله . عليه توكلت وإليه أنيب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف



الباب الأول

الفتاة المسلمة

رسالة المرأة المسلمة من خلال سورة التحريم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .
بسم الله الرحمن الرحيم :

«يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبغني مرضاة أزواجك، والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم . وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض، فلما نبأها به قالت: من أنبأك هذا؟ قال: نبأني العليم الخبير . إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات فانتات ثابات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً» .

١ - «تبغني مرضاة أزواجك»

هذا هو الذي عاتب به رب العزة نبيه محمداً ﷺ، وهي قضية داخلية بحتة، وسر بيتي خاص لم يخرج عن إطار النبي عليه الصلاة والسلام وزوجتيه، ومع ذلك فلم يتركها القرآن سرّاً بيتياً خاصاً، بل أعلنها قرآناً يتلى حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهي عتاب لأحب خلقه إليه وإمام رسله وأنبيائه .

ويتلوها المؤمنون في الأرض - كل الأرض - وهم يسمعون عتب الله جل جلاله على حبيبه محمد ﷺ : ﴿لم تحرم ما أحل الله لك﴾؟

فهل هذه القضية من الخطورة والجسامة بمكان تحتل معه موضوع سورة كاملة هي سورة التحريم؟

● إذا أخذنا بأصح الروايات لهذه الحادثة لرأيناها قضية بسيطة ليست ذات بال في قيمنا البشرية، ولنستمع إليها كما أخرجها البخاري رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها صاحبة العلاقة المباشرة في الموضوع:

تقول عائشة: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فتواطأت أنا وحفصة على آيتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير^(١)!!

فقال: (لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له).

وفي رواية ثانية للبخاري عن عائشة رضي الله عنها تقول:

كان رسول الله ﷺ يحب الحلوى والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن. فدخل على حفصة بنت عمر، فاحتبس أكثر ما كان يحتبس؛ فغرت، فسألت عن ذلك؟ فقبل لي: أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل فسقت النبي ﷺ منه شربة. فقلت: أما والله لنحتالن له. فقلت لسودة بنت زمعة: إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقلولي: أكلت مغافير! فإنه سيقول لك: لا، فقلولي له: ما هذه الريح التي أجد؟ فيقول لك: سقتني حفصة شربة عسل، فقلولي: جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطُ. وسأقول ذلك. وقولي له أنت يا صفية ذلك.

قالت - تقول سودة - :

فوالله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أناديه بما أمرتني فرقاً منك، فلما دنا منها قالت له سودة: يا رسول الله أكلت مغافير؟ قال: لا. قالت: فما هذه الريح التي أجد منك؟ قال: سقتني حفصة شربة عسل،

(١) المغافير: شبيه بالصمغ، والعرفط شجر ينضج المغفور، وله رائحة غير مستحبة.

قالت: جرت نحلته العرفط. فلما دار إلي، قلت نحو ذلك. فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك. فلما دار إلى حفصة قالت له: يا رسول الله ألا أسقيك منه؟ قال: لا حاجة لي فيه. قالت - تقول سودة - : والله لقد حرمناه. قلت لها: اسكتي.

هاتان الروایتان، ونستعرض الرواية الثالثة لاستكمال جوانب الموضوع، وقد أخرجها النسائي رحمه الله عن أنس بقوله:

(كان له أمة يطؤها، فلم تزل عائشة وحفصة حتى حرماها).

ويوضح ابن جرير هذا الموقف برواية أخرى عن زيد بن أسلم، هي:

(أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نساؤه فقالت: أي رسول الله في بيتي وعلى فراشي؟ فجعلها عليه حراماً. قالت: أي رسول الله كيف يحرم عليك الحلال؟ فحلف بالله لا يصيبها).

وتعدد الروايات لا يزيد في موضوع السورة شيئاً، لأنها كلها تؤكد عتاب الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحْلَلَ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؟!

وكما قلنا كان من الممكن أن يمر الحادث عابراً دون أن يعلم به أحد، ولكن الله تعالى أراد أن يعلم المؤمنين كافة من خلال الأسوة الحسنة، من خلال تربية القدوة الحية لهم.

● ما هي حدود رسالة المرأة، وما هو مجالها؟

هل يجوز ابتغاء رضاها؟

هل يجوز أن يسعى الرجل لمرضاة زوجته بإرهاق نفسه في جهد، أو إنهاك نفسه في مشقة وعسر، أو تلبية لطلباتها ورغباتها على حساب الآخرين، على حساب مصلحة دينه، أو دعوته، أو أهله والذته مثلاً؟

إن مطالب الحياة اليوم واسعة جداً ولكن أساسياتها وحاجاتها محدودة،

وما زاد عن الحاجة من كماليات ورفاهيات لا تحصى ، فتخرج المصانع كل يوم جديداً منها . والمرأة بطبيعتها تود لو تحصل على كل هذه الكماليات والرفاهيات ، وتطالب زوجها كل يوم بهذا الجديد ، أو ترهقه بإحضاره . فهل يحق لها ذلك؟

إن الأمر الذي فعله رسول الله ﷺ أهون من ذلك بكثير، كان على حساب ميله ، حرم نفسه من شربة العسل ، أو حرم نفسه من وطء جاريته ، ومع ذلك فلم يقبل الله سبحانه وتعالى هذا الحرمان له ، وقال له معاتباً : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ؟ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

● وإذا كان لا يحق لانسأن أن يحرم على نفسه شيئاً يحل له ابتغاء مرضاة زوجته ؛ فمن باب أولى كيف يحل له أن يهضم حقاً لآخر؟ أو يتخلى عن مسؤولية دينه؟ أو يتخلى عن مسؤولية والديه؟ أو يتخلى عن حق الله في المال من زكاة وإنفاق؟ أو يتخلى عن الحق فيستجيب للطلبات الأثمة أو التي تجر إلى الأثم؟ ابتغاء مرضاة زوجته؟!

طالما سمعنا عن رجال صالحين أنهم اشتروا التلفزيون مثلاً وفيه ما فيه ؛ لأن زوجته غضبت منه ، وهددته بالفراق ما لم يحضره لها!!

ومثل ذلك كثير : حين يعسر الزوج ، وتنظر الزوجة حوالها إلى جاراتها ، فترى عندهم السيارة الفارهة ؛ فتثير الجول شراء مثلها . وترى الأرائك المثيرة ، فتقيم الدنيا وتقعدها من أجل اقتناء مثلها . وترى البناء الجميل والأثاث الفاخر ، فتصر على مثله . وترى الثوب الأنيق ذا الألف ريال ، فلا ترضى إلا ذلك الثوب وأجمل . وترى الحلبي الثمين فتغاضب زوجها حتى يشتري لها مثلها . وترى الغسالة الكهربائية ، والثلاجة الضخمة ، والمكنسة الكهربائية ، والفراطة الكهربائية والمنظفة الكهربائية ، فلا تقبل إلا أغلى الأنواع وأجمل ما في السوق .

● هل هذه الأمور جميعاً يرجع تقديرها للزوجة ، فتبني حياة الأسرة أو

تهدمها على ضوء موقف زوجها منها؟!

تبقى هذه الآية الحاسمة الصارمة ماثلة أمام أعيننا وهي تعاتب سيد الخلق:

﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك﴾ .

وهذا ذنب تتم التوبة منه :

﴿والله غفور رحيم﴾ .

إن هذه الأمور جميعاً، وهذا السلوك من الزوجة الذي يود أن يحمل الزوج على أمر لا يحبه، أو يمنعه من أمر يحبه، أو يفرض عليه سلوكاً لا يرضاه، أو يحول بينه وبين واجب يؤديه ويخضع لهذه الصورة - هو أمر مرفوض من خلال هذه الآية .

لقد جعل القرآن الكريم هذا الأمر عموماً من تقدير الزوج :

﴿ليتفق ذو سعة من سعته، ومن قدر عليه رزقه فليتفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ .

وللمرأة أن تبدي رأيها وتناقش فيه، هذا من حقها، ولكن ليس من حقها أن تفرض موقفاً أو سلوكاً أو تتدخل فتمنع أو تعطي وتحمل زوجها حملاً على ذلك .

وهذه مسؤولية الزوج في حقيقة الأمر، فليس له أن يلقي قياد المسؤولية إلى زوجته .

● ولكن لا بد من ملاحظة هامة :

إن هذا الكلام لا يعني أن يتحول البيت إلى ثكنة عسكرية، تصدر الأوامر من الزوج فتنفذ، ويحظر المعارضة والكلام وإبداء الرأي، ويكبت زوجه وولده!

أبدأ، فليست هذه صورة البيت في الإسلام.

لا بد أن نستدعي الصورة حالاً من خلال قول الله عز وجل :

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾.

فالسكن والأنس والمودة والرحمة ؛ لا تتحقق من خلال إصدار الأوامر وحظر الرأي، ولكنه يتم من خلال التقدير المتبادل والاحترام والاستماع للرأي، وبث الشجون، والتنفيس عما في الصدور. إنما يكون اتخاذ القرار بعد المشاورة للرجل صاحب القوامة.

وهناك فرق كبير بين ابتغاء مرضاة الزوجة، وبين إرضائها :

إن الأول هو المرفوض، والثاني هو المطلوب : فإرضاء الزوجة بتطبيب خاطرها، والاهتمام بشؤونها، وبث مشاعر الحب والودّ نحوها، وإكرامها ؛ كل هذا من أساسيات الأسرة في الإسلام.

فدستور الإسلام الذي قال : ﴿إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بالله﴾ ؛ نجده يرخص في كذب الرجل على زوجته وكذب المرأة على زوجها، ولو كانت العواطف كاذبة، حفاظاً على جو الأسرة من التهشم، وحفاظاً على وثامها أن يجرح، وحفاظاً على بنائها أن يتصدع.

فليس هناك تعارض إذن بين إرضاء الزوجة المطلوب، وبين ابتغاء مرضاتها المحظور. إن كل واحدة في قطاع لا تتعارض مع الأخرى.

والحد الفاصل بين الجانبين هو عمل الرجل بغير قناعته عملاً تحمله عليه زوجته مكرهاً، فهو تنازل عن القوامة لها. أما الصورة المقابلة : فهو الاقتناع بصحة رأيها ووجاهته وتنفيذه بناءً على هذه القناعة. والله تعالى أعلم بالصواب.

٢ - «قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم، والله مولاكم، وهو العليم الحكيم»

ترى هل انتهى الأمر بالعتاب للنبي ﷺ وبقي كل شيء على ما هو عليه؛ خاصة ورسول الله قد أقسم بالله على أنه لن يقرب جاريته، أو لن يذوق غسله؟ أقسم على أن يحرم نفسه من هذا المباح والطبيعي في القسم بالله أن يَنْفَذَ، وأن يبرّ؛ خاصة وهو صادر من رسول الله صلوات الله عليه. ولكن:

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾.

لقد وجدنا القرآن يعاتب المسلمين في أسارى بدر، وقتلهم، ومع ذلك أقر الواقع كما وقع: ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾. وعاتبه في إذنه للمنافقين: ﴿عفا الله عنك لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾، ثم أمضى إذنه بعد ذلك.

أما هنا فيتبع العتاب تغيير في الواقع، تغيير في صيغة أمر:

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾.

فلا بد من التكفير عن اليمين والعودة إلى الحالة الطبيعية: إلى ما أحل الله، وإلغاء الحالة التي يمكن أن تكون قدوة فيما بعد: ابتغاء مرضاة الزوج.

وطبيعة اللفظ القرآني توحى أنه لا خيار في الاستمرار على هذا الوضع: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾، وأنه لا بد أن تعود الأمور إلى نصابها في سفينة البيت المسلم، ويكون ربانها الرجل المؤهل للقوامة: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾، فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله، واللاتي يخافون نشوزهن فمعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، إن الله كان علياً كبيراً^(١).

(١) سورة النساء: الآية ٣٤.

٣ - المرأة والسر

﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض، فلما نبأها به قالت: من أنباك هذا؟ قال: نبأني العليم الخبير﴾.

إنه يحسن أن لا يغيب عن أذهاننا أننا نتحدث عن خيرة أهل الأرض من خلقه من النساء؛ عَمَّن قال الله تعالى فيهم: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾.

ويوم يقرر القرآن هذا الوضع بالنسبة للمرأة، فإن هذا يعني أنه شيء جذري في كيانها أكثر من الرجال.

ويحسن أن لا يغيب عن بالنا كذلك: أن ممن نزلت فيهم هذه الآيات، عائشة أم المؤمنين التي قال رسول الله ﷺ فيها:

(وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام).

ويحسن أن لا يغيب عن البال ثالثاً كذلك: أن هذا لا يعني تبرير الخطأ أو إقراره؛ إنما يعني قدرة المسلم على الارتفاع من هذا الواقع الحي إلى ذلك الأفق الوضيء الذي يريده الإسلام له، سواء أكان المسلم رجلاً أو امرأة.

ونعود بعد هذا إلى موضوع السر، من خلال الملاحظات التالية:

● ١ - ﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾.

ما هو هذا السر؟

هل هو حرمان نفسه من مارية؟

(ألا ترضين أحرماً فلا أقربها؟ قالت: بلى، فحرماً وقال: لا تذكرى

ذلك لأحد).

هل هو حرمان نفسه من العسل؟
(قال: لا، ولكنني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود
له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً).

وسواء هذا أم ذاك، فهو سر، وسر خاص بطبيعة الحياة الزوجية، وله
علاقة وثيقة فيها وفي مشاكلها، ويخصها ويخص أخواتها الضرائر كذلك.

وما كان رسول الله ﷺ ليث زوجته أسرار الدعوة، وأسرار التحركات
العسكرية وأسرار المعاهدات الخاصة. ما كان عليه الصلاة والسلام ليفعل
شيئاً من ذلك، ولكنه سر خاص بطبيعة الحياة الزوجية.

● ٢ - ﴿فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه، وأعرض عن
بعض﴾.

لم تستطع أم المؤمنين رضي الله عنها أن تضبط أعصابها على السر
وتكتمه، ونقلته إلى رفيقتها في المظاهرة واستكتمتها إياه. وشاءت إرادة الله
تعالى أن ينزل في هذه الحادثة قرآناً يتلى، فليس إفشاء السر بأمر ذي بالٍ في
هذه الحادثة، ليس جزءاً رئيسياً منها ومع ذلك فقد ذكر. فإذا لا بد لذكره من
هدف: هو أن تكون طبيعة المرأة ماثلة بين أعيننا، وأن يكون وضعنا لها في
المكان الذي وضعها الله فيه، أن نتعرف وتعرف هي كذلك مدى قدراتها
وطاقتها، فلا تعطيتها أكثر من ذلك.

فالمراة ضعيفة أمام السر، خاصة عندما يكون له علاقة بهواها؛ فهي
أضعف.

● ٣ - وجاء الأسلوب النبوي في المعالجة، الأسلوب التربوي الرائع
الذي يمثل دائماً وأبداً أفق النبوة العالي: ﴿عرّف بعضه، وأعرض عن
بعض﴾!!

فلم يقدم على زوجه بالأسلوب العنيف، ليس ضرباً ولا صراخاً

على هذه الخطيئة، وعلى هذه المخالفة، أبداً ليس شيئاً من هذا كله، بل بأرق أسلوب يعطي أعنف الأثر وأشدّه:

﴿عرّف بعضه، وأعرض عن بعض﴾.

فهل يعي الأزواج هذا الدرس في طريقة معالجة الأخطاء في البيت؟!

● ٤ - ﴿من أنباك هذا؟﴾

وتجدنا ثانية أمام فطرة المرأة وطبيعتها: ﴿من أنباك هذا؟﴾

هي لا تلوم نفسها أن أفشت السر - وطبعاً هذا في لحظة المفاجأة - بل تلوم زميلتها على ذلك، تود أن توجه أقسى اللوم لها؛ ألم تستكتمها إياه؟ فكيف تبوح به؟! ولقد غاب عن ذهنها في لحظة الانفعال رقابة الله لها، وأنها عند رسول الله المؤيد بالوحي الذي يطلعه ربه على ما يشاء.

فكان الجواب الذي فاجأها أكبر من تصوراتها، فلقد تدخّل الله تعالى لصالح نبيه وكشف إخبارها بالسر. إذن فالقضية وصلت حد الخطورة: الله تعالى تدخّل لهذه القضية، أما تخشى أن تكون في هذه القضية هلاكها؟ لم يعد الأمر مشكلة داخلية محدودة، فلعل قرآناً يأتي من عند الله فينقلها من حدود هذا المخدع إلى إطار السموات والأرض، يتلوها المؤمنون في كل الأجيال.

وكان ما خشيته أم المؤمنين، فإذا بشربة العسل، وإذا بتحريم مارية على نفسه؛ تنتقل من هذا الحيز المحدود ومن آفاق الغرفة الصغيرة لتكون قضية عالمية، لتكون قرآناً يتلى من رب العباد إلى جميع العباد.

إن قضية السر كذلك قضية خطيرة لا تقل خطراً عن حرمان النفس لما أباحه الله، فكان لا بد من عرض القضيتين في كتاب الله لتكونا درساً للمؤمنين لا ينسونه أبداً. وهو درس من قمة بيوت الأرض والسماء، درس من بيت رسول الله ﷺ مع أمهات المؤمنين.

تري هل تعي المرأة المسلمة أولاً، والرجل المسلم ثانياً، أهمية السر والأمانة فيه، ويوفونه حقه الذي وضعه الله تعالى في إطاره؟!

إن القرآن ليؤكد لنا أن المرأة ضعيفة أمام السر بطبيعة فطرتها، خاصة عندما يكون لها هوى في إفشائه، حين يحقق مصلحة أو اعتزازاً لها، أو يدل على إكرام لها ومراعاة لعواطفها.

ولكننا نتساءل بعد هذا، ونحن نود أن نضع الأمور في نصابها، ونضع المرأة في المكان الذي وضعها الإسلام فيه لا إجحافاً ولا شططاً.

نتساءل: ألم ينقل لنا تاريخ السيرة شيئاً عن استكثام السر للمرأة؟

وتجيبنا أحداث الهجرة بما تفخر به المرأة أبد الدهر، ومع المرأة نفسها، مع عائشة رضي الله عنها، وهي التي تروي لنا القصة:

(... قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث. قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر. فقال رسول الله ﷺ: أخرج عني من عندك.

فقال: يا رسول الله إنما هنا ابتنائي، وما ذاك فذاك أبي وأمي؟

فقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة. قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ...).

والذي يعنيني هنا أن رسول الله ﷺ رضي أن ييوح بالسر أمام عائشة بنت السنين الست، وأمام أسماء. وهما ابنتان! بل وأكثر من ذلك فلقد أشرك أسماء رضي الله عنها بعمليات الهجرة، وكانت على مستوى المسؤولية، وبالنسبة للسر بالذات كما تحدثنا أسماء رضي الله عنها يوم جاءها أبو جهل:

قالت أسماء بنت أبي بكر: (ولما خفي علينا أمر رسول الله ﷺ، أتانا

نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام، فخرجت إليهم، فقال: أين أبوك؟ فقلت: والله لا أدري أين أبي، فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم وجهي لطمه خرج منها قرطي، ثم انصرفوا...^(١).

فلقد نجحت أسماء رضي الله عنها في حفظ السر رغم تعرضها للأذى، ورغم اللطم الذي نزل بها. ونجحت في حفظها للسر حتى لتشارك في عملية الهجرة، وتكلف بواجب من واجباتها.

ونجحت في حفظها للسر حتى تمؤه على جدها الجواهر بالحصي ليكف عن ملاحقة ابنه أبي بكر.

فإذن يمكن للمرأة المسلمة أن تؤمن على السر فيما تكلف فيه من واجبات، أما ما لا علاقة لها به فلا ضرورة للتعرف عليه.

إن أسماء رضي الله عنها لتؤكد أنها بعد أن أنهت مهمتها؛ جاهلة تماماً عن الخطوات اللاحقة بها.

كل ما كانت تعرفه من عملية الهجرة هي أنها مسؤولة عن نقل الزاد إلى الغار، وعندما انتهت مسؤوليتها عن نقل الزاد، فكل ما تعلمه أن محمداً ﷺ وأبا بكر قد غادرا الغار. أما إلى أين؟ فلا تدري، وها هي تؤكد ذلك قائلة:

(فمضى ثلاث ليالٍ ما ندري أين توجه رسول الله ﷺ، حتى أتى رجل من أسفل مكة يغني بأبيات والناس يسمعون ولا يرونه وهو ينشد هذه الأبيات... فلما سمعنا قوله عرفنا أين توجه رسول الله ﷺ)^(٢).

خلاصة الأمر:

أن المرأة المسلمة يمكن أن تؤمن على السر وتكون حافظة وواعية له، ولكن بالقدر الذي تقتضيه الضرورة.

(١) و (٢) مختصر السيرة لابن عبد الوهاب، كما رواه ابن إسحاق والطبراني.

ومن جهة ثانية فالسر الذي يتعلق بمشاكلها الخاصة، ولها هوى في إفشائه؛ فهي ضعيفة أمامه كما قال جل شأنه:

﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض، فلما نبأها به قالت: من أنباك هذا؟ قال: نبأني العليم الخبير﴾.

* * *

٤ - دعوة إلى التوبة . . . وإلا

﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير. عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منك من مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً﴾.

القرآن الكريم يدعوهم إلى التوبة عن هذا الخط كله، التوبة عن إتيان بيت النبوة وإدخاله في إشكالات ترهقه وتبعده عن هدف الدعوة الأول.

ولندرك المدى الذي أهم رسول الله ﷺ وأهم المسلمين وضع بيت النبوة، نستمع إلى ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس قال:

(لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾. حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة، فتبرز ثم أتاني، فسكبت على يديه فتوضاً.

فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما؟﴾. فقال عمر: واعجبا يا ابن عباس - قال الزهري: كره والله ما سألته عنه ولم يكتمه - قال: هي عائشة وحفصة. قال: ثم أخذ يسوق الحديث.

قال : كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم ؛ ففطق نساؤنا يتعلمن من نسائهم .

قال : وكان منزلي في دار أمية بن زيد في العوالي . قال : فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني فقالت : ما تنكر أن أراجعك ! فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه ، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل .

قال : فانطلقت فدخلت على حفصة ، فقلت :

أتراجعين رسول الله ﷺ ؟ قالت : نعم ، قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم . . قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفأتمنّ إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ؟ لا تراجعني رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً ، وسليني من مالي ما بدا لك . ولا يغرّنك أن كانت جارتك هي أوسم (أي أجمل) وأحب إلى رسول الله ﷺ منك - يريد عائشة - .

قال : وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا ، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاءً فضرب بابي ، ثم ناداني فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم ! فقلت : وما ذاك ، أ جاءت غسان ؟ قال : لا بل أعظم من ذلك وأطول ؛ طلق رسول الله ﷺ نساءه !!

فقلت : قد خابت حفصة وخسرت ، قد كنت أظن هذا كائناً حتى إذا صليت الصبح شددت عليّ ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت : أطلقكن رسول الله ﷺ ؟ فقالت : لا أدري ، هذا هو معتزل في المشربة .

فأتيت غلاماً له أسود ، فقلت : استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إليّ فقال : ذكرت لك له فصمت ! فانطلقت حتى أتيت المنبر فإذا عنده رهط جلوس

بيكي بعضهم، فجلست عنده قليلاً، ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج إليّ فقال: قد ذكرت لك له فصمت! فخرجت فجلست إلى المنبر ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج إليّ فقال: قد ذكرت لك له فصمت، فوليت مدبراً!!
فإذا الغلام يدعوني فقال: أدخل قد أذن لك.

فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رُمال حصير قد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟
فرفع رأسه إلي، وقال: لا.

فقلت: الله أكبر، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً تغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم؛ فطفق نساؤنا يتعلمن من نساؤهم. فغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل! فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت!؟

فتبسم رسول الله ﷺ.

فقلت: يا رسول الله، فدخلت علي حفصة فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ منك.
فتبسم أخرى.

فقلت أستأنس يا رسول الله؟ قال: نعم. فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبة مقامه (عُدَّة مقامه)، فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك. فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله.

فاستوى جالساً وقال :

أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا .

فقلت : استغفر لي يا رسول الله .

وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن) .

* * *

ولنا مع هذا النص الواضح البين الصريح وقفة نستجلي منها أبعاد هذه الآية الكريمة :

﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ .

● ١ - لقد كان أدب أهل مكة أن لا يكون للمرأة رأي إذا تكلم الرجل، وكان أدب أهل المدينة أن يتأثروا برأي زوجاتهم، وقد تغلب المرأة برأيها الرجل . والأدب الإسلامي المنبثق من القرآن هو الذي نحتاجه لنضع الأمور في نصابها .

● ٢ - ومراجعة امرأة عمر له رضي الله عنهما، واستنكاره لهذه المراجعة، واحتجاجها عليه بمعاملة رسول الله ﷺ نساءه؛ كان كابحاً لعمر رضي الله عنه أن يحول دون إبداء زوجته رأيها، فهو أدنى الأمور فيما ذكرت له عن بيت رسول الله ﷺ، أما أعلاها فأن تهجره إحداهن اليوم إلى الليل . غير أنه - بشكل عام - لم يكن مرتاحاً لهذا التصرف من زوجات رسول الله ﷺ، فراح يعتف ابتته حفصة ويلومها على هذا التصرف، ويؤكد لها أن حلم الرسول عليه الصلاة والسلام على تجاوز نساته لا يعني أن هذا يعطيها حقاً مكتسباً في المراجعة بل وهجرة إحداهن إلى الليل عند الغضب!!

● ٣ - وقد حذر حفصة رضي الله عنها - وهي التي يملك سلطة عليها -

من مغبة هذا التصرف؛ أن يغضب الله تعالى لنبيه، حين يغضب نبيه منهم، فيقعن جميعاً في غضب الله وبقيت الأمور معلقة إلى أن جاء الوحي الحاسم من السماء يكفهن عن التمادي في مطالبهن رضي الله عنهن.

● ٤ - ولقد كان نبأ طلاق رسول الله ﷺ في المدينة رجة وأيما رجة!! اهتز له الجو العام كله، ونلاحظ ذلك من عبارتين وردتا في النص السابق:

الأولى: حين سأل عمر رضي الله عنه الأنصاري: أ جاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول.

فلقد كان نبأ الطلاق أشد على المسلمين من غزو غسان للمدينة!

الثانية: أن الوجوم الذي علا الوجوه إثر النبأ المذكور تجاوز عند بعضهم أن جلسوا يكون عند المنبر، ولم يجرؤ المسلمون جميعاً أن يستأذنوا على رسول الله ﷺ أو يفاتحوه في الموضوع.

وخطورة الأمر عند المسلمين نابعة من جانبين:

الجانب الأول: أن بيت النبوة هو القدوة المثلى في المجتمع الإسلامي، فتعرض هذا البيت للتصدع يشق على المسلمين جميعاً ويفتح الثغرات للأعداء أن يشنوا هجومهم على فشل الحياة الزوجية للنبي عليه الصلاة والسلام.

الجانب الثاني: أنهم يتعاملون مع الوحي، ونساء النبي ﷺ من خيرة نسوة المدينة عفة وطهارة واستقامة؛ فإذا كان جزاؤهن الطلاق على بعض المواقف، فأى امرأة في المجتمع الإسلامي كله بعد ذلك تكون أكبر من الطلاق؟! وهذا يعني أن كل البيوت أضحت على فوهة بركان ليكون الجزاء الطلاق لكل من تسوّل لها نفسها أن تتدخل في أمور لا طائل تحتها، أو إشكالات تتعب زوجها.

● ٥ - ولقد كان الأمر عظيماً عند رسول الله ﷺ، لقد أهمه وأغمه،

وبلغ من شدة وطأته عليه أن يستأذن عليه عمر - وهو وزيره - ثلاث مرات، فيصمت دون أن يسمح له! وبلغ من خطورته عند ذاته الشريفة أن يتهيب عمر من فتح الحديث مباشرة معه ويتعرف على أسبابه قبل أن يطلب الاستئناس من رسول الله عليه الصلاة والسلام.

فلعل الفاروق رضي الله عنه شعر أن الجو غير مريح للتبسط مع رسول الله ﷺ في الحديث؛ مما اضطره إلى أن يستأذن رسول الله بالاستئناس في الجلوس، ويتحدث عما يحمله من مشاعر أو يخطر في ذهنه من أفكار.

● ٦ - ولو وقفنا مع ما يدور في ذهن عمر رضي الله عنه وهو يريد التخفيف من وطأة الأمر لدى رسول الله ﷺ؛ لوجدناه كله يدور حول مطالب الإنفاق التي تريدها المرأة من زوجها، ولعل الفاروق رضي الله عنه كان يرى أن هذا الضيق في النفقة أمر مؤقت، ومن أجل هذا عندما وجد بيت النبي خاوياً من كل شيء ووجد أثر الحصر على جنبه. قال له:

ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله.

ماذا كان جواب رسول الله ﷺ له؟؟

كان الجواب: أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا.

فرسول الله ﷺ إذن لا يربط القضية بوضع طارئ يمكن أن يزول وتلبي مطالب النساء في نفقاتهن - أبداً؛ إنه يعتبر أن صلة المسلم بالدنيا الكفاف، والتزود منها بقدر الحاجة فقط. فهو إذن موقف أصيل، وهو الموقف الذي أكدته آية التخيير فيما بعد: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً. وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾.

● ٧ - الطلاق لم يقع، ولكنه على وشك الوقوع، والعقاب صارم،

فلقد اعتزل رسول الله ﷺ نساءه شهراً كاملاً لإلحاحهن عليه بالنفقة . ولقد ورد في رواية أخرى أن عمر كي يطيب نفس رسول الله ﷺ راح يحدثه كيف قام بجأ عنق زوجته ابنة زيد لأنها طلبت النفقة ؛ فأجابه رسول الله ﷺ أن نساءه قد اجتمعن حوله يطلبن منه النفقة .

● ٨ - وبالرغم من أن حفصة هي بنت عمر، وبالرغم من أن عائشة هي بنت أبي بكر رضي الله عنهم جميعاً، مع هذا كله فلم يقف عمر بجانب ابنته، ولم يقف أبو بكر بجانب ابنته، بشهادة القرآن، وهذا ما يرويه لنا مسلم في بعض رواياته، إذ ينقل قول عمر رضي الله عنه :

(... فقلت يا رسول الله ما يشق عليك من أمر النساء؟! فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلماً تكلمت - وأحمد الله - بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي...).

فعمر وأبو بكر رضي الله عنهما يتخليان عن ابنتيهما ويقفان ضدّهما بجانب رسول الله ﷺ .

● ٩ - وسواء أكان في أسباب نزول هذه الآية إفشاء السر من عائشة لحفصة رضي الله عنهما وتعاونهما لحرمان رسول الله ﷺ شيئاً يحبه . أكان هذا الشيء عسلاً أو جارية .

وسواء أكان في أسباب نزول هذه الآية طلب النساء من رسول الله ﷺ النفقة وإلحاحهن فيها .

وسواء أكان في أسباب نزول الآية ما أورده البخاري رحمه الله بصددّها حيث قال: اجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة عليه فقلت لهن: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ فنزلت هذه الآية .

سواء أكان هذا أم ذاك؛ فالهدف من وراء الآية واحد هو: دعوة

أزواج النبي ﷺ إلى التوبة والإنابة والكف عن إتياع النبي أو إخراجهم .

وهذا مطلوب من كل زوجة تجاه زوجها، وإلا فمعسكر الإيمان كله ضدهن : الله تعالى جلت قدرته، جبريل عليه السلام صالحو المؤمنين، والملائكة .

ومن يا ترى بقي معهن .؟؟؟

أفما آن الأوان أن يكففن ويهدأن؟ وإلا فسيواجهن مصيراً قاسياً ولا شك، لا يكفي بوقوف معسكر الإيمان ضدهن فقط، بل سيتهي الأمر بهن إلى الطلاق :

﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات فانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً﴾ .

إنها لمفرق طريق للمرأة في بيتها وحياتها مع زوجها :

إن المرأة المسلمة التي قالت : رضيت بالله تعالى رباً وبالإسلام ديناً وبسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً ؛ هذه المرأة تتمنى أن لا تغيب هذه الآية عن ذهنها أو واقعها إذا أرادت أن تنقذ نفسها من النار ومن غضب الله عليها، ومن أن تكون الملائكة عليها وأن يكون صالحو المؤمنين ضدها، فلقد جعل الله تعالى الميزان بيد الزوج :

(من ماتت وزوجها عنها راضٍ دخلت الجنة) .

و (ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً : . . . وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط . .) .

و (من صلت خمسها وصامت شهرها وأطاعت زوجها ؛ دخلت الجنة) .

إن الطاعة عن طوعية للزوج - في غير معصية - هي أكبر ضامن لدخول الجنة .

ونحن لا ندعي أبداً أن الرجل دائماً على حق، فقد يسيء المعاملة :
هي تطيع وهو يأثم، وقد يكبه إثمه في النار. ولكنها مسؤولة أن تطيعه فيما
تحب وما لا تحب، وقد جعل الله لها الجنة بطاعته .

فلتقى الله فتاتنا المسلمة اليوم، ولتكن سكناً لزوجها، ولا ترهقه في
طلب، ولا تشغله عن هدف، ولا تصرفه عن غاية؛ فمسؤوليته في الجهاد في
سبيل الله، والدعوة إلى الله، يأثم ما لم يؤديها. وإن عليها أن تهيء له في بيته
الوسائل المساعدة لذلك، لا أن تكون عنصر إعاقة له عن جهاد أو إلهاء له في
دنيا، أو فتنة له عن رسالة - عندئذ ينطبق عليها قول الله عز وجل: ﴿إن من
أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم﴾ .

* * *

٥ - المرأة المثالية . . . كيف؟

﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، مسلمات مؤمنات
قانتات تآثبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً﴾ .

هكذا يريد الإسلام للمرأة أن تكون من خلال الصفات الست الواردة
في الآية، والتي كانت عشرراً في آية أخرى .

ولنسارع مباشرة في تصحيح مفهوم خاطيء :

صحيح أن المرأة المسلمة مكلفة بطاعة زوجها: ترعاه في بيته وترعاه
في ولده، تطهو له الطعام، وتفرش له الأثاث، وتنظف له البيت، وتخدم له
الضييف، وتهيء له راحته، وتغسل له الثوب؛ إن هذا كله وارد في إطار
الطاعة، وبالطبع حسب طاقتها .

لكن ليست هذه المرأة المسلمة المثالية المطلوبة فقط، فهذا الدور
يمكن أن تؤديه أية خادمة في البيت أو جارية .

هذا ليس دورها الرئيسي أبداً.

ولعل المقارنة بين الرجل والمرأة في هذا المجال تعطي إيضاحاً أكثر:

فالرجل مسؤول خارج البيت أن يسعى لكسب الرزق، وتحصيل المعاش، وجلب القوت، وتأمين الطعام والكساء. هذا صحيح، ولكن هل هذه هي رسالته؟

أبداً، فهذه وسيلة وليست غاية. وسيلة لتهيئة الطعام والكساء والمأوى؛ لغاية أكبر وأضخم هي عبادة الله.

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾.

فمهمة الرجل المسلم هي العبادة والدعوة والجهاد، أما الكسب للرزق فهو الوسيلة الضرورية لذلك: ﴿وابتغ﴾ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين﴾.

وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة: فهي يوم تطهو الطعام وتنظف البيت وتهيء الأثاث وتمتع الزوج؛ تقوم بشيء لا بد منه لإتمام سعي الرجل في طعامه وكسوته. فالرجل يجلبه والمرأة تطهوه، والرجل يشتري الكساء والمرأة تهيئه وتنظفه، والرجل يحضر الأثاث والمرأة تعتني به. لكن هذين العاملين المتكاملين ليسا رسالة المرأة، لكنها وظيفتها الطبيعية، أما غايتها، أما رسالتها؛ فكما ذكرت الآية يوم قدمت الوصف الأمثل للمرأة.

إن مجال الخيرية لم يكن في نساء أكثر جمالاً أو أكثر مالاً أو أحسن نسباً أو أقدر طهيّاً، أو أخبر تنظيفاً - أبداً لم يكن شيء من هذا، بل كان مجال الخيرية:

● مسلمات: بما تعنيها هذه الكلمة من الاستسلام لله في كل شيء،

بحيث يكون سلوكها كله على ضوء الإسلام، لا تعمل عملاً إلا بهديه، ولا تترك أمراً إلا بنهيه.

● مؤمنات: وأن يكون قلبها متطابقاً مع سلوكها، فيعمر الإيمان قلبها، تذوق لذته، وتشهد طمأنينته في كل أمر تأتیه، وتسلم وجهها له في طوعية ويسر في كل ما تفعل، وفي كل ما تذر.

● قانتات: فيكون في عبادتها روح، وفي طاعتها لذة مناجاة للرب سبحانه، أوبة إليه مستغفرة له، ضارعة إليه؛ كما يقول الحديث: (خشع لك سمعي وبصري، ومخي وعظمي، وما استقلت به قدمي)، وكما يقول الحديث: (اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، اغفر لي ما قدمت وما أخرت، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت).

● تائبات: فهو تركيز من لون آخر على التوبة. ومن منا لا يخطئ؟! لكن المطلوب هو النفسية المنحنية لله. تقع في الخطأ فتفر منه مجرد وقوعه، لا تجادل فيه ولا تبرره ولا تدافع عنه ولا تصر عليه، ولا تلج فيه، بل تهرب منه، وتستحي منه، وتستغفر منه: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾.

لكن اللجاجة والمحاجة، والإصرار على الخطأ وتبريره؛ هو من حلفاء الشيطان: ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾.

● عابدات: وبين أن تصلي المرأة المسلمة خمسة أوقات في اليوم والليلة، والقلب لاه والعقل ساه، وبين أن يطلق عليها سمة العابدة؛ شوط كبير.

إن العابدة هي التي يملأ التفكير بالعبادة كيانها. هي التي تنتظر أن تنتهي من كي الملابس - مثلاً - حتى تقوم إلى الآيات العشرين مثلاً تقرؤها

وتحفظها، وتنتظر حتى يأتي الليل فتستيقظ في جوفه فتتوضأ، وتقف في محرابها تؤدي قيام الليل ساعة تتمتع فيها بمناجاة ربها.

إن العابدة هي التي تنهي طهي الطعام، فتتجه سريعاً إلى كتاب الله فتتلو الجزء الذي ألزمت نفسها به كل يوم، فتتمتع خاشعة بتدبر آيات الله.

إن العابدة هي التي لا تنسى حفظها من النافلة، ولا تنسى حفظها من الذكر، ولا تنسى حفظها من محاسبة النفس والاستغفار، ولا تنسى حفظها من ترقيق قلبها والزهد في الدنيا في الاطلاع على سير الصالحين.

هي التي ترى أن واجبها مع ربها هو أساس حياتها، وأساس سعادتها. وما دون ذلك واجب تكلف به لضرورات الحياة.

● سائحات: فلا تنسى حفظها كذلك من الصيام الذي يكسر شهوة النفس للطعام، وشهوة النفس للإسراف في المظهر، ويكسر شهوة الإعجاب في النفس، ويكسر شهوة الرغبة بالاقتناء للأثاث واللباس. الصيام الذي يذكرها بالآخرة، ويذكرها بجوع الجائعين، وبؤس البائسين، وحاجة المعدمين. ولا يبعد أبداً كذلك أن تكن السائحات هن المهاجرات إلى الله ورسوله، اللاتي هجرن دنياهن وملذاتهن في سبيل الله.

هكذا يريد الإسلام المرأة في البيت:

ليست أجمل متزينة فقط، أو أنجح طاهية فقط، أو أكثر مقتنية للجواهر والزينة، أو أجمل أثاثاً ورياشاً في بيتها الجميل الثري. ليست هنا الخيرية، إن الخيرية في المسلمة المؤمنة القائنة التائبة العابدة السائحة.

ونوجه بعدها كلامنا للرجل:

ليست المرأة سلعة لمتعته فقط. ليست المرأة أداة لتسليته ولذته فقط. ليست المرأة مجرد خادمة عنده فقط. إن لها رسالة لا بد أن تؤديها، كما له رسالة يؤديها.

وهذه رسالة مشتركة بين الزوج والزوجة، فلا بد من أن يشتركا معاً في تأديتها:

﴿إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات؛ أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً﴾.

فالآية تعني اشتراك الزوجين في هذه المواصفات فلا أقل من أن يتعاونوا معاً لتحقيقها.

● ثيبات وأبكاراً: وعود على بدء ونحن نراجع تفسير هذه الآية، نرى بعض الروايات التي تؤكد أن الله تعالى قد زوجه خيرة أهل الأرض من النساء، وهن اللاتي كنَّ النماذج المحذاتة.

فقد أورد أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير عن ابن بريدة وأبيه قال: «ثيبات وأبكاراً» قال: وعد الله نبيه ﷺ في هذه الآية أن يزوجه: فالثيب آسية امرأة فرعون، والأبكار مريم بنت عمران.

وهن المثلان اللذان دعي المؤمنات من أهل الأرض لاحتذائهن.

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ أربعة خطوط وقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون.

* * *

٦ - من المسؤول عن التربية؟

﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس

والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم، إنما تجزون ما كنتم تعملون. يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً. عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴿١﴾.

إنها المسؤولية الواضحة الخطيرة: أن يقي المؤمنون أنفسهم أولاً وأهليهم ثانياً النار.

إنها المسؤولية عن البيت في كل جزئياته: أهلاً وولداً.
وكيف يتم ذلك؟

إنه يتم أولاً: باختيار الزوجة الصالحة ذات الدين.

فالإسلام قد عرض لهذه المرحلة - مرحلة الأساس الذي يقوم عليه البناء - في أكثر من موضع:

رسول الله ﷺ يقول فيما رواه أبو هريرة:

(تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك) ^(١).

فحين لا تغلب الرجل نزعاتُ الهوى فيسيطر عليه حبه، ويستأثره الجمال فقط، أو تتحلب أشداقه للمال والثروة فينسى قيمة ويتزوج مال المرأة، وحين يخضع لقيم المجتمع المنحرف، فيتزوج ابنة العائلة الضخمة ذات النفوذ والسيطرة ليصعد على سلم الشهرة من خلالها، أو يتزوج من تحمل الشهادة العليا بغض النظر عن سلوكها: حينئذ يكون قد خالف المنهج الإسلامي في اختيار الزوجة، لأن الإسلام قد حثه على الزواج من ذات الدين.

(١) متفق عليه.

لماذا؟ لأن الاحتكام يكون للكتاب والسنة، يكون الاحتكام لله ورسوله :

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾.

والمرأة الصالحة إذن خير معوان له ولها على تقوى الله، والمرأة الصالحة سعادة الحياة الدنيا قبل أن تكون سعادة للآخرة.

(الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة)^(١).

ويتم ثانياً: بالرعاية الدائمة الدؤوبة، واليقظة المستمرة في الاستقامة على منهج الله.

فالرجل راع ومسؤول عن رعيته، ورعيته بادىء ذي بدء أهله وولده، فلا بد أن يحسن القيام بالمسؤولية.

ولأمر ما نهينا الإسلام إلى أن هذه الرعاية يجب أن تكون مندادة بندى الحب، مغمورة بدفع السكينة.

ومن أجل هذا علمنا رسول الله ﷺ أن القسر والإكراه لا يحل المشكلة، وأن الأمر الصارم لا يعين على الاستقامة والتقوى. لا بد من فهم نفسية الزوجة ومعالجتها بالوعظ أو الهجر، والحل الثالث حين يفقد الحلال الأولان جدواهما هو الضرب، إن الإسلام لا يقره إلا على كره منه.

لقد كان رسول الله ﷺ يقول: (اتقوا الله في الضعيفين: المرأة واليتيم).

ورسول الله ﷺ يقول: (استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيسه كسرتة، وإن تركته لم يزل أعوج. فاستوصوا بالنساء)^(٢).

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

إن محاولة إقامتها على الجادة هو كسرها : فهو إما طلاقها أو كسر قلبها وتحطيم حاجز الحب بينها وبين زوجها .

● إذن الحضر الدائم والوعظ المستمر هو الذي يقي البيت من النار أهلاً وولداً .

ولكن ما هو الشيء الذي يأتي قبل الموعظة ، وقبل الهجر في المضجع ، وقبل الضرب ؟

هو وقاية النفس من النار ، فوقاية الرجل نفسه من النار تعني أنه حَقَّق القدوة الحسنة لبيته أهلاً وولداً ، فلا يطالبهم بشيء لا يؤديه : لا يخلف بالوعد ثم يحاسبهم على الخُلف ، لا يحاسبهم على الكذب وهم يعرفون كذبه الأبلق . لا يحضُّهم على العبادة ، وهو مهمل متخلف فيها .

إن الذي يقي نفسه من النار يكون قد قدم الحجة على أهله وولده ، وضمن لهم أكبر ضمانات الاستقامة والهداية .

هذه هي الخطوة الأولى .

● وأن يعرف الرجل نفسية زوجته وولده ، ويعرف كيف يصل إلى قلوبهم في الوعظ المؤثر في طريقته وفي نوعيته وفي مداه حتى لا يكسر الضلع ويخسر أهله وولده .

وهذه هي الخطوة الثانية .

● وأن يتصرف بالحب : فيهدد بالفراق وينفذه ، أن يهجر في المضجع حين تسد كل طرق الوعظ المؤثر .

وهذه هي الخطوة الثالثة .

● وأن يلجأ إلى ما لا بد منه حين تسد المسالك ، وتغلق الطرق للحمل على الجادة ، لدفعهم إلى ترك ما نهى الله عنه ، وتأدية ما افترضه الله : ﴿فإن

أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً ﴿١﴾ .

● أما آخر الدواء : فهو الطلاق .

الطلاق حين تصر المرأة على المعصية ، وتصر على الانحراف ، بعد بذل جميع الوسائل الممكنة . عندئذ : إما أن يعايش الإثم والمعصية ، فيأثم ويعصي ويكب نفسه وأهله في النار يوم يرضى بانحرافهم . وإما يرضى أن يقي نفسه النار ، ويفارق أهله ، فليسوا له بأهل .

* * *

الله . الله ، يا رجال هذه الأمة في أولادكم . الله . الله ، يا رجال هذه الأمة في أزواجكم .

إن تساهلكم بقبول المعصية في بيوتكم ، ولولم تحضروها ، فقد أحضرتموها .

إن أجهزة التلفاز التي تملأ البيوت بالمناظر المحرمة لا تكفي محاربتها بالتأفف ، ولا تكفي محاربتها بالتحوقل ، ولا تكفي محاربتها بالاستغفار والدموع بعد الصلاة ، ولا تكفي محاربتها بالغضب منها وهجرها ، وترك أولادكم وأزواجكم يكرعون منها ، فيكرعون إثماً ومعصية وانحرافاً .

الله . الله ، يا رجال هذه الأمة ، ليست مسؤوليتكم أن تحضروا أداة التسجيل لأولادكم وبناتكم ونسائكم بحجة كفهم عن الحاجة ، وترك الأغاني الماجنة والتمثيلات الخليعة والموسيقى الراقصة في أيديهم يغتسلون فيها بالمعصية وغضب الله عوضاً عن اغتسالهم وطهارتهم منها .

الله . الله ، يا رجال هذه الأمة ، يا من تبدلون جهدكم لإغناء أبنائكم وبناتكم ونسائكم ، ثم تسلمونهم المال يستأجرون به الفيلم العاري وينظرونه في بيوتكم . يشتررون به كل تسجيلات الميوعة والخنا والانحلال ويضمونها إلى صدورهم ، ويدفنون بها قلوبهم فيبيض معهم الشيطان ويفرخ . تشترون به

أنتم التلفزيون الملون الذي يعرض المرأة كما هي في مخدعها، بين يدي زوجها، في أقصى ما تكون من زينة وإثارة، لمن؟! لأولادكم، لمن؟ لبناتكم!

الله. الله، يا رجال هذه الأمة، يا من تشفقون على أولادكم من الفقر، ولا تشفقون عليهم من الإثم. يا من تشفقون على أولادكم من فقدان لذة دنياهم ولا تشفقون عليهم من نار وقودها الناس والحجارة. يا من تشفقون على أولادكم من الملل والفراغ فتمهروهم إثمًا ومعصية وناراً عليها ملائكة غلاظ شداد!!

أتحسبون أنكم ناجون يوم تتحوقلون من فساد أزواجكم وبناتكم وأبنائكم، وأنتم تهيتون لهم كل وسائل الفساد؟! أبداً فالملائكة الغلاظ الشداد لا يعصون الله ما أمرهم إن أنتم عصيتهم أمر ربكم، وأصمكم حب أولادكم فأكرمتهم بالضلال!!

﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾.

* * *

والذين يرفضون أن يقوا أنفسهم وأهلهم النار حتى لا تغضب زوجاتهم منهم أو تغضب بناتهم المدللات منهم؛ ينتقل هؤلاء إلى الصفة الثانية، إلى الكافرين:

﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾.

إنه شفا جرف من النار.

المؤمنون هم المنادون أن يقوا أنفسهم من النار، فإن لم يقوها فلا ينفعهم اعتذارهم يوم القيامة ويجزون بما كانوا يعملون.

وأما إذا كان في الروح رمق، وفي الكأس ثمالة، فالبدار البدار إلى

التوبة:

﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾.

يا رجال أمتنا، البراءة البراءة من المعصية، والأوبة الأوبة إلى الله:
﴿توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾.

يا نساءنا، يا أمهاتنا، يا أخوتنا، انفضن أيديكن من المعصية، والفرار
الفرار من النار: ﴿توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾.

يا شبابنا، يا أملنا، قبل أن يفوتكم الاعتذار يوم القيامة: ﴿لا تعتذروا
اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾؛ فاعتذروا الآن طالما أن في العمر
فسحة: ﴿توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم،
ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾.
استبدلوا الجنة بالنار.

وعوضاً عن أن يقال لكم: ﴿لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم
تعملون﴾، ويقودكم الملائكة الغلاظ الشداد إلى النار توقد بكم وبالحجارة.

عوضاً عن ذلك كله هلموا وانضموا إلى ركب محمد:

﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه، نورهم يسعى بين أيديهم
وبأيمانهم﴾.

لهم اللواء المرفوع، ولهم المجد المعلى، يوم يحشرون إلى الرحمن
وفدأ: ﴿يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾.
وها هو قائد الركب يُنادى:

﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلب عليهم ومأواهم جهنم
وبئس المصير﴾.

فلا غممة من الموضوع، ولا بد من تحديد الموقف:

المؤمنون الذين لم يرعوا، ولم يستجيبوا للنداء في وقاية أنفسهم

وأهلهم من النار، ويجمعون بين الهدى والضلال بين الصلاة ومظاهر التبذل، بين الحديث عن الإسلام، والسلوك العملي في مبادئه ومخالفه أفكاره، يعرفون الحرام ويغضون عنه حين يرتكبه أولادهم، يعرفون الحرام ويسكتون عليه حين ترتكبه زوجاتهم، يبصرون الحرام في بيوتهم ويحضرونه لفلذات أكبادهم - هؤلاء قد سماهم الله المنافقين. ثم جمعهم مع الكفار في حساب واحد، وفي مصير واحد:

﴿إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً﴾.

وليس هذا الوفاق والمصير في الآخرة فقط بينهم وبين الكفار إنه كذلك في الدنيا، يوم يتجمع الركب المؤمن خلف نبيه، ويحارب الفريقين معاً بلا هودة:

﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين﴾.

الكفار والمنافقين معاً ولو كانت مواقع المنافقين في صفوف المؤمنين.

جاهدهم: الكفار بالحسام، والمنافقين بالكلام فإن لم يجد الكلام، لئن لم يرعو المنافقون: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً. سئ الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾^(١).

وما هي أول سيماء المنافقين في هذه الآيات، وعم يهددون بالانتهاء عنه؟

أول سيماهم تعرضهم للعقوبات من المؤمنات، وما لم ينتهوا عن ذلك فعقابهم الأخذ بعنف ولو قاد إلى القتل: ﴿أخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾.

﴿جاهد الكفار والمنافقين، واغلظ عليهم﴾.

(١) سورة الأحزاب: الآيات ٦٠ - ٦٣.

أما سيماء منافقينا اليوم فهي أخطر: يقبلون الفاحشة أو ما يقود إلى الفاحشة في بيوتهم، فلا بد من مصارحتهم ثم مفارقتهم إن أصروا على ذلك، وذلك لحصر شرورهم وقتل امتدادهم.

هذا في الدنيا ويمثله النبي والذين آمنوا معه. وإلى أن يأوي المنافقون في آخر المطاف، يأوون إلى الكفار والنار: ﴿ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾.

الركب المؤمن مع نبيه:

﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾.

وينفصلون عن المنافقين، ويكشط المنافقون عنهم، فيلحقون بالركب الكافر الذي جاهدته المؤمنون والذي قال فيه الله لرسوله: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾.

* * *

٧ - نماذج محذورة

﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾.

إنهما نموذجتا السوء، فهما مثل للذين كفروا.

فهو درس مشترك للزوج والزوجة:

● درس للزوج المسلم الذي يعاني من متاعب زوجته كي لا يأسى ولا يحزن على نفسه حين لا يجد من زوجته التقدير المناسب، والاحترام المطلوب، والطاعة التامة؛ أن لا يأسى ولا يحزن فليس هو أكرم على الله من

أنبيائه نوح، ولوط، وليس هو أقدر تأثيراً وأحرص دعوة من النبيين نوح ولوط، ومع ذلك فقد استمرت زوجتهما على الكفر.

● ودروس وليس درساً واحداً للزوجة المسلمة :

درس أول للزوجة المسلمة أن لا يفترق طريقها عن طريق زوجها المسلم الداعية إلى الله ؛ إنها إن فعلت ذلك فهي تتجه باتجاه طريق امرأة نوح وامرأة لوط.

صحيح أنها ليست كافرة، ولكن عنادها لزوجها الداعية إلى الله المجاهد في سبيله ينتهي في آخر المطاف عناداً للدعوة إلى الله والجهاد في سبيله :

يبدأ في أول الأمر شعوراً بالضيق من انشغال الزوج بواجبه الذي افترضه الله عليه جهاداً وتضحية ودعوة، وهي تريده لها انشغالاً بحاجاتها واهتماماتها وميولها، ويعطي الزوج زوجته القدر المناسب من وقته، لكن الأصل في وقته أن يكون للأمر بالمعروف والبر والإصلاح، لحمل أعباء الدعوة إلى الله كما حملها الدعاة من قبله على مدار التاريخ . فتتبرم بمواعيده ولقاءاته مع الناس ودعوته إليهم، وينزل بها الهم والغم من كثرة زيارته للناس وزياراتهم له - فتؤذيه بكلامها، وتهجم على سلوكه، وتنزل غضبها على علاقاته واهتماماته . فتعبر من دون أن تشعر: من كراهيتها لتصرفاته إلى كراهيتها لدعوته؟ حتى تغدو لا تطيق أن تسمع منه موعظة، أو تصغي منه إلى هداية أو تتأثر منه بكلمة، أو تعي منه فائدة .

تصبح هي في وادٍ وهو في وادٍ، بل لا تجد حرجاً أن تتكلم عليه أمام الناس، وتهاجمه عند جاراتها، وتسيء إلى سمعته عند أقربائها وقرباتها. تنطلق في خط معكوس له، فإذا هي مع أعدائه ضده، تهاجمه كما يهاجمه خصوم دينه. تلغ في تهكمها عليه كما يلغ أعداء دينه فإذا هي - من غير أن تعرف - في موقف مثل موقف زوج نوح وزوج لوط.

لقد خانت الأمانة كما خانتها، وظاهرت كما ظاهرت زوج نوح وزوج لوط لزوجيهما، وتظاهرت مع الناس عليه .

فماذا كانت النتيجة؟

كانت أن اقتربت من النار خطوة خطوة .

ومنذ أن فارقت، فارقت طريق الجنة، ومنذ أن كرهت دعوته كرهت طريق الجنة، ومنذ أن غاظها جهاده فقد غاظها دين الله .

يجب أن لا تنقلب له ظهر المجن، ولا تنقلب عنه رأساً على عقب .

المطلوب من المرأة المسلمة أن تكون على خطأ زوجها المسلم، وعلى هداه، تقتبس من نوره، وتستضيء بدعوته، وتضيء لجاراتها وقريباتها سبيل الهدى مما تقبس من هداه .

هذا هو الطريق الذي يقودها وإياه إلى الجنة .

فكيف السبيل إذن؟

لنبحث عن السبيل، مع من بحثت عن السبيل، عن طريق الجنة . . .

(فقد روي أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن الله بعثك للرجال والنساء، فأما بك واتبعناك، ونحن معاشر النساء مقصورات مخدرات، قواعد بيوت، ومواضع شهوات الرجال، وحاملات أولادهم، وإن الرجال فضلوا بالجماعات، وشهود الجنائز، والجهاد، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربينا لهم أولادهم؛ أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله؟؟)

فالتفت رسول الله عليه الصلاة والسلام بوجهه إلى أصحابه وقال: هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه؟؟

قالوا: لا يا رسول الله .

فقال: «انصرفي يا أسماء وأعلمي من وراءك من النساء: إن حُسنَ تَبَعْلٍ إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته، واتباعها لموافقتها؛ يعدل كل ما ذكرت للرجال».

فانصرفت وهي تهلل وتكبر.

لقد حددت رضي الله عنها ما امتاز به الرجال عن النساء في ثلاثة: فضلوا بالجماعات، وشهود الجنائز، والجهاد.

وحددت ما تقوم النساء به من خدمات لأزواجهن في أربعة:

موضع شهوات الرجال، وحاملات أولادهم، وحافظات أموالهم، ومربيات أولادهم.

فهل تكون هذه مقابل هذه، وينال النساء نصيباً من الأجر قياساً على أجر الرجال؟

هذه هي المسألة، فماذا كان الجواب بعد الثناء النبوي عليها؟

كان الجواب في ثلاث نقاط إضافة إلى ما ذكر من قبل، هي حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها لمرضاته، واتباعها لموافقتها.

يعدل كل ما ذكرت للرجال.

يا لها من رسالة خالدة، ومسؤولية عظيمة، وأمانة جسيمة تحملها المرأة، فتنال أجر الجهاد وهي في مخدعها، وتنال ثواب الجماعة وهي في غرفتها، وتكسب شرف الجراح في سبيل الله والاستشهاد في سبيل الله. وهي لما تغادر بيتها!!

يربط مصيرها بمصير زوجها، ورضاها برضاها، وأهواءها بموافقتها، بأن تكون له: يدخل البيت وقد لقي عنت الأذى في سبيل الله فيجد البلسم الشافي عندها، يأتي إلى البيت مثقل القلب بهموم الدعوة إلى الله، فتلقاه

بصدرها الحاني . فتغسل شجنه ، وتمسح ألمه ، وتعيش به وله .

لا شك أن لها هموماً ، فتركت همومها لهمومه . لا شك أن لها أهواء ، فتخلت عن أهوائها لمرضاته . لا شك أن لها مطالب ، فاقتنعت بالقليل القليل ، لتوفر له جو الأمن والسكينة والطمأنينة .

ولن نعيش في الخيال ، فليس هذا أبداً بالأمر السهل ، أن تصيح الزوجة لرجلها .

وإنه لانتقال خطير جد خطير !

من الضفة الأولى : أن يكون زوجها لها ، إلى الضفة الثانية : أن تكون هي لزوجها .

يحتاج الأمر إلى معاناة وضغط على الأعصاب ، وكبت للأهواء ، وضغط للنوازع ولكن لا بأس ، أفليس يعدل هذا أجر الجهاد في سبيل الله ؟ !

إن هذا الموقف العظيم من المرأة يوم تقفه ، يعدل التضحية بالدم في سبيل الله ، والتضحية بالراحة والتضحية بالشهرة ، والتضحية بالمال في سبيل الله .

نحن لا نغالي ، ولا نهون من الأمر ، بل نضع الأمر في نصابه ونعلم أن تضحية المرأة المسلمة بشخصيتها لشخصية زوجها ، لا تقل عن تضحية الرجل بدمه في سبيل الله لكن : حفت النار بالشهوات وحفت الجنة بالمكاره . وكما يقال : فلا بد دون الشهد من إبر النحل .

* * *

٨ - نماذج مقتداة

﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾ .

من هذا المثل الخالد نأخذ صورة قمة من قمم النساء في الأرض، صورة آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، صورة المرأة التي آثرت ربها على كل شيء في وجودها.

(قال قتادة: كان فرعون اعنى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله تعالى حَكَمَ عَدْلٌ لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه).

إنها الصورة المقابلة تماماً لصورة امرأتي نوحٍ ولوط: هذه زوجة طاغوت. وهاتان زوجتا نبي.

فلم يغنِ النبيان عن زوجتيهما شيئاً: ﴿وقيل لهما ادخلا النار مع الداخلين﴾.

ولم يضِرَّ الطاغوت زوجته شيئاً: ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ فاستجاب ربها لها.

وأنتِ يا أختاه المسلمة، تلمسين مواقعك هنا على خطا مثلك الأعلى من النساء، وإحدى الثلاث الكاملات: آسية بنت مزاحم.

هنا ابحتي وجاهدي عن القدوة، وهنا افقهي رسالتك من هذا المثل الذي ضربه ربك لك مثلاً يحتذى ويقتدى ويتبع.

إنها المرأة المؤمنة في المجتمع الكافر، فلا تتعللي بالفساد الذي يسود مجتمعك وبيتك فهذه آسية أمامك.

لا تتعللي بأن زوجك لا يرضى لك الاستقامة، فهنا ثوري على زوجك، وأعصيه، وخالفه، لأنه لن يغني عنك من الله شيئاً يوم القيامة.

حافظي على مرضاة الله إن أردك زوجك على معصيته، فلا طاعة لملخوق في معصية الخالق.

هنا تعرفي على رسالتك:

نعم، نعم، أنتِ لست جارية في البيت للخدمة، ولست حيواناً للعلف كما يحاول أعداء الله أن يصوروك. أنتِ إنسان سوي ارتفعت كرامتك إلى أفق السموات يوم حملتِ لواء عقيدتك. لقد شرفت كما شرف الرجل بهذه العقيدة، ولولاها لكانت الأنعام خيراً منا:

﴿أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾.

وبمقدار ما تطبقين هذه العقيدة بمقدار ما ترفعين في سلم العز والمجد والشرف من عند الله.

أنتِ امرأة صاحبة رسالة، فكوني على مستوى رسالتك؛ فلا يخدعك من يجعل رسالتك الخروج للطريق، والوظيفة مع الرجال، والمساواة في الحقوق.

هذا هاتف الشيطان يريدك أن تتخلي عن أنوثتك التي أكرمك الله بها.

● هلمي واسمعي من ربك ما هي رسالتك، وبمن تقتدين. مَنْ المثل الأعلى لك؟

لقد قدم لك ربك نموذجين: آسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران.

فماذا فعلت آسية؟

لقد أضاء قلبها بنور الإيمان، فغمر كيائها كله وهي في بيت الطاغوت فرعون الذي علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم.

فما هي قصة إسلام آسية؟

(قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال: كان إيمان امرأة فرعون من قبل إيمان امرأة خازن فرعون، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون فوق المشط من يدها، فقالت: تعس من كفر بالله.

فقال لها بنت فرعون : ولك رب غير أبي؟

قالت : نعم ربي ورب أبيك ورب كل شيء : الله .

فلطمتها بنت فرعون وضربتها وأخبرت أباهها ، فأرسل إليها فرعون فقال :

تعبدين رباً غيري؟

قالت : نعم ربي وربك ورب كل شيء : الله ، وإياه أعبد!

فعذبها فرعون وأوتد لها أوتاداً فشدَّ يديها ورجليها ، وأرسل عليها

الحيات ، فكانت كذلك . فأتى عليها يوماً فقال : ما أنت متتية؟ فقالت له :
ربي وربك ورب كل شيء : الله .

فقال : إني ذابح ابنك في فيك إن لم تفعلني .

قالت : اقض ما أنت قاض .

فذبح ابنها في فيها .

وإن ابنها «روح» بشرها فقال لها : أبشري يا أمه فإن لك عند الله من

الثواب كذا وكذا . فصبرت .

ثم أتى عليها فرعون يوماً آخر فقال لها مثل ذلك . فقالت له مثل ذلك .

فذبح ابنها الآخر في فيها فبشرها روح أيضاً وقال لها : أصبري يا أمه فإن لك
عند الله من الثواب كذا وكذا .

وسمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر فأمنت امرأة

فرعون .

وقصة إيمانها رضي الله عنها أعطتنا نموذجاً آخر هو امرأة خازن فرعون

التي ضحت بولديها يذبحان أمامها ، وضحت بآلامها ، فترسل عليها الحيات
وهي موثقة فما صدها ذلك عن دين الله شيء .

● فمن أين استمدت امرأة خازن فرعون ثباتها وإيمانها؟! لا شك أنها

استمدته عن طريق الجماعة المؤمنة التي عذبت أشد العذاب في سبيل الله كما قص علينا القرآن: ﴿فألقى السحرة سجداً قالوا: آمنا برب هارون وموسى. قال: آمنت له قبل أن أذن لكم؟ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر، فلا تقطن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبكم في جذوع النخل، ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى. قالوا: لن نؤثر على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا، فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر، والله خير وأبقى﴾^(١)!

● فلتطمئن الأخت المؤمنة إذن أن نماذج التضحية ليست خاصة بالرجال، إنما هي كذلك بالنسبة للنساء: فهذه «ماشطة» ابنة فرعون تتلقى أشد أنواع التعذيب فتثبت على عقيدتها، وتهدد بذبح ابنها ثم ابنها الآخر؛ فتثبت على عقيدتها، ثم يذبح ابنها أمامها فلا تنثني ولا تتراجع، وتصر على قولها: ربي وربك ورب كل شيء: الله.

كل هذا التعذيب والذبح لا شك أنه يرعب القلوب، ويزلزل نفوس الأبطال، ويخنق شعوباً بأكملها، فماذا فعل هذا التعذيب أمام آسية بنت مزاحم: وهي سيدة القصر، ترفل بالعرز والمجد، هي امرأة فرعون، تعنولها الجباه، وتحسدها عيون نساء الأمة كلها؟!

وماذا يعنيه من الإيمان، وهي امبراطورة مصر، وهي تميس بين الخدم والجواري والعبيد، وكل أهل مصر يتقربون منها ويطلبون رضاها، ماذا تريد من الدنيا أكثر من ذلك؟!

يا نساءنا: هل من منصب أعلى وأرفع من منصب ربة التاج في مصر؟! ولكنه الإيمان العجيب، الإيمان العظيم الذي يقلب الموازين كلها رأساً على عقب. دخل الإيمان قلبها فأصبح المنصب والجمال والثراء والعرز

(١) سورة طه: الآيات ٧٠ - ٧٣.

والملك، أصبح هذا كله ظلاماً في عينيها وظلمات في وجودها.

لقد أبصرت النور، وأبصرت طريق النور محفوظاً بالدماء والأشلاء، ومع هذا قررت أن تسير مهما كانت معالم هذا الطريق.

آمنت وأسلمت آسية امرأة فرعون.

فأطلع الله فرعون على إيمانها فقال للملأ:

ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟

فأثنوا عليها.

فقال لهم: إنها تعبد غيري.

فقالوا له: اقتلها.

فأوتد لها أوتاداً فشد يديها ورجليها).

مالك ولهذه الأوتاد يا بنت مزاحم؟ ألم تكن الجواهر واللالء كلها تزين معصمك وذراعيك.

مالك ولهذه الحبال يا بنت مزاحم؟ ألم تكن الخلاخل كلها خدماً لك؟

بماذا تحلمين أكثر من ذلك؟ وما دهاك حتى استبدلت الجواهر واللالء واليواقيت بالحبال والأصفاد والأغلال؟!

إنها العقيدة.

● يا بنات حواء أقبلن فانظرن ماذا تفعل العقيدة في النفوس:

(فدعت آسية ربها فقالت: ﴿رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾، فوافق ذلك أن حضرها فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة، فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها؟ إنا نعذبها وهي تضحك!!)

واستعملوا معها كل وسائل التعذيب لعلها تنشي عن دينها وعقيدتها، ومن هذا التعذيب ما روى النهدي عن سليمان قال:

(كانت تعذب في الشمس فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها).

وكانت سيدة الشهيدات في الأرض كما ذكر ابن جرير بسنده، حيث قُروا قتلها شر قتلة: (كانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فيقال: غلب موسى وهارون. فتقول: آمنت برب موسى وهارون).

فأرسل إليها فرعون فقال: انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها وإن رجعت عن قولها فهي امرأتي).

إنه الخيار الأخير بين نعيم الدنيا ولذائذها وعزها ومجدها وملكها، وبين إلقاء أعظم صخرة عليها تقتل بها. ولا يكلف التخلص من هذا المصير الرهيب أكثر من أن تقول كلمة واحدة تكفر برب هارون وموسى.

كلمة واحدة تنقذها من القتل البشع، وتعيدها لتترفل في النعيم: ربة التاج في مصر!!

فماذا اختارت آسية بنت مزاحم؟ اختارت خلة الله وقربه:

﴿رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾.

لقد اختارت كما يقول العلماء: «الجار قبل الدار»؛ اختارت ربها فقالت: ﴿ابن لي عندك بيتاً في الجنة﴾ ولم تقل: ﴿رب ابن لي بيتاً عندك في الجنة﴾.

وليهنك الحظوة يا بنت مزاحم، يا سيدة نساء العالمين. فلقد حقق الله الأمل والرجاء بعد أن صبرت على البلاء والتضحية.

(فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها في الجنة فمضت على قولها، وانتزعت روحها، والقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح).

ونجها الله من فرعون وعمله، ونجها من القوم الظالمين.

● أختاه المسلمة، هذا هو مثلك الأعلى الأول الذي ضربه الله لك

لتقتدي به:

مثل المرأة المسلمة المستقيمة في البيئة الفاسدة الكافرة، تنضم للركب المؤمن، وتعلن كلمة التوحيد وتضحى بدنياها كلها مالاً و ثراءً وعزاً وملكاً وجاهاً؛ في سبيل الله رب العالمين.

تقف ضد زوجها يوم يدعوها للانحراف والمعصية، يوم يدعوها للاختلاط والإثم، يوم يدعوها للزينة الآثمة أمام الآخرين يوم يطلب منها التبرج في الطريق، ويدعوها إلى رؤية الفيلم الماجن وحضور الليالي الحمراء في المواخير والمراقص والملاهي، تقف ضده يوم يحمل عقيدة غير عقيدتها وديناً غير دينها، فتحاربه ولو كان زوجها، وتقف معاكسة له في طريقه.

كما فعلت آسية امرأة فرعون، وكما فعلت أم حبيبة بنت أبي سفيان يوم تنصّر زوجها في الحبشة.

وتتحمل الأذى والعذاب والبلاء صابرة محتسبة، وتتخلى عن كل شيء حتى بنيتها حين يذبحون أمامها كما فعلت «ماشطة» ابنة فرعون. وترضى الموت والشهادة كما رضيت سمية رضي الله عنها أول شهيدة في الإسلام.

● يا أختاه المسلمة، هذه رسالتك يوم تمثلين عنصر الاستقامة في البيئة الفاسدة، ليس ضياع فيها، وليس انحلال فيها، وليس طاعة للزوج أو الأب أو الأخ، التماساً للراحة - بل ثورة على ذلك كله، بل تمرد على ذلك كله.

لست جارية للخدمة، لست أداة في البيت، أنت إنسانة أولاً، وإنسانة مؤمنة ثانياً من الركب المؤمن، من الجماعة المؤمنة التي قال الله تعالى فيها: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾^(١).

فلك يا أختاه المسلمة رسالة في بيتك بين أخواتك وقريباتك

(١) سورة التوبة: الآية ٧٦.

وصديقاتك ؛ تأمرين بالمعروف وتنهين عن المنكر .
فمن يفعل هذا عندهن إن لم تفعله أنت .

هذه هي رسالتك الاجتماعية : دعوة إلى الله ورسوله ، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر ، مهما جرّ ذلك عليك من أذى ، ومهما أصابك من بلاء ، ومهما نزل بك من مصيبة ، فلك في « ماشطة » بنت فرعون ، وفي آسية امرأة فرعون ، وفي سمية بنت خياط ، وفي أم عمارة وأم سليم ، قدوة حسنة .

﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ، ونجني من القوم الظالمين ﴾ .

* * *

المصطفاة على نساء العالمين

﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ .

مريم ثمرة الدعاء الخالص الصادق الصالح :

﴿ إذ قالت امرأة عمران : رب إنني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ﴾ .

وهذا النموذج نموذج المرأة في المنبت الطيب الطاهر :

﴿ وإذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ .

والمرأة المسلمة مدعوة أولاً أن تهتئ لابتنها الجو الزاكي الطاهر ، النبات الطيب الحسن . إنها تملك أن تجعل من ابنتها خيراً منها يوم يلقي إليها قياد تربيتها . تهب ابنها وابنتها لله كما فعلت أم مريم رضوان الله عليهما .

هذه مسؤولية جديدة ورسالة جديدة نذكر بها المرأة المسلمة أن تهب

بنيها لله رعاية وتوجيهاً وجهاداً وتضحية. هي صاحبة البناء الأول. هي مناط الثقة بأن تربي مهج الأكباد ورحيق الأرواح، هي المؤتمنة، هي الأميرة في هذا المجال.

(والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها).

فلتلق الله الأم المسلمة، في بنيتها وتربيتهم على الجهاد والتضحية والطاعة الخالصة لله؛ كما فعلت امرأة عمران يوم نذرت ما في بطنها لله خالصاً محرراً.

* * *

أما مريم مصطفاة الله من خلقه، فما هي أكرم صفة وصفها الله فيها؟
﴿أحصنت فرجها﴾.

عفافها وطهرها نموذج يحتذى لنساء العالمين، هذه أكرم صفة من صفاتها يوم تحصن فرجها، وتحول دون كل شيء يمكن أن ينال سمعتها أو يلوثها.

وماذا نقول في هذا المجال والدنيا كلها اليوم تتواطأ في هذه الأرض على تلويث هذا الفرج؟! إنها المهمة الأولى للشيطان، وسبيله إلى ذلك سبيل الإغراء والغواية بالتعري والزينة.

ولقد نفذ ما يريد أول ما نفذه بأبينا آدم وأمنا حواء:

﴿فبدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة﴾.

ثم ماذا؟ ثم جاء التحذير الإلهي من هذه الطامة:

﴿يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾^(١).

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٧.

إنها المهمة الخبيثة للشيطان: دعوة المرأة إلى تجاوز المحظور إلى الفتنة، إلى الزينة المحرمة، إلى اللبس العاري، إلى اللباس المثير، ومن ثم إلى تهيج العواطف، وتلوث الفروج. إن كل ما يدعو إلى تلوث الفرج أو يقود إلى الحرام فيه، حتى الكلمة المتغنجة، حتى الحركة المثيرة، حتى الصوت الملفت للنظر؛ ربط الله هذا كله بحفظ الفرج.

فليس إحصان الفرج مرتبطاً بالزنى فقط، بل كل ما يثير هذه العاطفة في الحرام هو إخلال بحصانة الفرج، وهذا القرآن يشهد على ذلك.

﴿وقل للمؤمنات يفضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، ولا يبدن زيتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زيتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن، أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن، أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن، أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال، أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زيتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾^(١).

فحفظ الفرج إذن، هو حفظه عن كل ما يدعو إلى إثارته، أو إثارة الناس نحوه. إنه أكبر من ترك الزنى بل هو حفظه عن كل مثيراته.

وحين سئلت سيدة نساء أهل الجنة فاطمة بنت محمد عن أفضل شيء للمرأة؛ قالت: أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل.

فضمها ﷺ إلى صدره وقال: ﴿ذرية بعضها من بعض﴾.

* * *

أما نحن هنا فعند المصطفاة من الله على نساء العالمين، فماذا كانت سمة الاصطفاء فيها؟

(١) سورة النور: الآية ٣١.

● ﴿أحصنت فرجها﴾ :

وإحصان الفرج هنا تعبير معنوي بتجسيد مادي ، فالحصن المسور المنيع لا يمكن أن يقتحمه أحد . لقد حصنت فرجها ، جعلته في حصن منيع من كل سوء ، من كل إثارة ، من كل حرام .

فكان هذا الفرج أهلاً لأن يحمل كلمة الله وروحاً من الله ، كان أهلاً لأن يحمل معجزة المعجزات في التاريخ البشري : أن يحمل عيسى بكلمة من الله من دون أب !!

﴿ففنخننا فيه من روحنا﴾ .

● ﴿وصدقت بكلمات ربها﴾ :

لا إله إلا الله ، لقد بلغت من الطهر أن تكون أهلاً لحمل المسيح عليه السلام من غير أب ؛ لكن الشيطان وجنده وطواغيته يريدون أن يلوثوا هذا العرض !!

وتلك هي المعركة الثانية التي تخوضها المرأة المسلمة في المجتمع المريض .

لقد كان لهذا التشريف وهذا الاصطفاء على نساء العالمين ثمن غال ولا شك ؛ هو الولوغ في عرضها وسمعتها واتهامها في ما هو أغلى عليها من حياتها بصريح القرآن .

﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت : يا ليتني متّ قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ .

والموت أسهل الأمور هنا ، وأخف التضحيات . إن التضحية الأثقل وطأة والأشدّ عزيمة هي أن تواجه مجتمعها بطفلها ولم تتزوج بعد ، فلم يرض الله منها هذه السهولة بل قال لها :

﴿فناداها من تحتها ألا تخافي ولا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ .

وهزي إليك بجذع النخلة تُساقط عليك رطباً جنياً. فكلي واشربي وقري عيناً، فلما ترى من البشر أحداً فقولي: إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً^(١).

ويا لها من محنة قاسية الموت أسهل منها بكثير؛ تواجه مجتمعها ولا تدافع عن نفسها، وهي البتول العذراء الطهور! بل تصمت ولا تكلم أحداً: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾.

هل تقل هذه المعركة التي تخوضها مريم العذراء الطاهرة عن معركة آسية بنت مزاحم وهي تعلن كلمة التوحيد؟ أبداً. خضعت لله، ونفذت أوامر ربها كاملة.

● ﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾:

وما علاقة هذا يا أختاه المسلمة بك؟ وما هي صلة هذا برسالتك؟

إنها تنمة المعركة، معركة العقيدة يوم تتم بالإيمان أولاً، ثم بالدعوة إليه ثانياً، ومواجهة صعب. ومقتضياته ثالثاً. وأهم قضية فيها: معركة الشرف والعفاف والطهارة.

أن تحمل المرأة إلى مجتمعها لواء حصانة الفرج وحفظه من كل إثم، وكل انحراف، وكل زيغ، ثم تجاهد بذلك حتى تلقى وجه ربها.

تواجه المحن، فمرحباً بها في سبيل الله. تواجه الاتهامات الباطلة الظالمة من مجتمعها، فتقبلها بصدر رحب ونفس مطمئنة، كما تقبلتها المصطفاة الطاهرة.

تغلب على زيغ مجتمعها وانحرافه بالقنوت الخالص لله:

﴿واسجدي واركعي مع الراكعين﴾.

(١) سورة مريم: الآيات ٢١ - ٢٦.

أن تقبل أحكام ربها كاملة بقنوت خالص لله، وخضوع تام له: تقبل أحكام لباسها، وأحكام زينتها، وأحكام صلتها بمجتمعها، وأحكام علاقتها بزوجها وولدها وأهلها، أحكام ربها في كل شيء بحياتها. فتصدق بكلمات ربها بقناعة تامة وخضوع كامل، واستجابة خالصة، ثم تمضي تجاهد هذا المجتمع، تنير هذا المجتمع بهذه الأحكام، وتدعو إلى الله على بصيرة، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ولو بدأت النسوة حولها يتندرن بها ويسخرن منها، ويهزأن منها، ويوجهن لها الاتهامات ويثرن حولها الغبار، ويحاولن إيذاءها في لدغ القول، وفي الهمز واللمز.

إنها خاضعة لله، إنها قانته له، ومنيبة إليه.

فمریم قبلها خاضت المعركة صابرة محتسبة، لا تنثني ولا تتراجع ولا تخاف.

وآسية بنت مزاحم خاضت المعركة قبلها صابرة محتسبة، لا تنثني ولا تتراجع ولا تخاف.

وخديجة بنت خويلد خاضت المعركة قبلها:

كانت أول من انضم إلى الركب المؤمن، أول من آمن بالله في الأرض - بعد النبي ﷺ - .

وحملت اللواء مع رسول الله ﷺ من اللحظة الأولى تجاهد وتكابد، تنفق ثروتها، وتعاضد نبيها حتى الرمح الأخير.

فحق إذن لهؤلاء الثلاث أن يكتب لهن الكمال مع الكثير من الرجال وينفردن به بين النساء؛ كما يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو هريرة عنه: (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: آسية امرأة فرعون ومریم بنت عمران وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام).

ويقودنا هذا الحديث وهو يتناول عائشة رضي الله عنها إلى المعركة التي خاضتها عائشة، معركة الشرف والكرامة ضد دعاة الإفك والزور - والتي جاء القرآن فيما بعد ببراءتها - حيث وقفت وحدها في الساحة وهي بنت الخامسة عشرة لتقول كلمتها الخالدة:

(والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس - والله يعلم إني لبريئة - لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني . والتمست اسم يعقوب فلم أجده فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ . ثم صمت).

هذا هو الموقف الجريء العظيم الذي وقفته عائشة أمام دعاة الإفك؛ حتى جاء القرآن الكريم من فوق سبع سموات يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١). إلى قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحْبُونُ أَنْ تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عَذَابٌ أَلِيمٌ في الدنيا والآخرة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾^(٢). إلى آيات أخر بعدها.

وإحصان الفرج ذو علاقة وثيقة بالآية الأخيرة السابقة من سورة النور؛ حيث يحدد طبيعة المعركة وهويتها مع من تكون.

إن معركتك يا أختاه المسلمة، معركة «الإحصان» مع أولئك الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، هذه هي طبيعتها.

مع كل كاتب ماجن خليع يقدم إنتاجه كله في الأدب المكشوف

(١) سورة النور: الآية ١١.

(٢) سورة النور: الآية ١٩.

العاري، في كشف السوءات المستورة، في تمجيد العلاقات الخائنة بين الزوجين، في تمجيد الاختلاط بين الجنسين .

معركتك يا أختاه مع كل شاعر يرى رسالته في طرح الحب الآثم، والغزل الخائن .

معركتك يا أختاه مع كل روائي يعرض الآهات المحرمة، ويعرض الزفات المتلمظة للعرض الحرام، والجسد الحرام، والفرج الحرام!!

* * *

٩ - كلمة أخيرة

هذه رسالتك يا أختاه في بيتك وفي مجتمعك كما عرضها ربك عليك في هذه السورة؛ حدد الذي لك وحدد الذي عليك . يمكن أن نستعرضها في كلمات قصار:

١ - الأصل أن تبتغي أنت مرضاة زوجك لا أن يبتغي هو مرضاتك؛ لأن من ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة كما أخبر الصادق المصدوق عليه السلام.

٢ - الأسرار التي تتعلق بزواجك ليس الأصل أن تتعرفي عليها جميعاً، بل الأصل أن تتعرفي على ما يراه ضرورياً لك، وما أنت بحاجة إليه لدعوتك وليبيتك .

٣ - رسالة العبادة عندك أن تتمثل بك الصفات الواردة في قول الله عز وجل: ﴿مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات ساجدات﴾ .

٤ - الرجل هو الراعي للبيت والمسؤول عن رعيته، وهو الذي يحاسب عن وقاية نفسه وأهله النار، ولك مسؤولية أساسية في هذا الصدد إذ أنت راعية كذلك في بيت زوجك ومسؤولة عن رعيته؛ وذلك بالتربية الإسلامية لولدك على منهج الإسلام .

٥ - رسالة العلم منبثقة من رسالة العبادة ، حيث أنك مكلفة بتأدية رسالة العبادة - السابقة في الفقرة «٣» - ومكلفة برسالة الوقاية من النار، ضمن التكليف الأصلي للرجل وهذا يقتضي علماً وفقهاً في دين الله وفي نفسية طفلك الذي تقومين بتربيته .

٦ - رسالة العون لزوجك على الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله ، وتهئية كل الوسائل الضرورية له لنجاحه في هذا السبيل ، وخديجة رضي الله عنها هي مثلك الأعلى في هذا المجال .

وهذه الرسالة مأخوذة من المفهوم المعاكس للنساء اللاتي وقفن ضد أزواجهن في مجال الدعوة: ضد نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام ، فخانتاهما بالتعاون مع خصومهما ضد العقيدة .

٧ - رسالة الدعوة إلى الله ورسوله في صفوف مجتمعك النسائي ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعمل مع الصف المؤمن والجماعة المؤمنة، ضد البيئة المنحرفة المعادية لهذه العقيدة ولو كان يحمل لواء هذه الحرب أقرب الأقربين إليك : أمّاً أو أباً أو أخاً أو زوجاً أو ولداً . ومثلك الأعلى في ذلك آسية امرأة فرعون رضي الله عنها . والتضحية التامة لذلك .

٨ - رسالة الشرف والكرامة - إحصان الفرج - في بيتك الخاصة ، والبيئة العامة في صفوف مجتمعك النسائي وحرب الذين يشيعون الفساد في الأمة ؛ لتحمل لواء المحصنات المؤمنات ضد المفسدين والمفسدات في الأرض .

والله نسأل لنا ولك الهدى والرشد . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

قيمة المرأة المسلمة من خلال سورة الطلاق

أختاه المسلمة:

الطلاق: أكره كلمة تسمعيها. لما ترين من آثاره في هذا الواقع الأسن. ولكن هل بلغك الخبر أن الله تعالى أقره من السماء، وأنزله في أشرف كتبه، القرآن، على أشرف رسله، محمد ﷺ؟

وحتى لا تقعي في حيرة من عاطفة الكره عندك. ومن إقرار هذا الحكم من ربك، تعالى معي إلى كتاب الله عز وجل، نفقه الطلاق الذي أنزله.

- ١ -

في القرآن الكريم سورة اسمها سورة الطلاق. فماذا فيها؟

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن، واحصوا العدة، واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن، ولا تخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه. لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾.

لقد دُعي النبي ﷺ بصفته قائد هذه الأمة إلى أن يشرف على عمليات الطلاق، وأن يكون هو المسؤول عنها، فهل لك أن تطمئني بعد ذلك إلى هذا الإشراف؟ لم تكن الآية: يا أيها الذين آمنوا إذا طلقتم النساء. وإنما كانت: ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء﴾. ولم تترك القضية للمؤمنين، إنما يشرف عليها

سيد ولد آدم . ومن يقوم مقامه من بعده . وكما يقول ابن كثير :
(خوطف النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً ثم خاطب الأمة تبعاً .)
وكما يقول صاحب الظلال رحمه الله :

(هذه هي أول مرحلة ، وهذا هو أول حكم يوجه الخطاب به إلى النبي ﷺ ﴿يا أيها النبي﴾ . ثم يظهر أن الحكم خاص بالمسلمين لا بشخصه ﷺ : ﴿إذا طلقتم النساء . . ﴾ فيوحي هذا النسق من التعبير بما وراءه ، وهو إشارة الاهتمام وتصوير الجدية ، فهو أمر ذو بال ، ينادي الله نبيه بشخصه ليلقي إليه فيه بأمره . وهي إحياءات نفسية واضحة للدلالة على ما يراد بها من احتفال واحتشاد . . (١) .
﴿ . . . إذا طلقتم النساء . . ﴾

ومن بداية الطريق ، وحتى نكون واضحين : الطلاق بيد الرجل . ولكن ، كما ورد في سورة لا كما هو في أذهان الرجال .

﴿ . . . فطلقوهن لعدتهن . . ﴾

(. . عن أنسٍ قال : طلق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى : ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ ف قيل له : راجعها فإنها صوامه قوامه وهي من أزواجك ونسائك في الجنة .

ورواه ابن جرير عن قتادة مرسلًا . وقد ورد من غير وجه أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها (٢) .

إذا كانت حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها قد وقع عليها الطلاق . فما من امرأة في هذا الوجود أكبر من الطلاق . مهما كانت خلقاً وعفافاً ودينياً واستقامة سيرة .

وإذا كان رسول الله ﷺ طلق . فما من رجل في هذا الوجود أكبر من أن يطلق ولعل هذا الطلاق الذي وقع من رسول الله ﷺ إنما كان هو لحكمة

(١) : الظلال : المجلد السادس ، سورة الطلاق ص ٣٥٩٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٣٧٧ .

ربانية هي أن يقتدي به المؤمنون في الأرض الذين يتعرضون لحالات الطلاق.

فما من قضية في الوجود إلا ولنا فيها برسول الله أسوة حسنة .

وتطلق حفصة وتمضي إلى بيت أهلها كما تقول الرواية السابقة. فيأتي الحكم من فوق سبع سموات: راجعها فإنها صوامة قوامة .

الله تعالى يأمر عبده ونبيه محمداً ﷺ أن يراجع حفصة .

الله تعالى ينصر حفصة المرأة الضعيفة، وينزل على نبيه قرآناً في ذلك . فما مثل حفصة تطلق، لا لأنها بنت عمر بن الخطاب وزير رسول الله ﷺ وصفيه . بل لذاتها، لخصائص كامنة فيها؛ لأنها الصوامة القوامة، لأنها العابدة المتبتلة .

وراجعها رسول الله ﷺ .

ليعلم كل مسلم في هذا الوجود . لِمَ يراجع امرأته إن طلقها . وأن عليه أن يحصي العدة . يراجعها لدينها، ويصبر على خلقها . وهكذا علمنا الوحي . (. . . وهي من أزواجك ونسائك في الجنة) .

فهي تستحق هذه المكربة في الجنة، وقد حظيت بهذا الشرف فكانت بشخصها من المبشرات بالجنة ولم تعلم بهذا الشرف قبل طلاقها، ولم نعلم أنها الصوامة القوامة قبل طلاقها . ونقلت الأجيال جيلاً بعد جيل عن حفصة رضي الله عنها . أمر الله تعالى لرسوله ﷺ أن يعيدها إلى عصمته . وعادت، وهذه صورة واحدة من صور الطلاق في الإسلام .

فأي قدوة وأي أسوة أعظم من هذه القدوة، وأعظم من هذه الأسوة .

وأي إكرام لك يا أختاه المسلمة أن ينزل الوحي مع حفصة رضي الله عنها . ليراجع الرسول ﷺ موقفه منها؟!!!

هذه رواية . وهناك رواية ثانية في سبب نزول هذه الآية . فقد روى البخاري عن ابن شهاب الزهري قال :

أخبرني سالم (بن عبدالله بن عمر) أن عبدالله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهي حائض . فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال : ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر . فإن بدا له أن يطلقها طاهراً قبل أن يمسه فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء .

وهذا حكم جديد ، وإكرام جديد آخر .

ما نعرفه في عالم الطلاق نوعان .

طلاق النزوة العارضة ، والانفعال المفاجيء . والإغاطة الحاقدة ، والاستهتار المشين . وطلاق الصبر النافذ ، والمعضلة المتعصية ، والتباين الكامل ، والانفصال القائم . وهذان النوعان أطلق عليهما الفقهاء : طلاق السنة ، وطلاق البدعة .

(ومن ها هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة ، وطلاق بدعة . فطلاق السنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع أو حاملاً قد استبان حملها .

وطلاق البدعة هو أن يطلقها في حال الحيض أو في طهر قد جامعها فيه . ولا يدري أحملت أم لا .

وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة وهو طلاق الصغيرة . والآيسة ، وغير المدخول بها) .

ولنعد إلى الرواية الثانية .

(. . . فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ . . .)^(١) .

فطلاق الرجل امرأته وهي حائض يغضب الله ورسوله . لأن هذا الطلاق معظم الأحيان يأتي في حالة فتور أو نفور بين الزوجين .

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٣٧٨ .

﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى . فاعتزلوا النساء في المحيض، ولا تقربوهن حتى يطهرن .﴾ (١).

فإن يستغل الرجل هذا الإعراض، وهذا الأذى الذي يتبرم منه ليعلن طلاقه . فهو إغصاب لله ورسوله .

فالإقدام على الطلاق يتم بعد التفكير والروية والمناقشة . ولا يتم على منهج الله إلا في وقت محدد . وليس الحيض هو وقت إيقاع الطلاق .

وإذا انتهى الحيض . وتهيات المرأة عروساً لزوجها بعد الحرمان لوجود ذلك الأذى . وأقبل بقلبه على زوجه ولو مرة واحدة . فجامعها في هذا الطهر .

فقد انتهى وقت الطلاق في منهج الله شهراً جديداً وإلى الطهر الجديد .

ليس الطلاق - كما ذكرت - غضبة جاهلية أو حماقة بشرية . ! إنه قرار عميق مُتَرَوِّ مدرّوس بعد استعمال كل العلاجات المناسبة .

ولست هنا بصدد ذكر وسائل العلاج السابقة للطلاق . فليس موضوع الحديث عن الطلاق . بمقدار ما هو عرض لتكريم المرأة المسلمة وتشريفها من خلال الطلاق .

لقد حُصر الرجل في ركنين ضيقين إلى أبعد الحدود .

لا طلاق في الحيض . ولا طلاق في طهر قد جامع فيه زوجته .

وإذن . فقد ينتظر عندما يهيم بالطلاق ، أو يرد الخاطر على نفسه شهراً أو أقل بقليل ، أو أسبوعاً على أقل تقدير حتى يوقعه على كتاب الله وسنة رسوله .

وليس هناك غضب يدوم أسبوعاً أو شهراً . الوقت كاف وطويل للمناقشة والتروي ودراسة الطلاق وآثاره من جميع الوجوه .

وهذا هو الغالب .

(١) البقرة من الآية ٢٢٢ .

وهذه قيود جديدة كبلت الرجل المسلم عن استعمال حقه . وتركت له الوقت الكافي للتفكير في نتائج هذا القرار .

﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة . .﴾ .

وإذا كان مبعث الطلاق من العاطفة فليعالج بمصل العاطفة نفسه .
فليعالج بتقييده ومنعه أثناء الحيض . ومنعه في طهر قد تم فيه ولو جماع واحد .

إنه رب السموات والأرض الذي خلق هذا المخلوق الإنساني . وأودع فيه نوازع الفطرة . وقدم له المنهج المناسب لهذه الفطرة .

وأسألك يا أختاه .

كم من حالات الطلاق تختصر . لو تقييد الناس بمنهج الله ، ألا يطلقوا في حيض ، أو في طهر جامعوا فيه؟! ألا تختصر الحالات إلى أقل من النصف!!؟

ولكنه الخروج على منهج الله وحكمه وأمره وشرعه . ويأتي الجاهلون بعدها ليلصقوا جهلهم وحمقهم بشريعة الله .

وننتقل إلى الخطوة الثالثة :

﴿ . . . واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ .

وهو حكم عجيب آخر . ومحاصرة جديدة للزوج .

إنه الأمر بالتقوى هنا مرتبط بهذه الخصوصية . بعدم الإخراج من البيوت . وكان اللفظ القرآني ﴿ . . . من بيوتهن﴾ ومع أن البيت هو بيت الرجل ، فإن الإكرام هنا لهذه المرأة التي وقع عليها الطلاق أن البيت بيتها وحق لها ، وإخراج الرجل لها من هذا البيت هو اعتداء آثم عليها .

إذا لم يتوقف الرجل عن الطلاق . لأن زوجه ذات دين ، رام يستجب

للأمر الأول، ثم طُلّق في الوقت المحدد في غير حيض، وغير طهر قد واقعها فيه، فيأتي أمامه العيب الثالث: أن لا يخرجها من بيتها خلال فترة العدة، التي تمتد ثلاثة قروء.

إنها مطلقة، وهي في بيته. وهو بيتها في الأصل، حتى يذكرها صباح مساء، ولا تغيب عن ذهنه، ويراجع الأمر في الغدو والعشي، ويجرب مرارة البعد ومرارة الهجران، ومرارة الحرمان منها، ويعاني بشكل عملي الآثار النفسية الخطيرة عليه وعلى ولده وعلى بيته، وعلى تعامله مع ضيفانه، وفقدانه الخدمة الطيبة، واليد الحانية، والروح العذبة ليعيد كل حساباته، ليس خلال يوم أو أسبوع أو شهر. بل خلال ثلاثة أشهر على التقريب.

إنه حكم يستحيل أن يكون من صنع بشر. إنه الله تعالى بارئ النفوس والقلوب وجابل الفطر، يضع الدواء الناجع لهذه المشكلة. من الفطرة ذاتها. فإذا كان الزوجان صادقين في إيمانهما. غير أن النفوس لم تجد طريقة للألفة. فلعل العدة بعد الطلاق. تحرك الكامن من الحب الذي طغت عليه متطلبات الحياة اليومية، وتثير الفاني من الود الذي طغى عليه طول الاحتكاك ومشقة الحياة. ولن يبرز ذلك إلا بهذه الصورة العجيبة.

طلاق واقع، وإقامة دائمة للزوجة في بيت زوجها، حرمان مع إمكان، وبعد مع ود. فلتستيقظ إذن عوامل الحب بعد طول هجعة، وليراجع كل زوج رصيده، بعد آلام الفراق، والصعوبات الأضخم من صعوبات اليوم والليلة. وليلق الأولاد بين هاتين الجنتين يتلظون بنار الفراق بين أبيهم وأمهم، وليس الأمر ساعة فتمر، ولا أسبوعاً، فتغمض العين عنه، ولا شهراً فينقضي بعد عسر. إنها العدة ثلاثة قروء، أو ثلاثة أشهر. إنها أضخم المحاولات. في إعادة الأمور إلى مجاريها.

وهذا الكلام خاص بالمؤمنين الصادقين. وهذا الحق خاص بالمرأة المسلمة الخاضعة لمنهج الله.

أما اللواتي يأتين بفاحشة مبينة . فلسن أهلاً لهذا الحق .

المرأة التي تقدم على الزنا . معلنة تحطيم الأسرة ، ومتحدية أمر الله .
أمثل هذه تكرم؟؟ لا ، أبداً . إنها تُطرد .

﴿ . . . ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . . ﴾

أو ما هو قريب من الزنا ، أن تسلط لسانها البذيء على زوجها وأهله
وولده . فهي لا تستحق هذا الإكرام .

(. .) والفاحشة المبينة تشمل الزنا كما قاله ابن مسعود وابن عباس . . .
وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بدت على أهل الرجل وأذتهم في الكلام
والفعال كما قاله أبي ابن كعب وابن عباس . . .)^(١) .

إنما تكون هذه القيود لصالح المرأة المسلمة الملتزمة بمنهج الله .

الله تعالى يشرع لنا رجلاً وامرأة ، ويضع حدوداً لا يجوز تجاوزها .

﴿ . . . وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري
لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ .

(وهذا هو التحذير الثاني . فالحارس لهذا الحكم هو الله . فأَيُّ مؤمن
إذن يتعرض لحِدِّ يحرسه الله؟! إنه الهلاك والبوار . . . ﴿ومن يتعد حدود الله
فقد ظلم نفسه﴾ . . . ظلم نفسه لتعريضها هكذا لبأس الله القائم على حدوده
يحرسها ويرعاها . وظلم نفسه بظلم زوجه : وهو وهي من نفس واحدة ، فما
يظلمها يظلمه كذلك بهذا الاعتبار . . . ثم . . .

﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ .

وهي لمسة موحية مؤثرة . فمن ذا الذي يعلم غيب الله وقدره المخبوء
وراء أمره بالعدة وأمره ببقاء المطلقات في بيوتهن . . . إنه يلوح هناك أمل

(١) في ظلال القرآن م ٣٦٠٠/٨ .

ويوصوص هناك رجاء. وقد يكون الخير كله، وقد تتغير الأحوال وتتبدل إلى هناة ورضا. فقدر الله دائم الحركة. دائم التغيير، ودائم الأحداث، والتسليم لأمر الله أولى، والرعاية له أوفق، وتقواه ومراقبته فيها الخير يلوح هناك! (١).

إن حدود الله تعالى هنا أن لا تخرج المرأة قبل انتهاء عدتها من بيت زوجها وهو ما يطلق عليه - الطلاق الرجعي - حيث يستطيع الزوج خلالها إن بدا له التراجع عن الطلاق أن يرجع زوجته إلى عصمته. وهذا الزمن الذي قدره رب السموات والأرض لتبقى عنده في بيته لا شك أنه زمن كاف للعودة والمراجعة والمصالحة والتفاهم.

إنها حكمة ربانية. فلو مضت إلى بيت أهلها. وعنَّ له خاطر إعادتها لعصمته. وهم بذلك قد يستثقل معاودة أهل زوجته، وقد يتدخل الأهل فيعقدون الأمر، ويضعون شروطاً. ويطلبون أموراً تثنيه عن رغبته. أما الآن. فهي في متناول يده. لن يتدخل أحد في الأمر ولن يكلفه الأمر إلا الإعلام بذلك.

ويألها من تجربة شعورية قاسية، وفي البيت الواحد يفرق بين الحبيبين المتخاصمين ويمتنعان عن اللقاء. وشعور الندم والمراجعة يلف كيانهما معاً. هل ترسل له رسولاً بما في نفسها؟ تعتذر عما بدا منها، ويضعان منهجاً جديداً للمرحلة القادمة. وهو؛ هل يعلن لها أسفه عما بدر منه، ويعاتبها على ما أساءت له؟ ويتصافيان بعد خصومة ويهدآن بعد ثورة، ويسكنان بعد فورة.

نعم، وما الذي يمنع من ذلك. خبر مع ولدها، أو مع أمه، أو نداء لها مباشر. لعل القلوب الجاسية تلين، لعل بكاء الصبي الصغير يفتت الأكباد. فيضغط كل منهما على نفسه من أجل هذه الأكباد الجائعة، وهؤلاء الصبية الصغار.

هل من عائق؟ أبداً. إنها في البيت.
لا تدري، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

(١) في ظلال القرآن م ٨ / ٣٦٠٠.

﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدلٍ منكم، وأقيموا الشهادة لله، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر. ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب. ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾.

انتهت العدة، أو شارفت على الانتهاء، والمطلوب من الرجل أن يبت أمره ويعزم عزمته حيث يأتي القيد الرابع والخامس.

﴿فأمسكوهن بمعروف، أو فارقوهن بمعروف﴾.

فالطلاق ليس حرباً ولا تحطيماً ولا إهانة، الطلاق إنهاء عقد بين شريكين. عجزا عن متابعة الحياة المشتركة، وقد وضعت كل القيود والقواعد التي تنهي هذه الشراكة على أفضل سبيل ﴿فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف﴾ وحيث أن إنهاء الشركة من طرف واحد. فلا بد له من كل الضمانات التي تكفل حقوقه وكرامته، وتحافظ على جبل الود لما وراء هذه الشركة من آثار قد تكون ولداً وقد تكون مالاً أو متعة أو حقاً أو ذمة.

إذن هذه العدة ليست مضارة لأحد، وليست استغلالاً. وعندما تأخذ هذا المجرى فهي اعتداء على شرع الله، وعلى حدود الله، وعلى حرمان الله. ﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾.

والقيد السادس والسابع:

﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم.﴾

فإذا حضر الأمر بين الزوجين. فقد يتابع الرجل استغلاله، وقد يتجاوز الحدود في الإمساك والمفارقة. فلا بد أن تنتقل القضية من باب رفع الكلفة إلى باب تحقيق الحق والتأكد من وصوله. ولا بد من شهود.

والرجل والمرأة كلاهما حين تخرج القضية من إطار الخصومة اليومية إلى إطار تعرف الناس على واقعهم، وإشهادهم بذلك. فهذا يعني أن الأمر جد، ولم يعد متروكاً للقضية الفائرة. لا بد من الحساب على الكلمة والموقف أمام الناس.

ولا بد لهؤلاء الشهود أن يكون لهم دور أصيل في القضية الرئيسية؛ في الإمساك بالمعروف أو المفارقة بالمعروف. ومن أجل هذا كان القيد السابع.

﴿... ذوي عدل منكم...﴾

فليس السفهاء هم الشهود، وليس الفساق هم الشهود الذين يزينون للرجل انحرافه ونزوته أو للمرأة نشوزها وخروجها وسفهاها. لا بد أن يكون الشاهد عدلاً، له بين الناس احترامه وسمعته. ويخشى الناس على سمعتهم من علمه بشططهم، وحكمه على تجاوزهم المعروف والعدل. لا بد منهما في عملية الطلاق أو الإعادة.

قيد خلف قيد، وحصن وراء حصن، حتى لا تفلت الأمور، وتنهار الأسرة.

ألا يكفيك يا أختاه أن يكون الله تعالى المدافع عنك، والمحافظ على حقك، والحريص على كرامتك، والكفيل بسعادتك. وقد أوكل لرسوله ﷺ أن يشرف على هذا الأمر، وإلى جماعة المسلمين وأميرهم من بعده؟؟!

﴿... وأقيموا الشهادة لله...﴾

كلها أوامر، أمر تلوأمر: ﴿... فطلقوهن لعدتهن.. احصوا العدة... اتقوا الله ربكم... لا تخرجوهن من بيوتهن... ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة... فأمسكوهن بمعروف... أو فارقوهن بمعروف... وأشهدوا ذوي عدل منكم... وأقيموا الشهادة لله...﴾

أوامر تسعة، يلفها تهديد رهيب.

﴿تلك حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه...﴾

ومن جانب آخر يرافقها ترغيب عظيم، وتوجيه حكيم، وخطاب إلى أعماق القلوب، ونداء إلى حنايا النفوس، واستجاشة لأعظم كوامن الإيمان. في أربع فقرات متواليات.

١ - ﴿... ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر...﴾

٢ - ﴿... ومن يتق الله يجعل له مخرجاً...﴾

٣ - ﴿... ويرزقه من حيث لا يحتسب...﴾

٤ - ﴿... ومن يتوكل على الله فهو حسبه...﴾

مع ختام بدعوة إلى التسليم الكامل والتفويض التام لله عز وجل في ما أمر وحكم. فهو أخبر بالنتائج، وأدرى بالنفوس، وأعلم بالماضي والحاضر والمستقبل.

١ - ﴿... إن الله بالغ أمره...﴾

٢ - ﴿... قد جعل الله لكل شيء قدراً...﴾

ووقفه مع هذه الفقرات الأربع، ومع هذا الختام.

١ - ﴿... ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر...﴾:

إن ربط الطلاق بقيوده وأحكامه بالإيمان بالله واليوم الآخر. هو ربط عميق ذو مغزى، المؤمنون بالله واليوم الآخر هم الذين ينفذون هذه الأحكام والأوامر، أما الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فيلقون هذه الأحكام والأوامر دبر آذانهم، وخلف ظهورهم. وعصمة المسلم بإيمانه تجعله يخاف جداً أن يظعن بهذا الإيمان، إنها العصام القلبي من الزلل، والواقى النفسي من الانحراف والتجاوز.

ليس الأمر سهلاً إذن. إن القضية في الطلاق قضية إيمانٍ ودين، والذي يستهتر بهذه الأوامر. فهو خارج عن حظيرة الإيمان التي جعلها الله تعالى علامة المؤمنين.

٢ - ﴿... ومن يتق الله يجعل له مخرجاً...﴾ :

إن روعة هذا التعقيب وعظمته حين يتجاوز الآفاق والأمداد غير مرتبط بحادث الطلاق. وينطلق حكماً خارجاً من حدود الزمان والمكان. إن تقوى الله تعالى هي المخرج من العسر والمحنة. هذا التعميم الشامل لا يمنع من الأنس به أن نربطه بظرفه وسببه، أن نربطه بالمرأة المسلمة حيث جاء إكراماً لها، وصوناً لحقها، وحفظاً لكرامتها.

إنها المرأة المسلمة التي ترى الإمساك بالمعروف قد وقع عليها إن اتقت الله في التعامل مع زوجها فسوف تجد مخرجاً من أزمات الحياة الصعبة في حياتها.

إن اتقت الله فسوف تجد مخرجاً من الخلق العسير الذي يحمله زوجها.

إن اتقت الله وخافته في سلوكها فسوف تجد مخرجاً من الضياع الذي كان يمكن أن يلفها ويلف أولادها لو تم الفراق.

وكذلك حين الفراق بالمعروف.

إن اتقت الله في موقفها. فالله تعالى جاعل لها فرجاً ومخرجاً في زوج آخر؛ ويُغني الله كلاً من سعته.

إن اتقت الله في موقفها وقبلت قضاء الله وقدره. فالله تعالى جاعل لها فرجاً ومخرجاً من خوفها على مستقبل أولادها، فتتفرغ لهن بكل ما تملك. وتربيهن على أحسن وجه وأتم تربية إن اتقت الله تعالى وصبرت واحتسبت بعد الفراق بالمعروف. فالله تعالى جاعل لها فرجاً ومخرجاً من زوجها الأعسر، وخلق النكد، وسوءه القبيح.

وغير ذلك، وغير ذلك كثير. . .

وما يقال عن المرأة يقال عن الرجل :

فإن اتقى الله وحفظ حدوده ونفذ أوامره وأمسك بالمعروف فالله تعالى جاعل له فرجاً من سوء التفاهم بينه وبين زوجته . فتأتلف القلوب ، وتوطأ الأكناف ، وترق النفوس .

وإن اتقى الله وحفظ حدوده فالله تعالى جاعل له فرجاً ومخرجاً من ضياع أولاده بحيث ينعمون بحنان والديهم وترعون من دفء قلوبهم .

وإن اتقى الله وحفظ حدوده فالله تعالى جاعل له فرجاً ومخرجاً من بيته النكد الصعب إلى بيت تحفه السكينة ، وتغشاه الرحمة ، وتعود إليه أندية الألفة .
وكذلك إن فارق بالمعروف .

فإن اتقى الله تعالى وحفظ حدوده ، ولم يجد بداً من الفراق . فالله تعالى جاعل له فرجاً ومخرجاً من وحدته وكآبته زوجة صالحة تعينه على مشاق هذه الحياة .

وإن اتقى الله تعالى ولم يتعد حدوده ، ولم يجد بداً من الفراق . فالله تعالى جاعل له فرجاً ومخرجاً من ضياع أولاده في حفظهم ورعايتهم بخالة رؤوم تحنو عليهم وتتعهدهم .

وإن اتقى الله تعالى ولم يتعد حدوده ، ولم يجد بداً من الفراق . فالله تعالى جاعل له فرجاً ومخرجاً من هموم البيت ونكد العيش . بيتاً هائئاً مستقراً . يذوق منه لذة العيش بعد مرارته .

٣ - ﴿... ويرزقه من حيث لا يحتسب...﴾ :

ويرزقه الله تعالى خيراً منها ، ويرزقها الله تعالى خيراً منه .
ويغني الله كلاً من سعته .

ومن خاف منهما ضنك العيش . وعسر اليد ، وقلة المال . فلا يخشى ذلك مع التقوى . فالرزق يأتي من حيث لا يحتسب سعة ويسراً . وفرجاً وغنى .

وما أروع الرزق يأتي للمسلم والمسلمة من حيث لا يحتسبان. فإذا هو يغسل الألم. ويقر العين، ويفرج الكرب، ويسعد العائل.

٤ - ﴿... ومن يتوكل على الله فهو حسبه...﴾:

أفق جديد، وعالم جديد. رمى كل خشيته وخوفه وفزعته من المستقبل المظلم.

ورمت كل خشيتها وخوفها وفزعها من المستقبل المظلم. ولجأ إلى ركن ركين. وأوياً إلى ركن شديد. فكفاهما الله تعالى المؤونة، وأيسرهما بعد إيسار، وأغناهما بعد إفقار، وأسعدهما بعد بؤس، وتركها كل تخوفاتهما إلى الله ملاذاً ورجاء، وثقة، فكفاهما الله وهو حسيب المؤمنين المتوكلين.

من أي شيء يقلقان. وقد سارا على منهج الله تعالى في الإمساك بالمعروف، أو الفراق بالمعروف، وحاولا جهدهما، أن يزيلا كل عوامل الخصومة، موعظة وصبراً، وتحكماً، ولكن دون جدوى. فمم يخشيان. والكفيل الله، والمتعهد الله، والراعي الله. ووعد الله تعالى لا يخلف.

﴿... ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله فهو حسبه...﴾.

﴿... إن الله بالغ أمره...﴾

إنه تعالى، البصير بخلجات النفوس، ودقات القلوب، وجابل الفطر، وعالم السر وأخفى هو الذي أنزل هذه الأحكام، وشرع هذه الشرائع، وأكرم خلقه بهذه الحلول وبعد هذا إن الله بالغ أمره. في هذا الكون الفسيح الأرجاء. وفي هذه الأرض التي لا تعدو بمن فيها هباءة في ملكوت الله، وذرة من ذراته.

الله تعالى الذي يعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا مكتوبة مقدرة تنمو

أو تموت، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه، وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها الذي دبر هذا الكون في كل ذرة من ذراته، وخلق من مخلوقاته. هو الذي وضع هذا المنهج، وأنزل هذا الحكم، لأمر بالغ لا يعلمه إلا هو، ولقدر نافذ لا يدركه إلا هو، ولحكمة بالغة، لا يدرك أبعادها كلها إلا هو.

﴿... قد جعل الله لكل شيء قدراً...﴾

ولكل أسرة أجل، ولكل زواج مدى. ولكل بيت عمر، كل شيء بقدره ومشيئته. لكن النتائج مرتبطة بالأسباب. هكذا شاء تعالى.

فمن يتق الله، (رجلاً أو امرأة) يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب.

ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه (رجلاً كان أو امرأة).

ونتائج التقوى والتوكل معروفة، ونتائج تعدي حدود الله معروفة.

وأَيُّ من الفريقين، سار في طريقه، نال ثمرة مساره، ولا يخشى من تعدي الحدود من الآخر، لأن الله تعالى هو الكفيل الحسيب.

تعامل مباشر، مع الله تعالى، وربط لهذه الأمور جميعاً بسيد هذه الأمة، وسيد ولد آدم. ﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء...﴾

فهل تخشين يا أختاه من إخلاف موعود الله فيما وعد؟ وهل تخشين يا أختاه من خلل في الحكم من الحكيم الخبير؟. بالتأكيد، لا. ولكنك تخشين من عدوان الحدود من الرجل الظالم الغاشم الأحمق. فلا تخشي ذلك، أما تكفل الله تعالى بك ولك إن اتقيت، وتكفل بالانتقام منه إن طغى، وتجاوز الحدود، ورفض الأوامر التسعة، المذكورة، ألم يهدده ربك بالانتقام لك ﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ ولا بد أن يلقي عواقب هذا التعدي.

وهو الظالم الذي يجني الثمر المرّ لما غرس، والعلقم الأمر لما زرع.
ولا تدرين، لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً. فارقي موعود الله وأمره.
إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدراً. وتوكلني على الله فهو
حسبك في ما يأمر ويقدر.

* * *

وتعالي يا أختاه قليلاً، نخرج من عالم البيت والأسرة إلى العالم الرحب
في ظلال هذه الآية: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا
يحتسب﴾. وننصت معاً إلى ذلك الحديث الطريف الذي نستمع إليه من أبي
ذر، مع أحب خلق الله إليك، مع رسول الله ﷺ:
«فعن أبي ذر رضي الله عنه قال:

جعل رسول الله ﷺ يتلو عليّ هذه الآية: ﴿ومن يتق الله يجعل له
مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ حتى فرغ من الآية، ثم قال:
«يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم».
قال: فجعل يتلوها ويردها عليّ حتى نعست، ثم قال:
يا أبا ذر كيف تصنع إذا أخرجت من المدينة؟
قلت: إلى السعة والدعة أنطلق فأكون حمامة من حمام مكة.
قال: كيف تصنع إذا خرجت من مكة؟
قال، قلت: إلى السعة والدعة إلى الشام والأرض المقدسة.
قال: وكيف تصنع إذا أخرجت من الشام؟
قال، قلت: والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي.
قال: أو خير من ذلك، قلت: أو خير من ذلك؟
قال: تسمع وتطيع وإن كان عبداً حبشياً»^(١).

(١) رواه الإمام أحمد.

فهذه صورة من صور تقوى الله والاتكال عليه . قدمها رسول الله ﷺ لجنديه أبي ذر يدعوه، فيها أن يصبر ويحتسب، وأن يتقي الله لو نزلت به نازلة، وما هو رضي الله عنه يلقي هذا المصير، فلا يجد قراراً له في المدينة أو مكة، أو الشام في أيام عثمان رضي الله عنه أمير المؤمنين . فيمضي إلى الربذة، ويقيم فيها وهي في البادية على طريق الحجيج، ويتقي الله تعالى، فيجد الفرج والرزق من حيث لا يحتسب . لقد كان عطاء عثمان يصل إليه في البادية كل يوم فخذ شاة حتى لقي وجه الله - حيث تنقطع السبل ويهلك الناس، وعندما جاء أجله أكرمه الله تعالى بطائفة من المؤمنين شهدوا وفاته على رأسهم عبدالله بن مسعود رضي الله عنه . وكان هذا تنفيذاً لوعده الله الصادق: رحم الله أبا ذر يعيش وحده، ويموت وحده، ويشهده طائفة من المؤمنين ولم يحمل سيفه إنما صبر واحتسب حتى أتاه الفرج كما علمه رسول الله .

درس عملي تلقاه من رسول الله ﷺ في مدرسة النبوة . ونفذه بعدما ينوف على عشرين عاماً من الزمان .

وبين يدينا رواية حول نزول هذه الآية ﴿ومن يتق الله ..﴾ نستأنس بها:

قال محمد بن إسحاق:

جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله ﷺ فقال له: أسر ابني عوف فقال له رسول الله ﷺ: «أرسل إليه أن رسول الله يأمرك أن تكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله». وكانوا قد شدوه بالقد^(١)، فسقط القدُّ عنه، فخرج فإذا هو بناقاة لهم فركبها. وأقبل فإذا بسرح^(٢) القوم الذين كانوا قد شدوه، فصاح بهم فأتبع أولها آخرها. فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب. فقال أبوه: عوف ورب الكعبة! فقالت أمه: واسوأته وعوف كيف يقدم لما هو فيه من القد، فاستبقا الباب والخادم فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلاً، فقصَّ على أبيه أمره وأمر الإبل. فقال أبوه:

(١) القد: السير الذي يُقد من الجلد . (٢) سرح: المال الراعي .

قفا حتى آتى رسول الله ﷺ فأسأله عنها، فأتى رسول الله فأخبره بخبر عوف، وخبر الإبل. فقال له رسول الله ﷺ: «اصنع بها ما أحببت، ما كنت صانعاً بمالك» ونزل:

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾^(١)

ولئن كان هذا سبب نزول هذه الآية. وشاءت إرادة الله تعالى أن تكون هذه الآية في هذا الموقع من السورة. فهو إشعار بأهمية هذا المعنى في هذا الموقع بالذات وكما فسرهما المفسرون:

قال عكرمة: من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجاً. وكذا روي عن ابن عباس والضحاك. وقال السدي: ﴿ومن يتق الله﴾ يطلق للسنه، ويراجع للسنه...^(٢).

- ٣ -

﴿واللاني يشن من المحيض من نسائك إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر، واللاني لم يحضن وأولات الحمل أجلهن أن يضعن حملهن، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا، ذلك أمر الله أنزله إليكم، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾.

وها نحن لا نزال مع العدة، وكم يقيم الإسلام لها وزناً وأهمية لعلها تكون منعطفاً في بناء الأسرة، وتجربة حافلة بالمشاعر والأحاسيس والمفاجآت.

فالمرأة التي تحيض عدتها ثلاث قروء. وبقي أمر العدة للآيسة والصغيرة. وكلّ منهما إنسان له مشاعر وأحاسيس وكيان مستقل. فما حكم العدة لهن؟ العدة التي يمكن أن تعيد البناء، وتأسو الجراح، وتفرج الكرب. فكان الحكم هو ثلاثة أشهر لهن.

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٨٠.

ونوع رابع من النساء وهن الحوامل ، فعدتهن حتى يضعن حملهن .
 وكان للحوامل قصة مع الطلاق ، وللمطلقات ثلاثاً قصة أخرى .
 فالمطلقات ثلاثاً لا سكنى لهن ولا نفقة . وعليهن العدة . لاستبراء
 الرحم .

(فعن عامر قال : قدمت المدينة فأتيت فاطمة بنت قيس فحدثتني أن زوجها طلقها على عهد رسول الله ﷺ فبعثه رسول الله في سرية قالت : فقال لي أخوه أخرجني من الدار : فقلت : إن لي نفقة وسكنى حتى يحل الأجل ، قال : لا . قالت : فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إن فلاناً طلقني ، وإن أخاه أخرجني ومنعني السكن والنفقة . فقال له : «مالك ولابنة آل قيس؟» . قال : يا رسول الله إن أخي طلقها ثلاثاً جميعاً . قالت : فقال رسول الله ﷺ : «أنظري يا ابنة آل قيس إنما النفقة للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة ، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى أخرجني فانزلي على فلانة» ثم قال : إنه يتحدث إليها . «انزلي على ابن أم مكتوم فإنه أعمى لا يراك» ، وذكر تمام الحديث . (١) .

إنه لا ضرورة للسكنى في البيت ، ما لم يكن ثمة عودة بعد العدة .
 وحيث أن الحياة بتت بينهما ، فلا يجب عليه الإنفاق عليها .

وجمال الحديث هو كونه عن فاطمة رضي الله عنها التي طلقها زوجها ثلاثاً . فهي تنقل الحادثة بأمانة كاملة دون حرج أن تكون هي المطلقة ، ودون حرج أن يكون رسول الله ﷺ قد حكم عليها لا لها . ودون حرج أن تكون بلا سكنى ولا نفقة ، ودون حرج أن تنتقل في عدتها من بيت أم شريك إلى بيت ابن أم مكتوم . وذلك لأن المرأة في عدتها لا يحق لها أن ترى الرجال ، فهي مصونة لبراءة الرحم وعدم اختلاط الأنساب .

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده .

وفي مجال الحديث عن العدة والطلاق أودُّ يا أختاه المسلمة أن تنفذي إلى أعماق المجتمع المسلم آنذاك. ذاك المجتمع الذي يمكن أن نطلق عليه اسم المجتمع المفتوح. وعلينا أن نفقه أبعاده ونظرتَه للمرأة، وكيف كانت تعيش المرأة فيه.

فقد رأينا صورة من ذلك من خلال فاطمة بنت قيس التي تلقت الأمر بتمام الرضا والارتياح وقد غدت مطلقة بلا سكنى ولا نفقة. وتمضي من بيت أم شريك رضي الله عنها إلى بيت ابن أم مكتوم دون حرج تنتظر انتهاء المدة والعدة. لتبدأ حياة جديدة مع رجل آخر.

ويخطر على الذهن أن هذه المطلقة ثلاثاً. ستمضي عمرها منبوذة لا يعاً بها أحد، ولا يلتفت إليها أحد، مهانة، مكسورة الخاطر، مهينة الجناح، لأننا هكذا نعرف وضع المطلقات في مجتمعنا المنكود.

فتعالي معي يا أختاه إلى هذا المجتمع المفتوح الحي، المتحرر، وارقبي تمة الحديث:

(... فلما حلَّت، قال رسول الله ﷺ: «هل ذكرك أحد؟» قالت: نعم، معاوية وأبو الجهم. فقال:

«أما أبو الجهم فشديد الخُلُق. (وفي رواية: ضراب للنساء). وأما معاوية فصعلوك لا مال له، ولكن انكحك أسامة» فقلت: أسامة! - تهاوناً بأمر أسامة - ثم قلت: سمعاً وطاعة لله ورسوله.

فزوجنيه. فكرمني الله بأبي زيد، وشرفني الله، ورفعني به)^(١).

إذن بعد ثلاثة قروء، قرابة ثلاثة أشهر تقدم شريفان عظيمان من أشرف

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي. وقال مخرج الحديث: إسناده صحيح وأخرجه مسلم في صحيحه عن طريق إسحاق بن منصور عن أبي عاصم عن سفيان الثوري عن أبي بكر ابن أبي الجهم.

مكة فخطبها، هما معاوية بن أبي سفيان الأموي، وأبو جهم بن أبي حذيفة العدوي وهما من هما شرفاً وكرماً ومروءة، واختارت رسول الله ﷺ ليختار لها أحدهما.

وقدّم رسول الله ﷺ عرضاً للرجلين من أصحابه وهو أدرى بهما أما أبو الجهم، فشديد الخلق أو ضراب النساء.

وأما معاوية فصعلوك لا مال له.

وهذا يعني أن هذا الأمر تم بعد فتح مكة. لأن معاوية رضي الله عنه كان من مسلمة الفتح.

واختار رسول الله ﷺ لها ثالثاً غير معاوية وأبي الجهم، وذلك حين تركت أمرها له.

فقلت: أسامة؟ - تهاوناً بأمر أسامة - .

ولا غرابة في ذلك، فأسامة شديد السواد، وفتى في مقتبل العمر.

ولكنها عادت فذكرت أن الرسول ﷺ هو الذي يختار، ففزعت لما قالت، وآبت إلى إيمانها قائلة: سمعاً وطاعة لله ورسوله.

وتركت رأيها جانباً، أمام رأي رسول الله.

فقالت بعدها:

فزوجنيه فكرمني الله بأبي زيد، وشرفني به، ورفعني به.

وكيف لا يكون ذلك، وقد اختار لها رسول الله ﷺ أحب الناس إليه هذا الفتى الأسود، أفتطس الأنف ولعلها أكبر منه وليس له نسب معاوية وأبي الجهم، فعن علي قال:

(يا رسول الله، أي أهلك أحب إليك؟ قال: فاطمة). قال: إنما أسألك

عن الرجال؟ قال: «من أنعم الله عليه، وأنعمت عليه، أسامة بن زيد» قال: ثم من؟ قال: ثم أنت^(١).

وعن ابن عمر قال:

قال رسول الله ﷺ: أحب الناس إليَّ أسامة، حاشا فاطمة (ولا غيرها)^(٢).

وقد أسهم رسول الله ﷺ في إكرام هذه المطلقة ثلاثاً حيث اختار لها أحب أهله إليه بلا منازع.

هذه هي المطلقة في الإسلام، طلاقاً ثلاثاً لا رجعة بعده.

ماذا عن الحامل المتوفى عنها زوجها.

فعن ابن شهاب الزهري قال:

حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله الأرقم الزهري يأمره أن يدخل على سبيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ﷺ حين استفتته، فكتب عمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة وكان ممن شهد بدران فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته. فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها: مالي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر، قالت سبيعة:

فلما قال لي ذلك جمعت عليّ ثيابي حين أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي^(٣).

(١) أخرجه الترمذي والطبراني والحاكم ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رجاله ثقات، وأخرجه الطبراني والحاكم.

(٣) رواه مسلم، وفي رواية البخاري أن زوج سبيعة الأسلمية قتل وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين ليلة فخطبت فأنكحها رسول الله ﷺ وكان أبو السنابل فيمن خطبها.

فها هي رضي الله عنها تتجمل للخطاب بعد أيامٍ من نفاسها استعداداً للزواج، وماذا نقول عن المرأة التي تفعل هذا الأمر في مجتمعنا اليوم؟ إننا نخرجها عن دينها أو عرضها لو فعلت هذا الأمر بعد عام من وفاة زوجها ووضعتها.

ولكنه مجتمع منفتح، يريد أن تبني الأسرة عن قناعة ورضا، وأن تنهى الأسرة عن قناعة ورضا. ويعاد البناء الجديد عن قناعة ورضا، المرأة تختار، والرجل يختار، وتحفظ الحقوق والحدود حفظاً تاماً من خلال العدة، فتستبرأ الأرحام، ويحفظ حق الرجل في العودة أثناء العدة، لتتم التجربة كاملة.

ويعود التأكيد الحاسم الحازم ثانية وثالثة عن المستقبل المرهون بيد الله، والمرتبط بتنفيذ منهج الله.

﴿... ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا...﴾

وهل هناك أعظم من هذه الثمرة.

(واليسر في الأمر غاية ما يرجوه إنسان، وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبده من عبادته، فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيقة، يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره، وينالها بيسر في حركته وعمله، ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها، ويعيش من هذا في سر رضي ندي، حتى يلقي الله. ألا إنه الإغراء باليسر في قضية الطلاق مقابل اليسر في سائر الحياة!)^(١).

لقد جاء هذا الختام في مجال الحديث عن العدة، حتى تبقى القلوب معلقة بالله الذي بيده الأمر، وإليه المصير. وهو ندئ لقلب المسلمة المطلقة، أن أمورها ماضية ميسرة. لن نتعقد بولد، ولن نتعقد بخاطب، ولن نعسر بمال، ولن تصعب بمشكلة، إن التقوى هي ميزان اليسر ومفتاحه، وندئ لقلب المسلم الذي التزم حدود الله ففارق بمعروف أو أمسك بمعروف فإن

(١) في ظلال القرآن ٣٦٠٢/٦.

كانت حياة الزوجين قد تعقدت من قبل، وعاداً إلى تجربة جديدة، فسيكون اليسر والتفاهم هو صورة الحياة الجديدة. وإن كان الافتراق قد تم، فاليسر للزوجين في حياتهما الجديدة إذ يهيء الله لكل زوج صاحبه، ويغني الله كلاً من سعته.

﴿ذلك أمر الله أنزله إليكم، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾. تأكيد بعد تأكيد، أن الأمر جد، وأن الأمر ليس هوئاً طارئاً. ولا نزوة عارضة، ولا مزاجاً متحكماً. إنه أوامر محددة، وخطوات متتابعة، لا بد من التقيد بها كلها. والحفاظ عليها جميعاً، حتى يكون الجُلُّ في محله، فالطلاق حلال. ولكن بالصيغة التي نزل بها القرآن؛ في إحصاء العدة، في الفراق بالمعروف، في إشهاد ذوي العدل، في عدم الإخراج من البيت، في الإخلال بأي جانب من هذه الجوانب هو تعدٍ على حدود الله، وتجاوز على أمر الله الذي أنزله إلينا لينفذ كما أمر.

وتمام فضل الله ونعمته هو أن تقوى الله في التعامل كما أمر لها بعد جديد، وثمرة جديدة ﴿... يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً﴾.

وما أروعها من نعمة، وما أعظمه من فضل، فتقوى الله مغفرة للذنوب، وإعظام للأجر. هذا بشكل عام، وبشكل خاص تقوى الله في موضوع الطلاق والتقيد بأوامره فيما أمر بهذا المجال، والانتهاء عما نهى عنه في هذا المجال فيه تكفير للسيئات، وليس هذا فقط بل إعظام للأجر.

والمرأة الصابرة المحتسبة، التي ابتليت بزواج ظلوم غشوم، لا يرعى إلاً ولا ذمة. ويتعدى حدود الله، ويتحدى أوامره. قد يقع عليها من بلائه وظلمه وبغيه ما لا يوصف. فماذا لها عند الله، حين تمسك بتقوى الله.

لها عند الله؛ أن يرزقها من حيث لا تحتسب، وأن يجعل لها من أمرها يسراً، وأن يكفر عنها سيئاتها، وأن يعظم لها أجراً. وأن يكون الله حسبها إن توكلت عليه.

والرجل الصابر العاقل، المبتلى بزواج ناشز عقور، سفيهة، لا تطيع، وصبر عليها وعلى خلقها، وتقيد بالحدود التي أمر بها، واتقى الله فيها. فله عند الله ما وعد به المتقين. من رفع للدرجة، وتكفير للسيئة، وتسيير للأمر، وإغداق للرزق، وإن توكل على الله تعالى كفاه من كل سوء، وكما روى ابن أبي حاتم عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله إليها.

فأجر الدنيا قائم، وأجر الآخرة قائم. والله يرعى الجميع أباً وأماً وولداً. وأسرّة، وإذن فالطلاق الذي يتم كما شرعه الله تعالى من الزوجين ليس نكداً وسوء حظ، وبلاءً ماحقاً، إنه في المفهوم الإسلامي، رزق رغيد، ويسر في الأمر، ورفع للدرجات عند الله، ومحو للسيئات، وسوق نافق للذخر والأجر.

- ٤ -

﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ، وَلَا تَضَارَوْهُمْ لِتَضِيقُوا عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كُنْ أُولَاتٍ حَمَلَ فَأَنْفَقُوا عَلَيْهِنَ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ، وَأَتَمَرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ، وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فِستَرْضَعْ لَهُ أُخْرَى، لِيَنْفَقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ، وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيَنْفَقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ، لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾

ولا يزال القرآن العظيم يحفل بأمر هذه العدة، وتكاليفها ومتطلباتها.

ومن الأوامر التسع إلى الأوامر السبع، الخاصة بحقوق العدة؛ السكنى والنفقة.

﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تَضَارَوْهُمْ لِتَضِيقُوا عَلَيْهِمْ﴾.

(يقول تعالى آمراً عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يُسْكِنَهَا فِي مَنْزِلٍ حَتَّى تَنْقُضِيَ عِدَّتَهَا فَقَالَ: ﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ أَيِ عِنْدِكُمْ ﴿مِنْ

وُجدكم ﴿ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد يعني سعتكم حتى قال قتادة: إن لم تجد إلا بيتك فأسكنها فيه وقوله تعالى: ﴿ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾ قال يطلقها فإذا بقي يومان راجعها﴾^(١).

وإنه لمنظر مثير للشفقة، أن لا يجد الزوج في بيته سعة ليسكن زوجته المطلقة، فيدعو أولاده ليناموا عنده، ويعطي زوجته غرفتهم. ماذا جرى؟ بالأمس كانت ملء سمعه وبصره، وكانا وحدهما في غرفة النوم يتمتعان بما أحل الله لهما بذلك؟

ما بال الأمر اليوم قد تغير، ولا يحق له أن ينظر إليها، بل وتختبئ منه إذا دخل ماذا يثير الأمر في نفسيهما، وقد وُضعت بينهما الحواجز الجديدة، والموانع الكثيفة.

وليس الأمر طارئاً، أو يوماً، أو أياماً. إنما هو أشهر، وبعدها الفراق الذي لا عودة بعده، إنها في البيت، وإن كان قادراً على أن يهيئ لها الغرفة المناسبة، فواجب عليه ذلك، ليس هناك مجال لأن ينساها لحظة، أو تنساه لحظة، فهي عنده في بيته هذا صوتها، وهذا أثرها، وهذا الوطاء من صنعها، وهذا الثوب قد خاطته لابنها. كل شيء في البيت يذكر بها، وهي لا تزال عنده، أما للأمر من حل، أما للقلوب القاسية من لين، أما للنفوس المعبأة من هداة، أما للأخلاق المتنازعة من وفاق؟؟ كلها تساؤلات لا تنتهي، ويتجه التفكير إلى المخرج والحل.

إن مجتمعنا الذي تخلى عن هذا الأمر، قد نال الثمرة المرة لهذا التخلي، فالعادات عندنا أن الطلاق يعني أن تذهب إلى بيت أهلها، إلى حيث لا رجعة، بل صارت صيغة الطلاق أحياناً: أن اذهبي إلى بيت أهلك، وبذلك تفصم العرى إلى غير رجعة، ويهدم البيت بغير رحمة!

(١) تفسير ابن كثير ٣٨٣/٤.

﴿... ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن...﴾

وحين يريد الرجل أن يستغل سلطته، وقد فرض عليه السكنى والنفقة، ويريد أن يؤدي هذه الزوجة الصبور، فهو يملك ذلك، يملك المضارة والتضييق بأساليب لا تحصى، يملك الإيذاء والمضارة بالسكن، بحيث يكون سكناً رديئاً لا يطاق، وبحيث يحجب عنه وسائل الحياة المريحة بصورة من الصور فيغدو رديئاً. وقد تكون المضارة بحصر الزوجة والدخول عليها من غير محارمها، أو إيذاؤها بكل لحظة، بالضيوف الثقلاء، بنات أحماها اللاتي يأتين لينتقمن منها باللسان البذيء، والتهكم المرير، والكيد الخبيث. وقد تكون المضارة بالتقتير في النفقة، البخل في المال، والظن بالحاجة من المطعم والملبس والمشرب. إن البيت بيت الزوج، وهو قادر على التفتن في المضارة، لإحراجها وإخراجها، فهل تفلت هذه القضية من العقوبة. إن الأمر صارم كالنهي عن الخمر، والكذب، والبهتان والزنا وغير ذلك.

﴿... ولا تضاروهن لتضييقوا عليهن...﴾

فأي مضارة كانت مادية أو معنوية، وأي تضييق كان مادياً أو معنوياً فهو حرام وبغى وتجاوز على حدود الله، والله تعالى يمهّل ولا يمهّل.

﴿... وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضمن حملهن﴾.

وما دام الوليد جينياً، والولد للأب نسباً ومآباً، فهو المسؤول عن النفقة عليه، وعن النفقة عليها ما دام جينياً في بطنها.

والإنفاق من جانين؛ الجانب الأول، من حيث هي أم ولده، والجنين يتغذى منها، فلا بد من تغذيته وتغذيتها معه.

الجانب الثاني: أنها لا تزال في العدة، وهذه العدة، له، لا يحق لمخلوق في الأرض أن يقترب منها أو ينكحها، أو يرم عقد النكاح معها، فلا تزال محبوسة من أجله إن عَنَّ له أن يراجعها وهو إثارة عاطفية ثانية، أن تبقى

الذكرى في ذهنه ماثلة، فهذا الجنين يناديه من أحشاء أمه أن يرحم مستقبله، وأن يراعي وضعه، لعل ذلك يحرك الحنين عند الزوجين فيعيدان حسابهما من جديد، إنه ينفق على ولده، وعلى مطلقة، وأين يكون ولده بعد ذلك حين ينفصم البيت، وأي حنان يلقى؟ وما ذنبه؟ أليس هذا الأمر من الخطورة بحيث يقتضي إعادة الحساب؟؟ قد يستمر الحمل ضعف عدة المطلقة بدون حمل، أو ثلاثة أضعاف قد يستمر تسعة أشهر. فلا خيار له، لا بد له أن يسكن، ولا بُدَّ له أن ينفق إلى أن تضع المرأة حملها. سواء استمر الحمل أياماً أم أشهراً. وهذه قد تزيد، ومعظم الأحيان تزيد - عن عدة الأيسة والصغيرة وغير الحامل، لتطول التجربة، ويفسح المجال أطول وأطول لإعادة الحساب، وإعادة النظر، ومحاولة تصحيح البناء الموشك على التداعي.

وإذا لم تستطع كل مرحلة الحمل أن تحرك كوامن النفوس، وتغير القرار القائم، فلن يقوم هذا البيت من جديد، وكيف يكون الوضع بعد الوضع؟

لن يترك الأمر، والله تعالى يفصل في هذه الأمور، بحيث يسد الطريق على المستغلين والمتأولين. والهائمين بالشبهات، فلا تزال هناك حقوق بعد الوضع تنشأ بين الزوجين المتفارقين، وأهم هذه الحقوق الرضاع.

﴿... فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن، وأتمروا بينكم بالمعروف...﴾

وهذه مباحثات جديدة بين الزوجين المتفارقين تقتضيها مصلحة ثمرة زواجهما؛ هذا الوليد الجديد، لقد أصبح الآن كل شيء بثمن وأجرة، تُرى هذه الحياة أكرم من أن يكونا مزغردين طائرين فرحاً بهذا المولود الجديد؟ وهل يقتضي هذا الأمر أن يعود الترميم إلى ذلك العش المتداعي، أو إعادة بنائه من جديد. وهذا لا يتم إلا بثمن، إنه يحتاج إلى عقد ومهر جديد فقد انتهت العدة منذ أن وضعت الزوجة وليدها وانتهى الأمر.

(وقوله تعالى ﴿فإن أرضعن لكم﴾ أي إذا وضعن حملهن وهن طوالق

فقد برَّ بانقضاء عدتهن، ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللُّب وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للمولود غالباً إلا به. فإن أرضعت استحقَّت أجر مثلها ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما ينفقان عليه من أجرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مضارة كما قال تعالى في سورة البقرة ﴿لَا تَضَارِ وَالِدَةَ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودَ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ وقوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فِى شَرْعِى لِهْ أُخْرَى﴾ أي وإن اختلف الرجل والمرأة فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيراً، ولم يجبا الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها. فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها^(١).

إننا نتنقل إلى هذه الأسرة وقد انفصلت وبينهما هذا الوليد الجديد.

يريد الإسلام ما استطاع أن يسود الود محل الخصومة، والحب مكان الحق، فهو الهدف المنشود. ولن يستطيع ذلك إلا هذا الطفل الذي هو محط حبهما، وثمره فؤادهما، وقد يسكت كلا الزوجين على جروحهما، مراعاة لحق هذا الولد.

والإسلام الذي هو بجانب المرأة دائماً، لا يريد أن يستغل عاطفتها، وحنانها، يفرض عليها إرضاع طفلها، إنه لم يرتب عليها أي حق في ذلك، بل جعل هذا الرضاع بأجرة وثمر وجعله بعقد قائم على إيجاب وقبول من الطرفين. والإسلام لا يبيى أحكامه على عالم المثال فقط، وعلى تهويمات الخيال، إنما يبيى حكمه على النفس البشرية وما فطرت عليه من حب وكره وسمو وإحباط، والتزام وجنوح. فيأتي الحكم صادعاً بالحق الأبلج وما وراء ذلك فيتركه للسمو والإيثار والتفاني.

إن جو الطلاق قد يكون من الألم بحيث تنسى المرأة أنها أم، فليراع

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٨٣.

هذا الجانب المهيض، ولتأخذ ثمن رضاعها بكل وضوح وحرية، لكن لو كانت حدود الله قد روعيت في الطلاق فستقدم المرأة باذلة نفسها لا لبنها فقط لمهجة كبدها بلا ثمن، وسيقدم الزوج التحف والهدايا والإكرام لمن ضمت طفله إلى قلبها تغذيه وتنميه بلا أجر.

قد تقع هذه الحالة، ولكن كثيراً من الأحيان قد يبغي أحد الزوجين، أو يبغيان معاً ويتجاوزان حدود الله ويتعديانها، فتأتي هذه الأحكام تعالج ظاهر الأمر حتى لا يضيع الطفل بين عاطفتي الحب والحقد.

فليكن العقد والأئتمان بالتسامح والمعروف والحب، إلى هذا يدعو الإسلام لكن عند العجز عن ذلك، فالحقوق محفوظة.

شعرت المرأة أن الرجل يريد استغلال عاطفتها بعد أن كسر جناحها بالطلاق، فمن حقها أن ترفض إلا الأجرة المناسبة، وليبحث عن مرضعة أخرى وشتان بين الأم والمرضعة، إنه إنسان يعبد المال، فلا يستحق الإكرام، وليذهب إلى مرضعة أخرى حين يعسر خلقه ويضن بماله مستغلاً أمومة مطلقته.

وقد تكون الصورة معاكسة، وتود المرأة أن تنتقم من زوجها، فقد طغت عاطفة الحقد والثأر على الحب، فراحت تفرض الأجرة الباهظة، فلن تعطى هذا الحق من الاستغلال، وبإمكانه أن يدعها إلى مرضعة أخرى تحفظ له ولده من الضياع.

إنها واحدة من المحاولات الجادة بين تلك المحاولات. لحفظ الأسرة من الضياع حتى بعد افتراق الزوجين، والمال يبقى في آخر المطاف، بلسماً قد يداوي الجراح حين لا تستطيع القيم أن تداويها. ومن أجل ذلك جاء الحكم الأخير:

﴿لينفق ذو سعة من سعته، ومن قدر عليه رزقه، فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾.

وكثيراً ما استطاع المال أن يطيب النفوس، ويجبر الكسر، ويهديء
الثورة.

وكان الحسن بن علي رضي الله عنه أكثر الناس زوجاً وطلاقاً. وقد
وصفه الذهبي بقوله:

وقد كان هذا الإمام سيداً وسيماً جميلاً عاقلاً، رزيناً، جواداً، ممدحاً،
خيراً ورعاً، محتشماً، كبير الشأن، وكان منكاحاً، مطلقاً، تزوج نحواً من
سبعين امرأة، وقلما كان يفارقه أربع ضرائر. وعن جعفر الصادق، أن علياً
قال: يا أهل الكوفة لا تزوجوا الحسن، فإنه مطلق، فقال رجل، والله
لنزوجنه، فما رضي أمسك، وما كره طلق^(١)، وعن عبدالله بن الحسن قال:
كان الحسن كثير النكاح، وقل من حظيت عنده، وقل من تزوجها إلا أصبته
وصبت به^(٢).

﴿لينفق ذو سعة من سعته...﴾

والإنفاق المقصود هنا على المرأة أثناء العدة، وعلى المولود عند
الرضاع، وأجرة الرضاع. فالغني يكرم ويجبر الخواطر، ويداوي الجراح.

﴿ومن قدر عليه رزقه، فلينفق مما آتاه الله...﴾

فليست الأمور هنا للتضييق على أحد أو إحراجه. فكل ينفق مما يملك
غنياً كان أو فقيراً. والله تعالى لا يكلف النفس إلا ما تملك، إلا وسعها، إلا
ما آتاها، والله تعالى بفضلته وكرمه يجعل بعد العسر يسراً.

ويكرم الرجل والمرأة وهو الرزاق ذو القوة المتين.

(ثم يفصل الأمر في قدر النفقة، فهو اليسر والتعاون والعدل، لا يجور
هو، ولا تتعنت هي، فمن وسّع الله عليه رزقه فلينفق عن سعة، سواءً في

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٥٣/٢.

(٢) المصدر نفسه ٢٧٤/٢.

السكن أو في نفقة المعيشة أو في أجر الرضاعة، ومن ضُيق عليه في الرزق فليس عليه من حرج، فالله تعالى لا يطالب أحداً أن ينفق إلا في حدود ما آتاه فهو المعطي، ولا يملك أحد أن يحصل على غير ما أعطاه الله. فليس هناك مصدر آخر للعطاء غير هذا المصدر، وليست هناك خزانة غير هذه الخزانة: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها﴾.

ثم لمسة الإرضاء، وإفراح الرجاء، للثنتين على السواء ﴿سيجعل الله بعد عسرٍ يسراً﴾ فالأمر منوط بالله في الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر، فأولى لهما إذن أن يعقدا به الأمر كله، وأن يتجها إليه بالأمر كله. وأن يراقباه ويتقياه والأمر كله إليه، وهو المانع المانع، القابض الباسط، وييده الضيق والفرج، والعسر واليسر، والشدة والرخاء^(١).

إنها حصانة لك يا أختاه المسلمة في الأوامر السبعة.

(١) ﴿اسكنوهن من حيث سكتن من وجدكم﴾ (٢) ﴿ولا تضاروهن لتضيّقوا عليهن﴾ (٣) ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن﴾ (٤) ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن﴾ (٥) ﴿وأتمروا بينكم بمعروف﴾ (٦) ﴿لينفق ذو سعة من سعته﴾ (٧) ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله.

وها نحن نجد بمناسبة سورة الطلاق. هذه الأحكام الشاملة التي لا ترتبط بحدود الزمان والمكان، جاءت للمؤمنين في الأرض، من خلال إكرام الله تعالى للمرأة المسلمة.

١ - ﴿واثقوا الله ربكم . .﴾

٢ - ﴿ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه . .﴾

٣ - ﴿. . لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . .﴾

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٦٠٣.

- ٤ - ﴿... ومن يتق الله يجعل له مخرجاً...﴾ .
 ٥ - ﴿... ويرزقه من حيث لا يحتسب...﴾ .
 ٦ - ﴿... ومن يتوكل على الله فهو حسبه...﴾ .
 ٧ - ﴿... إن الله بالغ أمره...﴾ .
 ٨ - ﴿... قد جعل الله لكل شيء قدراً...﴾ .
 ٩ - ﴿... ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً...﴾ .
 ١٠ و ١١ - ﴿... ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً...﴾ .
 ١٢ - ﴿... لينفق ذو سعة من سعته...﴾ .
 ١٣ - ﴿... ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله...﴾ .
 ١٤ - ﴿... لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها...﴾ .
 ١٥ - ﴿... سيجعل الله بعد عسر يسراً...﴾ .

واحد وثلاثون حكماً. منها ستة عشر أمراً ونهياً وخمسة عشر تعقيماً. جاء هذا الحشد كله في سبع آيات كريمات من سورة الطلاق، حتى لا تبقى جزئية في هذا المجال إلا أجيب عنها، علماً، بأن موضوع الطلاق قد عرضه القرآن في أكثر من موضع من كتاب الله. لم نعرض له حفاظاً على جرس السورة وسياقها وروحها، وهذا كله في ثنايا الحديث عن الطلاق وأحكامه أي في القسم الأول من السورة، وليس في التعقيب الرئيسي الوارد في القسم الثاني من السورة.

وإلى هنا يكون قد تناول سائر أحكام الطلاق ومتخلفاته، وتتبع كل أثر من آثاره حتى انتهى إلى حل واضح، ولم يدع من البيت المتهم أنقاضاً ولا غباراً يملأ النفوس ويغشى القلوب، ولم يترك بعده عقابيل غير مستريحة بعلاج، ولا قلاقل تثير الاضطراب.

وكذلك يكون قد عالج جميع الوسائس والهواجس التي تشور في القلوب، فتمنعها من السماحة والتيسير والتجمل للأمر، فأبعد أشباح الفقر والضييق وضياع الأموال من نفس الزوج إذا هو أسكن وأنفق ووسّع على مطلقة

أو مرضعة ولده، ومن نفس الزوجة التي تضيق بنفقة الإعسار، أو تطمع في زيادة ما تصيب من مال زوجها السابق، فأكد اليسر بعد العسر لمن اتقى، والضيق بعد الفرج، والرزق من حيث لا يحتسب، وفوق رزق الدنيا رزق الآخرة، والأجر الكبير هناك بعد التكفير.

كما عالج ما تخلفه حالة الخلاف والشقاق التي أدت إلى الطلاق، من غيظ وحقدٍ ومشادة وغبار في الشعور والضمير، فمسح على هذا كله بيد الرفق والتجمل، ونسّم عليه من رحمة الله والرجاء فيه؛ ومن ينابيع المودة والمعروف التي فجرها في القلوب بلمسات التقوى والأمل في الله وانتظار رضاه.

وهذا العلاج الشامل الكامل، وهذه اللمسات المؤثرة العميقة، وهذا التوكيد الوثيق المتكرر: هذه كلها هي الضمانات الوحيدة في هذه المسألة لتنفيذ الشريعة المقررة، فليس هناك ضابط إلا حساسية الضمائر وتقوى القلوب. وإن كلا الزوجين ليملك مكايده صاحبه حتى تنفقه مرارته إذا كانت الحواجز هي فقط حواجز القانون!! وبعض الأوامر من المرونة بحيث تسع كل هذا، فالأمر بعدم المضارة: ﴿ولا تضاروهن﴾ يشمل النهي عن ألوانٍ من العنت لا يحصرها نص قانوني مهما اتسع، والأمر فيه موكول إلى هذه المؤثرات الوجدانية، وإلى استجاشة حاسة التقوى وخوف الله المٌطَّلِع على السرائر، المحيط بكل شيء علماً، وإلى التعويض الذي يعده الله للمتقين في الدنيا والآخرة، ولا سيما في مسألة الرزق التي تكرر ذكرها في صور شتى، لأنها عامل مهم في تيسير الموقف، وتندية الجفاف الذي تنشئه حالة الطلاق.

وإن الزوجين ليفارقان - في ظل تلك الأحكام والتوجيهات - وفي قلوبهما بذور للود لم تمت، ونداوة قد تحيي هذه البذور فتنبت - ذلك إلى الأدب الجميل الرفيع الذي يريد الإسلام أن يصبغ به حياة الجماعة المسلمة، ويشيع فيها أرجه وشذاه^(١).

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٦٠٤.

﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً، وعذبناها عذاباً نكراً. فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً، أعد الله لهم عذاباً شديداً فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً. قد أحسن الله له رزقاً﴾.

* * *

«إنه يبدو لأول وهلة أنه موضوع جديد لا علاقة له بالطلاق البتة، فهو حديث عن القرى التي خرجت على أمر ربها ورسله، مثل قوم نوح وعاد وثمود ومدين وقوم لوط. وهذا يتناول الذين كذبوا الرسل وحاربوهم. فذاقوا وبال أمرهم وكان عاقبة أمرهم الخسار والبوار.

ولكن لنقف قليلاً عند كلمة - الأمر - ولنربط من خلالها بين موضوعي السورة ليظهر من خلال ذلك أن الموضوع واحد لم يتغير.

- لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

- إن الله بالغ أمره.

- ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً.

- ذلك أمر الله أنزله إليكم.

- وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله.

- فذاقت وبال أمرها.

- وكان عاقبة أمرها.

- ينتزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير.

ثماني مرات يذكر الأمر في السورة، خمس منهن الحديث عن أمر الله

تعالى ، وثلاث منها عن أمر المرء وأمر الأمة .

فالقضية كلها إذن هي أمر الله تعالى - والموقف منه ، وعلى ضوء الموقف من هذا الأمر . إن كان طاعة وامثالاً والتزاماً . فسيكون أمر المرء اليسر . وإن كان تمرداً وعتواً وعصياناً وتجاوزاً ، فسيكون أمر الأمة والمرء الوبال والخسر هذه هي القضية كلها ، سواء كانت مخالفة الأمر تامة برفضه ابتداءً ، وعدم الاعتراف به أو كانت بإقرار بعضه والكفر ببعضه الآخر .

﴿ . . . أَقْتُمُونَ بِيَعُضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وكل حكم من أحكام الطلاق أمر أنزله الله تعالى ، ومخالفة كل حكم عتو عن الأمر وإذا كان عندنا ستة عشر أمراً ، فكل مخالفة له عن إصرار أو تجاهل أو استخفاف هي عتو عن أمر الله وأمر رسله ، والقضية واحدة ، فالذين يأخذون من الطلاق فقط أن يقول الرجل لامرأته : أنت طالق ، أو طالق ثلاثاً ، ويرمي وراء ظهره كل هذه الأوامر المرافقة والتابعة للطلاق هو عتو عن أمر الله الذي أنزله ، ولا بد أن تكون عاقبة أمره خسراً وبالاً وبواراً .

(ونقف لحظة أمام هذا التحذير فنرى أن الله أخذ القرى واحدة بعد واحدة كلما عتت عن أمر ربها ورسله ، ونجد أن هذا التحذير يساق هنا بمناسبة الطلاق وأحكامه فيرتبط الطلاق وحكمه بهذه السنة الكلية ، ويوحى هذا الارتباط أن أمر الطلاق ليس أمر أسر أو زواج ، إنما هو أمر الأمة المسلمة كلها ، فهي المسؤولة عن هذا الأمر . وهي المسؤولة عن شريعة الله ، ومخالفتها عن أمر الله فيه - أو مخالفتها عن أمر الله في غيره - من أحكام هذا النظام ، أو هذا المنهج الإلهي المتكامل للحياة ، هي عتو عن أمر الله ، لا يؤاخذ به الأفراد الذين يرتكبونه ، إنما تؤاخذ به القرية أو الأمة التي تقع فيها

(١) البقرة من الآية ٨٥ .

المخالفة والتي تنحرف في تنظيم حياتها عن نهج الله وأمره فقد جاء هذا الدين لبطاع، ولينفذ كله، وليهيمن على الحياة كلها، فمن عتا عن أمر الله فيه - ولو كان هذا في أحوال الأفراد الشخصية - فقد تعرض لما تعرضت له القرى من سنة الله التي لا تتخلف أبداً^(١).

إن العتو عن أمر الله، وتحدي أمر الله. لن يمرا بدون حساب، ولن يمرا بدون عقاب إن العذاب النكر في الدنيا والآخرة، وما ذلك إلا بسبب تحديها لأمر الله. فسيكون أمرها الوبال والبوار جزاءً وفاقاً، وستكون الخسارة في الدنيا والآخرة مهما ظهرت صور الربح المؤقت، أو اللذة العاجلة، أو الاستعلاء الأنبي. لكن الخسارة آتية لا محالة لكل فرد، ولكل أمة تخرج عن منهج الله وتتعدى حدوده، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه وسيلقى العذاب الشديد في الآخرة.

﴿ويا قوم لا يجرمكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد﴾^(٢).

﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما كان الله ليزلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾^(٣).

ولا فاصل بين العذاب والنعيم، فكلاهما في آية واحدة.

﴿... فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً، ورسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور...﴾

يتجه الخطاب إلى أولي الألباب منصرفاً عن أولئك العتاة العصاة، ولا

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٦٥.

(٢) سورة هود / ٨٩.

(٣) سورة العنكبوت / ٤٠.

شك أن الذين آمنوا هم أولو الألباب في هذا الوجود. وقد أنزل الله تعالى لهم الذكر، والذي يتبادر إلى الذهن أن الذكر هو القرآن. فإذا الذكر ينبعث حياً، ويتنفض إنساناً، إنه رسول الله ﷺ

﴿... رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات...﴾

فإذا الرسول الذكر، والذكر الرسول، وآيات الله المبينات الواضحات، وحاملها عبد الله ورسوله محمد ﷺ، الذي كان خلقه القرآن. والذي تمثل الذكر به حتى كأنه هو، يتلو هذه الآيات المبينات. في سلوكه قبل لسانه، وفي جنانه قبل لسانه ليكون خليقاً بهذا الدور ﴿... ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور...﴾ وهي نقلة هائلة في هذا الوجود. من بحر الظلمات إلى خضم النور.

ليس الأمر تسكعاً، ولا بصيصاً، ولا خليطاً من الظلمة والنور، قدم في الطاعة، وأقدم في المعصية، استجابة باردة بطيئة كمن يبحث عن كوة أو سراج ينفذ منه النور إلى ذلك الظلام الدامس، ليس الأمر استجابة ذهنية، وواقعاً موعلاً في الإثم، والفا في الوحل. وقناعة بلا إله إلا الله محمد رسول الله.

ليس الأمر ذلك كله. إنه أخذ لهؤلاء العتاة الكفرة من عالم الظلمات إلى عالم جديد كله إضاءة ونور وهدى، فالآيات ليست بينات فقط، بل مبينات، يسطع منهن النور فيضيء ما حوله، ويشع منها الهدى فينير السبيل. إنه إخراج من الظلمات إلى النور.

وأي حديث، وأي شرح يعجز عن أن يعبر عن الفكرة، ويصور الفكرة كما صورها القرآن.

ولو أننا يا أختاه المسلمة، جئنا لنبحث عن واقعنا العاشر المنكود، فهل نجد هذه النقطة الهائلة من الظلمات إلى النور، أم نجد ديباً كدبيب النمل

نحو الإسلام، فلا تكاد المرأة المسلمة تلبس حجابها حتى يأتيها ألف هاتف وهاتف يدعوها إلى إلقاءه، وألف عائق وعائق يشدها إلى التبرج، في بيتها. في وسائل إعلامها، في الصحيفة، في المجلة، في المدرسة، في الشارع، إن أمامها في كل خطوة ثعابين تحيط بها، وحيثاً تريد أن تلمعها، فلا تمضي في طريق الهدى.

أو ليس نموذج الطلاق في واقعنا المنكود، صورة من صور هذا الحفاظ على الظلام والاكتماء بشعاعٍ من النور يظهر ويختفي؟

لو دخلنا أية محكمة من محاكم الأحوال الشخصية، وأمضينا نهائراً، كاملاً نستمع فيه إلى دعاوى الطلاق بين الرجال والنساء، إلى الكيد والمكر، إلى الحقد والخديعة، إلى الإهانة والإذلال، إلى الكلام البذيء والكذب الصراح، إلى الأولاد المشردين، والأب الغارق في ملذاته، إلى الأب البائس، والأم المومس، إلى الزوجة اللبوة الجريحة في كرامتها، والرجل المقامر الذي باع زوجته في حلبة قمار، إلى السافرات المتبرجات المطلقات الباحثات عن أزواج هوى، والخائنات لأزواجهن، إلى الرجال الذين تظهر رجولتهم إن التفتت زوجتهم إلى رجل فيقسمون عليهن بالطلاق، ثم يذهبون بعدها إلى الحانة ليكرعوا الخمر لإثبات رجولتهم، وإلى مكان الخنا والزنا ليمارسوا الفاحشة، باسم الشرف يطلق، وباسم الرجولة يزني من عاهرة لعاهرة.

لو رأينا هذه النماذج جميعاً، وجئنا بعدها لنحكم عليها باسم الإسلام، فلا نزال في خير، ولا نزال قوانين الأحوال الشخصية تحكم بالإسلام، والمحامون الملحدون هم الذين يدافعون، وهم الذين يرافعون، ليقولوا للناس هذا هو الإسلام، هو الذي أباح الطلاق، وهدم البيوت، وشرذ الأطفال، واحتقر المرأة، وأهان الزوجة.

أخذوا من الطلاق اسمه فقط، وطمسوا كل أحكامه كل أوامره الستة

عشر التي رأيناها، وكل تعقيباته الأربعة عشر التي تربط القطيع الضال الشارد بالله، وتخرجه من الظلمات إلى النور.

فهل نقول عن هذا المجتمع المنكود العاثر المحطم، الذي عصى الله في قوانينه بكل شيء وأبقى أحكام الزواج والطلاق وحرّف الكلم عن مواضعه، هل يمكن أن نقول عنه إنه انتقل من الظلمات إلى النور؟؟!!!!

أبدأ، إن هذا كله ليس من الإسلام في شيء.

والدعوة موجهة إلى أولي الألباب، المؤمنين والمؤمنات، ليشهدوا آيات الله المبينات على لسان سيد الدعاة ﷺ، ليسيروا في ركب واحد، ملقين وراءهم كل أحوال الجاهلية. ويسيروا وراء قائدهم عليه الصلاة والسلام ويده وبرعايته ليخرج بهم جميعاً من الظلمات إلى النور، ولا بدع فهو الذي يقودهم من بداية المطاف.

﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء...﴾.

وهو الذي يُتابع النقلة بهم، ويخرج بهم من الظلمة والظلمات.

﴿... رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور...﴾.

ومن نعيم الدنيا إلى نعيم الآخرة إلى نعيم لا ينفد، إلى قرّة عين الأبد:

﴿... ومن يؤمن بالله، ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها قد أحسن الله له رزقاً﴾.

ففي الدنيا يرزقه من حيث لا يحتسب، ويجعل الله بعد العسر يسراً، وفي الآخرة قد أحسن الله له رزقاً.

- ٦ -

﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن﴾

لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً.

* * *

وإلى تمجيد الله في نهاية المطاف: ﴿خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ إذن كما يقول نص الآية، من الأرض مثلهن، أي سبع أرضين، ففي الصحيحين قول رسول الله ﷺ: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين».

وإن كنا لا ندري طبيعة هذه الأرضين، ولم يشأ الله تعالى أن يعلمنا ذلك. لكن الذي أعلمنا عنه أن هذه السموات والأرضين كأنما خلقت لتلقى أمر الله عز وجل فقط، وتنفذه ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا: أتينا طائعين، فقضاهن سبع سموات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾^(١).

فهو أمر الله تعالى في الكون كله، والسموات والأرضون جاؤوا طائعين. فهل لنا أن نعقل أن الخروج على منهج الله لا يجدي، ونحن ذرة في ملكوت الله تعالى القادر القاهر، القادر على كل شيء، والقاهر فوق عباده، وأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة. فقد أحاط بكل شيء علماً؟؟!

وشاءت إرادة الله تعالى أن يختم سورة الطلاق بهذا الربط الكوني الذي يدل على أمر الله المتمثل على الكون وعلى الإنسان، ﴿وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾، وندع لسيد رحمته الله أن يحدثنا عن هذه الدلالات الباهرات للربط بين الآيات الكونية والطلاق المرتبط بالأحوال الشخصية:

(ويقف الإنسان مدهوشاً أمام هذه السورة وهي تتناول أحكام هذه الحالة

(١) سورة فصلت / ١١ و ١٢.

ومتخلفاتها، وهي تحشد للأمر هذا الحشد العجيب من الترغيب والترهيب، والتعقيب على كل حكم، ووصل هذا الأمر بقدر الله في السموات والأرضين، وسنن الله في هلاك العاتين عن أمره. وفي الفرج والسعة لمن يتقونه، وتكرار الأمر بالمعروف والسماحة والتراضي، وإيثار الجميل، والاطمئاع في الخير، والتذكير بقدر الله في الخلق وفي الرزق، وفي اليسر والعسر..

يقف الإنسان مدهوشاً أمام هذا الحشد من الحقائق الكونية الكبرى في معرض الحديث عن الطلاق أمام هذا الاحتفال وهذا الاهتمام حتى ليوجه الخطاب إلى النبي ﷺ بشخصه، وهو أمر عام للمؤمنين وحكم عام للمسلمين، زيادة في الاهتمام وإشعاراً بخطورة الأمر المتحدث فيه، وأمام هذا التفصيل الدقيق للأحكام حالة حالة، والأمر المشدد في كل حكم بالدقة في مراعاته، وتقوى الله في تنفيذه، ومراقبة الله في تناوله، والإطالة في التعقيب بالترغيب والترهيب، إطالة تشعر القلب كأن هذا الأمر هو الإسلام كله إذ هو الدين كله! وهو القضية التي تفصل فيها السماء، وتقف لتراقب تنفيذ الأحكام! وتعد المتقين فيها بأكبر وأسمى ما يتطلع إليه المؤمن، وتوعد الملتوين والمتلكئين والمضارين بأعنف وأشد ما يلقاه عاصٍ، وتلوح للناس بالرجاء الندي، والخير المخبوء وراء أخذ الأمر بالمعروف والسماحة والتجمل والتيسير.

ويقراً القارئ في هذه السورة.. ﴿واتقوا الله ربكم﴾... ﴿تلك حدود الله﴾ ﴿فقد ظلم نفسه﴾.. ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾... ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله﴾... ﴿ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾... ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾... ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾... ﴿ذلك أمر الله أنزله إليكم﴾.. ﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾.. ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾.

كما يقرأ ذلك التهديد العنيف الطويل المفصل: ﴿وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً، فذاقت وبال أمرها، وكان عاقبة أمرها خسراً. أعد الله لهم عذاباً شديداً﴾. . . يعقبه التحذير من مثل هذا المصير، والتذكير بنعمة الله بالرسول وما معه من النور، والتلويح بالأجر الكبير: ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا، قد أنزل الله إليكم ذكراً؛ رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور، ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً﴾.

ثم يقرأ هذا الإيقاع الهائل الضخم في المجال الكوني الكبير: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن، يتنزل الأمر بينهما، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾.

يقرأ هذا كله تعقيباً على أحكام الطلاق، ويجد سورة كاملة في القرآن، من هذا الطراز كلها موقوفة على تنظيم هذه الحالة ومتخلفاتها كذلك! وربطها هكذا بأضخم حقائق الإيمان في المجال الكوني والنفسي، وهي حالة تهدم لا حالة بناء، وحالة انتهاء لا حالة إنشاء. لأسرة لا لدولة، وهي توقع في الحس أنها أضخم من إنشاء دولة، علام يدل هذا؟ إن له عدة دلالات تجتمع كلها عند سمو هذا الدين وجديته، وانبشاقه من نبع غير بشري على وجه التأكيد، حتى لو لم تكن هناك دلالة أخرى سوى دلالة هذه السورة^(١).

- ٧ -

اختاه المسلمة:

بقي أن أقول لك إن هذا العرض القرآني لسورة الطلاق بهذا الحشد من الأوامر والتعقيبات. سبقه في مجال آخر حلول عدّة لا تقل عن ستة حلول قبل الوصول إلى الطلاق. لست بصدد شرحها، ولكن لا بد من ذكرها حتى

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٥٩٤.

يكون الواضح في الذهن أن الطلاق الذي نظم هذا التنظيم هو آخر الحلول في العلاقات الأسرية .

١ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ - وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ . . . فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(١)

٢ - ﴿. . . وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ . . .﴾^(٢)

٣ - ﴿. . . وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ . . .﴾^(٣)

٤ - ﴿. . . وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾^(٤)

٥ - ﴿. . . وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يَرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾^(٥)

٦ - ﴿. . . وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصْلِحَا بَيْنَهُمَا وَالصِّلَحُ خَيْرٌ وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ وَإِنْ تَحَسَّنَا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(٦)

أما بقية أحكام الطلاق فمتناثرة في سورة البقرة والنساء .

والذي يضع آخر الدواء قبل استعمال المراحل الست الأولى لا شك أنه قد تجاوز حدود الله وتعداها وظلم نفسه وظلم غيره، وهو الذي يكون عاقبة أمره وبالاً وخسراً .

(١) النساء، الآية ١٩ .

(٢) و(٣) و(٤) النساء الآية ٣٤ .

(٥) النساء الآية ٣٦ .

(٦) النساء ١٢٨ .

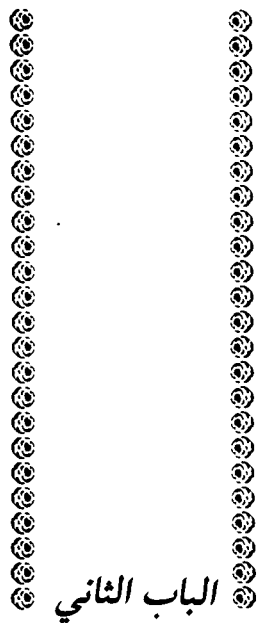
وأخيراً، فما سقت هذا الحديث إلا لأرى قيمة المرأة المسلمة من خلال هذه السورة الكريمة، وأن الله تعالى هو الذي تولى الدفاع عن حقوقها، ممن ينبغي عليها، وأمر نبيّه بتنفيذ هذه الحدود، وأوكل إلى ولي الأمر أن يرعاها من بعده.

فهل تريدان يا أختاه وكالة أعظم من ذلك؟

وإن وجدت حيفاً أو ظلماً أو نكداً، فهُمك هم كل مسلم في هذه الأرض أن يقام شرع الله فيها وتحكم شريعته، عندئذ سيكون الأمن والسلام والعدل، وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾^(١).

(١) الأعراف ٩٦.



الباب الثاني

تربية الفتاة المسلمة

أضواء على تربية الفتاة المسلمة

الحمد لله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

بين يدي البحث:

لدى استعراض مذكرات المؤتمر الأول العالمي للتعليم الإسلامي بصدد الحديث عن تعليم المرأة جاء فيها ما يلي^(١):

ينظر الإسلام إلى المرأة نظرة خاصة بحكم أنها تمثل نقطة الثقل في تكوين الأسرة التي تمثل بالتالي نواة المجتمع البشري، وهذا يعكس الأهمية المطلقة لحلقة نظام تربوي متميز لإعداد المرأة المسلمة، وذلك في ضوء ما يجتاح المجتمع الإسلامي اليوم من تأثير غربي مباشر وغير مباشر على قيم وسلوك بناته.

ولهذه الحلقة مناقشة ما يلي:

- ١ - نوع المؤسسات التعليمية المناسبة للمرأة لكل المراحل.
- ٢ - المناهج المناسبة لتعليمهن.
- ٣ - طرق وسائل تحصينهن من التأثيرات الضارة الواردة إلينا، أي طريق الحضارة وثقافة الغرب.

(١) المؤتمر الذي انعقد بمكة المكرمة، بتاريخ ١٢ - ٢٠ ربيع الثاني ١٣٩٧ هـ - ٣٠ آذار ٨ - نيسان ١٩٧٧ م.

٤ - فكرة التعليم المختلط ومضار ذلك على المرأة المسلمة .

فالهدف الأساسي من الحلقة هو: إيجاد نظام تربوي متميز لإعداد المرأة المسلمة، ولمناقشة هذا الهدف لا بد من استعراض الأمور الأربعة التالية:

المؤسسات التعليمية - المناهج - التميز عن الثقافة الغربية - مضار التعليم المختلط .

ولكن هذه الأمور قد لا تفي بالقدر المطلوب لتصوير هذا النظام التربوي المتميز، بل هناك أمور أخرى بحاجة إلى نقاش حتى يتضح هذا التصور بحيث يغدو مخطط البحث على الشكل التالي :

أولاً - حكم تعليم المرأة، الواجب والجائز والمحظور .

ثانياً - واقع تعليم المرأة، المؤسسات التعليمية، المناهج .

ثالثاً - أخطار في طريق تعليم المرأة: تأثير الثقافة الغربية، التعليم المختلط .

رابعاً - التصور للنظام التربوي المتميز لإعداد المرأة المسلمة؛ أهدافه، مراحلها في: أ - المناهج، ب - المؤسسات التعليمية .

* * *

أولاً: حكم تعليم المرأة

نريد أن نتناول القضية ببسر ووضوح تأمين، وإن كان هذا الأمر قد فرغ منه، لكن الواقع القائم ينبىء عن اللبس في هذا الحكم .

والذي يعطينا التصور الكامل للحكم هو حديثا رسول الله ﷺ :

الأول: قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن ماجه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما :

«العلم ثلاثة، فما وراء ذلك فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة».

الثاني: قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

والمرأة داخلة في هذا التعميم لأن المسلم هنا تستغرق المرأة والرجل على السواء.

والحديث الأول قد أوضح ما هو العلم بالضبط الذي ينطبق الفرض عليه وهو: الآية المحكمة التي توضح الحلال والحرام في الإسلام، والسنة القائمة: التي تفصل كتاب الله وتوضح مجمله. والفريضة العادلة: التي تعطي كل ذي حق حقه.

ويدخل في إطار الفريضة على المسلم ما أطلق عليه العلماء اسم فرض الكفاية؛ الذي إذا قام به البعض سقط عن الباقيين، وهو تعلم ما تقوم به مصلحة المسلمين ولا غنى لهم عنه. وندع للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله أن يحدثنا عنه فيقول:

(أما فرض الكفاية - أي في العلم - فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا: كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، والحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرهما. هذه العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى، وسقط الفرض عن الباقيين. فلا تعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالزراعة والسياسة، بل والحجامة والخياطة...). وإذا تحدثنا بمفهوم الاختصاص في توزيع فروض الكفايات لوجدنا أن اثنين على الأقل مما ذكره الغزالي داخل في صميم اختصاص المرأة: أولاهما: الطب، وثانيهما: الخياطة.

وما ذكره الغزالي هو على سبيل المثال لا الحصر، فتعليم الفتيات هذه

العلوم وغيرها من علوم فرض العين داخل في هذا الاختصاص.

وكما تقول القاعدة الفقهية: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب»:

فعلوم العربية: مدخل لفهم الآية المحكمة والسنة القائمة.

وعلم الحساب: مدخل لفهم الفريضة القائمة.

وعلم الهندسة: مدخل لفهم الخياطة.

وعلوم الرياضيات والأحياء: مدخل لفهم الطب.

ولكننا يجب أن لا ننسى أبداً القاعدة الثانية التي تقول: «الضرورة تقدر بقدرها»، وما زاد عن الضرورة هو الذي سماه رسول الله ﷺ: الفضل أو الزيادة. وحكمه الفقهي هو الجواز.

ونتساءل بعد ذلك هل في العلم محظور؟

لا نجد في النصوص ما يسعفنا في هذا المجال. ويمكننا أن نقول: إن الإسلام نهى فقط عن تعلم السحر، وعده كفرًا أو قرينًا للكفر. وما وراء ذلك فلا يخرج عن إطار الفريضة والإباحة.

ولا بد لنا ونحن ندخل في تفاصيل البحث أن تبقى هذه المفاهيم في رفقتنا إلى آخر المطاف.

* * *

ثانيًا: واقع تعليم المرأة

لم يعد في العالم الإسلامي من يناقش في حق المرأة في التعليم في صفوف العاملين بالحقل التعليمي فيما نعلم، لكن الملاحظ هو التوافق الشديد بين تعليم المرأة وتعليم الرجل لدرجة أن المناهج الخاصة لا تكاد تذكر إذا قيست بالمناهج والمؤسسات المشتركة. وقبل أن نخوض في تفاصيل هذه المؤسسات والمناهج وما يتفرع عنها، نجدنا مساقين للبحث في أسباب هذا التوافق العجيب.

لقد استوردنا تعليم المرأة فيما استوردناه من الغرب، لا لأن الإسلام لا يعترف بتعليم المرأة؛ بل لأن المفهوم الإسلامي قد انحرف في القرون الأخيرة، وأصبحت المرأة كمّاً مهملاً لا تختلف عن الأمة أو الجارية في البيت. وإذا كانت الجهالة قد سادت مجتمعنا الإسلامي في هذه القرون التي ضعنا فيها عن حقيقة الإسلام، فلا غرو أن ينال المرأة النصيب الأكبر من هذا الضياع.

وعندما اتجهت أمتنا إلى الغرب تريد تقليده في كل شيء على أمل أن تستعيد مجدها من خلال هذا التقليد؛ تلقفت التعليم الغربي برمته لتطبقه عندها.

فكيف كان التعليم للمرأة في الغرب؟ كانت أنانية الإنسان الغربي وماديته قد حطمت جوانب إنسانيته، ورفض الرجل أن يتحمل أعباء النفقة في بيته، على زوجه أو أمه أو شقيقته أو ابنته فلم يكن بد أن تعمل المرأة، لم يكن عملها حقاً اكتسبته كما تتصور الساذجات في أمتنا اليوم؛ بل كان عبودية فرضت عليها، ونيراً أحكم في رقبتها.

وللأمانة والموضوعية نقول: إن مساواتها في الأجور مع الرجل كان حقاً قد حصلت عليه بعد كفاح طويل وعنيف، لأن أصحاب المعامل قد استغلوا ضعفها من قبل في تشغيلها بأخس الأجور.

وحافظ الغرب على الحد الأدنى من إنسانيته مكرهاً، بأن ساوى المرأة مع الرجل في الأجر، لكنه بقي متشبهاً بأنانيته وجشعه ورفض أن يعيد المرأة إلى موطنها الطبيعي في البيت، أو أن ينفق عليها لحظة واحدة. فأصبحت المرأة والرجل شريكين في الشقاء على حساب تربية الأسرة.

وحين جاء علماء التربية، ووضعوا المناهج التعليمية، ووجدوا أن رسالة المرأة والرجل واحدة - وضعوا منهاجاً مشتركاً موحداً للرجل والمرأة على السواء، وخططوا كذلك للمؤسسات التعليمية الواحدة. ونشأ ثمرة هذه التربية جيل جديد من

النساء فقد كثيراً من خصائص الأنوثة، ولم يحمل خصائص الرجولة. وأصبحت المرأة في المكتب والمصنع والمعمل والمتجر، تقاوم ضعفها وعجزها لتحصل على لقمة عيشها.

وحين تلقينا مناهجنا ومؤسساتنا التعليمية من الغرب جئنا بها بحذافيرها لنطبقها على واقعنا، وسعينا في تطبيقها، فكان انحرافنا منهجياً من الأصل، واكتفينا ببعض التعديلات اليسيرة بأن أدخلنا مادة التربية النسوية والاقتصاد المنزلي بمعدل حصتين أو ثلاث في الأسبوع من ثلاثين حصّة تقريباً؛ ونشأت عندنا المرأة للمجتمع لا للبيت!! ولقد عمّ هذا الانحراف وطمّ في آفاق العالم الإسلامي كله. وإن كان هناك بعض الاختلاف في نسبته.

إذن لا شيء عندنا اسمه مناهج تعليم المرأة، ولا شيء عندنا اسمه مؤسسات تعليم المرأة؛ بل كل ما عندنا مناهج تعليمية عامة، ومؤسسات تعليمية عامة، وإن كانت الديار السعودية تختلف عن أقطار العالم الإسلامي: بانفراد تعليم المرأة بجهاز خاص هو الرئاسة العامة لتعليم البنات، وبمراعاة حظر الاختلاط في جميع مراحل التعليم، وبمراعاة شيء من الاختلاف في مناهج مواد التعليم. لكن الأساس في المناهج والمؤسسات التعليمية واحد للطلاب والطالبات.

وكلمة أخيرة بهذا الصدد حول المواد الخاصة بالمرأة مثل التربية النسوية بفروعها، وأخص بالذكر مادة الخياطة: نجد التعليم فيها منصباً كله على الموضوعات والموديلات الغربية، والأساس فيها هو ما تقدمه دور الأزياء العالمية من تطور في اللباس.

وللصهيونية العالمية دور كبير في توجيه دور الأزياء العالمية والتخطيط لعري المرأة باسم اللباس؛ حتى تذوي آدمية المرأة والرجل على السواء، ويبقى لشعب الله المختار المزعوم دوره في قيادة البشرية!!

وعندنا في معاهد الخياطة أو مادة الخياطة انقياد كامل ذليل وعبودية تامة لكل إنتاج وتطورات دور الأزياء العالمية .

فإلى متى نبقى عبيداً للآخرين؟؟

* * *

ثالثاً : أخطار في طريق تعليم المرأة

١ - تأثير الثقافة الغربية :

وهذا واقع بلا شك في حياتنا التعليمية ، وبغض النظر عن ملاحظة هذا التأثير في مؤسسات التعليم ؛ فآثره في المنهج واضح مبين ، حيث أخذت مناهجنا خطين متوازيين :

أ - تكوين الإنسان العلماني :

إذ تهدف هذه المناهج إلى أن تجعل الطالب يثق في العلم ثقة لا تقبل الشك والمناقشة ، وأن معلوماته قاطعة نهائية . فصار العلم في ضمير الطالب (والطالب هنا الذكر والأنثى) ، بمثابة الإله الذي لا يُردُّ له قول ، ولا تتم النجاة والإنقاذ والتقدم والحضارة إلا به . وقد أدت هذه القدسية إلى أن يغدو الدين ضئيلاً في حياة الطالب ، ضعيف الأثر ، مهمته إصلاح الخلق ، وهو أمر ثانوي لا يقدم ولا يؤخر في نقد المجتمع ليصبح في مصاف الدولة الحديثة .

ويؤسفني أن أقول : إن المناهج قد نجحت في هذه المهمة ! وهكذا أصبح الدين في المجال العاطفي والوجداني ، بينما احتل العلم المجال الفكري والعملية ، هذا عند من لم ترغ عقيدته .

لقد غدا الطالب يحس أن المنهج الديني منهج ظني لأنه يقوم على التلقي والنقل والخبر ولا يقوم على التجربة ، فلا يجد حرجاً من أن يناقش كثيراً من المسلمات الإسلامية ، ويعرضها على الخطأ والصواب ، بل ويعرضها

على العلم ذاته!! أما المنهج العلمي فهو منهج يقيني يقوم على التجربة، ومن أجل ذلك لا يناقش أبداً أي خبر يطلق عليه الناس: العلم، ولو كان ظنيّاً أو مختلفاً في ثبوته.

إن الحتمية العلمية التي سادت في أوروبا في القرن التاسع عشر قد انتهت من تاريخ العلم الحديث، لكن ظلالها المقيّنة لا تزال تستبد بأفكارنا في الشرق الإسلامي. لا نزال نؤمن بحتمية العلم ونتأججه، فلا يناقش أحد فيه، أما الدين فيباح الحديث والجدل في ضرورته أو عدم ضرورته. في صحته أو عدم صحته. أما العلم فلا يناقش أحد في ضرورته ولا في صحته. وهذا هو الإنسان العلماني الذي يؤلّه العلم وحده ولا يشرك به شيئاً!!

ب - تكوين الإنسان الموظف:

فهي تعد الإنسان ليكون موظفاً في الدولة حتى في الدراسة التي يطلق عليها الدراسة العلمية! ومن أجل هذا ضعف الإبداع في مجتمعنا الإسلامي. إن الطاقات العلمية كبيرة، ولكن الدول لم تهيء لها وسائل الإبداع والاختراع، فمكثنا عالة على غيرنا في كل شيء. وبالتالي فحين تدرس الطالبة تكون مهياة بعد دراستها لتدخل الوظيفة مثل زميلها الرجل، فتشاركه الحياة في المكتب والمصنع وقاعة الدرس وكل مرافق الحياة، وبذلك تنتهي من أن تكون أماً متفرغة لتربية الجيل إلى كادحة ناصبة لتحصل على رزقها من كذيدها، وعرق جبينها. لماذا؟

ليس عندنا نظام النفقات في الإسلام الذي يرفع الفتاة وهي جنين في بطن أمها إلى أن تؤسّد في اللحد؟ ويهيئها للتفرغ التام للتربية في بيتها تنفذ أمر ربها: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾^(١).

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

وتمثل ثناء نبيها:

(خير نساء ركن الإبل صالح نساء قريش، أحنأهن على ولد، وأرعاهن على زوج في ذات يده)^(١).

(والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها)^(٢).

لقد أصبح العلم للوظيفة، والفتاة التي تنال الشهادة ولا تتوظف تتحسّر على دراستها وعمرها الذي أمضته دون أن تجني ثمرته.

لقد كان أثر المنهج الغربي أولاً أن كَوّن موظفين في الدولة لا مخترعين في المعامل. وكان من أثره ثانياً أن وضع المرأة بجانب الرجل، وأخرج المرأة من البيت، وفرض الاختلاط في المجتمع، وقضى على الرسالة الأساسية للمرأة وهي تربية الجيل في مملكتها الخالدة البيت، وسلّم الأولاد إلى المحاضن التي تفقد حنان الأمهات.

والمرأة الغربية بائسة... هذا ما أعلنه أحد العلماء الغربيين حين كتب يقول: (إن الأصوات تتعالى يوماً بعد يوم شاكية من الأعباء الثلاثة التي تنوء بها المرأة؛ أعني عبء المهنة وتدبير المنزل والعائلة، بحيث أن وضع المرأة هذا لم يعد يطاق. فكما كان تشغيل الأطفال قبل مائة عام لطحّة عار في نظامنا الاجتماعي، وكذلك يعتبر اليوم تشغيل المرأة)^(٣).

وتستغيث المرأة نفسها حين يتاح لها ذلك... ففي الاستفتاء الذي أجرته مجلة «ماري كلير» بواسطة أحد مكاتب الاستطلاع للرأي في باريس حول المساواة مع الرجل في الحقوق والواجبات وفي الحرية، كانت نتيجة الاستفتاء ما يأتي: (مليونين ونصف امرأة فرنسية ملئن المساواة مع الرجل:

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) عن كتاب المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله.

إنهن مللن الحياة العصرية مللن حالة التوتر الدائم طوال ساعات النهار وأغلب ساعات الليل، مللن الاستيقاظ عند الفجر خوفاً من أن يتأخرن عن ساعة بدء العمل في المصنع أو المكتب. وأجمعن أيضاً أنهن مللن الانتظار تحت المطر لوصول الأوتوبيس المزدهم الذي ينقلهن إلى مكان العمل. مللن الجري عند الظهيرة لشراء الطعام وإعداده لباقي الأسرة ثم العودة للعمل مرة أخرى حتى السادسة مساءً. مللن الحياة العائلية التي لا يرى فيها الزوج زوجته إلا أثناء تناول الوجبات أو عند النوم. مللن الحياة التي لا تستطيع فيها الأم أن تباشر مسؤوليتها الكبرى في تربية أطفالها؛ فهي لا تراهم إلا للحظات خاطفة تكون خلالها مرهقة الجسم خائرة القوى متوترة الأعصاب^(١)!!

ويعلن مكتب العمل الدولي في تقرير له تحت عنوان (أول من يفصلون وآخر من يعينون)، كيف تعاني المرأة من التمييز العنصري بينها وبين الرجل: (تم فصل سبعة ملايين امرأة في ١٨ دولة في أوروبا الغربية وأمريكا وكندا وأستراليا واليابان، نتيجة الأزمة الاقتصادية التي وقعت في أوروبا في العام الماضي. ويشير هذا التقرير الذي نشرته وكالات الأنباء بتاريخ ٢٢ يناير كانون الثاني ١٩٧٧، أن هذا العدد يمثل نسبة أربعين في المائة من القوى العاملة في هذه الدول. وأن المرأة تواجه التفرقة عند العمل رغم التقدم الحضاري في هذه الدول. فهي أول من يتم فصلها في الأزمات الاقتصادية. وآخر من يتم تعيينها في الرخاء)^(٢).

٢ - التعليم المختلط :

اتجاه جارف لدى الدول الإسلامية إلى اختلاط التعليم. أما في المرحلة الجامعية فيمكن القول إن العالم الإسلامي كل التعليم فيه مختلط، ما عدا المملكة العربية السعودية. وفي التعليم الابتدائي يتجه عدد من الدول

(١) عن ملحق الندوة الأسبوعي، الخميس ٩ محرم ١٣٩٧ هـ.

(٢) عن صحيفة الرياض، الأحد ١/٢٣/١٩٧٧، العدد ٣٩٣٥.

الإسلامية الى تنفيذ الاختلاط فيه وخاصة في الصفوف الأولى المتقدمة .

وحجة دعاة الاختلاط في المراحل الأولى : أن الأطفال برآء ليس لديهم إلا مشاعر فطرية بعيدة عن الجنس ، وموقفهم في هذا الموضوع شبيه بموقف المشركين الذين يتحدثون بمنافع الخمر ، وينسون إثمه الكبير .

إن المضار التربوية التي تنشأ من اختلاط الأطفال بالمرحلة الابتدائية التي تبدأ منذ سن التمييز - السادسة - لا تحصى : حيث يبدأ التلميذ يعي ما حوله وتجعل الحياة الطبيعية عنده هي الاختلاط . وقيم صداقاته كما يهوى مع صديقه أو صديقه ، ويحيا معها حياة مشتركة . فهو يحس عند انتهاء الاختلاط أنه فقد صديقاً عزيزاً عليه ، ويحن لهذه الصديقة حيناً منبعثاً من كيانه ، ويود لو يليق هذا الحنين ، ويتابع صلته وصداقته التي بناها من قبل دون قيد .

لقد صار الاختلاط جزءاً من كيانه حتى يبلغ سن المراهقة ، وتفتح مشاعره الجنسية ، سوف يختلط هذا التهيج الجنسي بذلك الحنين الطفولي لدى الطرفين . يغدو هدفهما أن تنكسر الحواجز وتصبح النظرة إلى عدم الاختلاط تتسم بالحققد ، ويعبر عنها بالكبت .

لقد ربينا الطفل منذ نعومة أظفاره على الاختلاط ، وزرعناه في كيانه ، ثم أردنا أن نمنعه منه حين أحس أن كيانه كله يريد الاختلاط . إنه سوف يعدنا أعداء له ؛ لأننا نحول بينه وبين ما زرعناه في كيانه . فأية فائدة تربوية ، بل أية ثمرة مرة نتجرعها يوم نربي أولادنا على الاختلاط؟؟

جانب ثان من الموضوع الذي يثيره دعاة الاختلاط : هو قدرة المرأة على تربية الطفل في المدرسة الابتدائية أكثر من الرجل ، هو كلام معسول في ظاهره ، وعلقم في حقيقته !!

إنه لما يندى له الجبين خجلاً أن نربي المرأة على الحياة خارج البيت ، ونطردها من جنتها في البيت إلى جحيم الشارع والمكتب والمصنع .

وهؤلاء الذين يدعون إلى اختلاط الأطفال بهذه الحجة يدسون أنوفهم في الرغام حين نقول لهم : لقد خربتم المرأة حين أخرجتموها من البيت ، وحطمت رسالتها يوم سويتوها مع الرجل ، ثم تأتون لكي تبيحوا الاختلاط لتقولوا : إن المرأة أقدر على التربية من الرجل .

يا هؤلاء : حرصكم على التربية أن تأتوا بالمرأة الى المجتمع المختلط لتربي الجيل بجانب الرجل ، فأين كان حرصكم عليها حين حرمتوها من التفريغ لتربية أولادها في البيت ؟ إن للمدرسة مهمة تختلف عن مهمة البيت : فمن الحرية الطليقة اللامسؤولة ، إلى الارتباط بالنظام والدوام والمسؤولية .

أليس من المعهود تربوياً كذلك أن الولد يهاب أباه أكثر من هيئته أمه ؟؟ وهذا يعني أن الرجل أقدر على تهيئة التلميذ لمسؤوليات المجتمع وهمومه ومشاكله ، والمرأة أقدر على تربية فئاتها على رسالتها في البيت والتفريغ له . إنها الفطرة !!! ولكنها محاولات مجرمة لإفساد هذه الفطرة بحجة التربية .

وثمة أمر ثالث نقوله لدعاة الاختلاط عند الطفل في المرحلة الابتدائية : أليس من المعروف أن سن النضج الجنسي للفتاة يسبق سن النضج الجنسي عند الفتى ؟ ترى كيف تكون حال طالباتنا في الصف السادس مثلاً ، في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرهن ، وقد بلغن نضجهن الجنسي . وهن يجلسن على مقعد واحد مع زملائهن ، وهذا هو السن الطبيعي للنضج الجنسي للفتاة وقد اكتملت أنوثتهن ، وبرزت مفاتهن ، وأنداؤهن ؟؟؟

ماذا تريدون يا دعاة الاختلاط ؟؟؟

أما الاختلاط في الجامعات فماذا نقول عنه ؟؟ ضرورة اجتماعية ؟؟ ضرورة خلقية ؟؟ ضرورة قومية ؟؟ ضرورة تربية ؟؟ هكذا يقولون !! ويقولون : إن المرأة والرجل قد بلغا من الرشد والمسؤولية بحيث يترفعان عن العلاقة الجنسية بينهما ، إنما زمالة درس وصداقة مرحلة .

إنهم لكاذبون!!

أما لو صح قولهم بالحديث عن الرشد لأمكن القول إن حاجة المرأة إلى أن تتزوج انتهت مع دخول الجامعة؛ وهذا يكذبه الواقع لكل ذي لب. والفضائح التي تقع في الجامعات، ويندى لها الجبين أكثر من أن تحصى.

ونقول لهؤلاء الذين يرون في الغرب مثلاً يحتذى، وآلهة تعبد: هلاً بلغكم آخر تطورات التعليم المختلط في الغرب في القرن العشرين، وبالذات في أمريكا ربة الحضارة الحديثة؟! أما سمعتم ما فعلت أمريكا وتفعل في الاختلاط في الجامعة؟! إنها الإحصائية التي وردت في الموسوعة الجغرافية وفي عام ١٩٧٧ عن الجامعات والكليات الأمريكية غير المختلطة، فقد أكدت الموسوعة المعلومات التالية: في أمريكا ١٠٨ جامعة وكلية أمريكية غير مختلطة منها ٧٩ جامعة وكلية للبنات فقط، و٢٧ كلية وجامعة للشبان فقط^(١).

ونقول بعد ذلك: ما هي مبررات دعاة الاختلاط في التعليم؟ وهل تناست أمريكا أو تجاهلت الضرورات القومية والاجتماعية والتربوية والاقتصادية حين سلكت هذا السبيل؟ إن هي إلا رغبة جامحة في إفساد هذا الجيل: ﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً﴾^(٢).

* * *

رابعاً: التصور المتميز لإعداد الطالبة المسلمة

الأهداف:

إن حاجتنا إلى تصور جديد لنظام تربوي متميز للمرأة المسلمة، منبثقة في الأصل من اختلاف رسالتها عن الرجل:

(١) أوردت مجلة المجتمع الكويتية في عددها الصادر في ١٣ أكتوبر تشرين الأول رقم ١٧٠ - قائمة كاملة بأسماء هذه الجامعات والكليات غير المختلطة. ومن شاء التوسع فليرجع إليها.

(٢) سورة النساء: من الآية ٢٧.

الله تعالى يقول للرجل: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾^(١).

والله تعالى يقول للنساء: ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة، وأطعن الله ورسوله. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويظهركم تطهيراً. واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾^(٢).

من خلال هذه الآيات نلاحظ رسالة المرأة المسلمة: فلقد تكررت كلمة البيت ثلاث مرات: ﴿وقرن في بيوتكن - ليذهب عنكم الرجس أهل البيت - واذكرن ما يتلى في بيوتكن﴾.

فرسالة المرأة المسلمة في البيت. لكنها ليست خدمة فقط، أو عبودية مذلة كما يدعي المغرضون؛ بل هي رسالة مشعة بالعلم والهدى والنور.

١ - هي رسالة العبادة: ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة، وآتين الزكاة، وأطعن الله ورسوله﴾. وطاعة الله ورسوله شاملة لكل شيء في السلوك.

٢ - وهي رسالة العلم: ﴿واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾.

٣ - وهي رسالة التوجيه الاجتماعي: ﴿واذكرن...﴾.

ليست فاسمعن فقط، بل اذكرن للآخرين والأخريات.
﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾^(٣).

(١) سورة الملك: الآية ١٥.

(٢) سورة الأحزاب: الآيتان ٣٣، ٣٤.

(٣) سورة التوبة: الآية ٧١.

فيجب أن يحقق النظام التربوي للمرأة المسلمة هذه الأهداف جميعاً: العلم، والعبادة، والتوجيه الاجتماعي في بيئتها المحيطة بها ولو سار النظام في غير هذا المنحى لكان انحرافاً عن المنهج، وكان بالتالي نظاماً غير تربوي بكل تأكيد.

وقدم لنا القرآن الكريم نموذجاً مما تشترك فيه المرأة والرجل في مجال العبادة في عشر فقرات:

﴿إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً﴾^(١).

كما تؤكد الآية التي تليها التساوي في طاعة الله ورسوله للمرأة والرجل نصاً: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾^(٢).
فإذن:

● علم هذه الأمور جميعاً فرض عين على المرأة المسلمة إذ لا عمل بدون علم، ويمكن أن يكون المنهج العلمي في مجال العبادة واحداً للرجل والمرأة، مع مراعاة بعض الاختلاف اليسير الذي أقره الشرع لاختلاف طبيعتهما. هذا أولاً.

● ولا بد لها ثانياً أن تتعرف على كتاب الله والحكمة كما أمرها ربها: ﴿واذكرون ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ فالعلوم الدينية جميعاً بحاجة إليها.

(١، ٢) سورة الأحزاب: الآيتان ٣٥، ٣٦.

● ولا بد لها ثالثاً من الوسائل التي تتعرف بها وتصل منها إلى هذه العلوم، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فهي مضطرة إلى علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة ونقد.

● وتأخذ من بقية العلوم رابعاً ما يساعدها على فهم دينها ورسالتها في بيتها، وقدرتها على تربية وتوجيه أولادها، وقدرتها على توجيه بيتها ومجتمعها.

هدفنا اذن من التصور للنظام التربوي المتميز للمرأة المسلمة هو أن تترى وتتعرف منه على :

- ١ - أمور دينها.
 - ٢ - مسؤوليتها في بيتها.
 - ٣ - فن خدمة بيتها وزوجها.
 - ٤ - فن تربية أولادها.
 - ٥ - إطلاعها على مجتمعها بحيث تكون عارفة بتطوراته خبيرة باتجاهاته.
- ولنسر معها منذ مرحلتها الأولى في تحديد هذا التصور.

* * *

آ - في المرحلة الابتدائية

ما هي أهداف التعليم في المرحلة الابتدائية حسب الواقع القائم؟ هي تكوين قدرات لدى التلميذ على القراءة والكتابة الجيدة، وتكوين القدرة الحسائية البسيطة، وتكوين خبرة علمية واجتماعية بالبيئة المحيطة بالطفل. فالثقافة هنا للخبرة وتكوين القدرات.

وكما تعرف سياسة التعليم المرحلة الابتدائية وأهدافها قائلة :

«المرحلة الابتدائية هي القاعدة التي يركز عليها إعداد الناشئين

للمراحل التالية من حياتهم . وهي مرحلة عامة تشمل أبناء الأمة جميعاً، وتزويدهم بالأساسيات من العقيدة الصحيحة والاتجاهات السليمة، والخبرات والمعلومات والمهارات»^(١).

أما المهارات المقصودة، فكما تقول المادة «٧٥»: تنمية المهارات الأساسية المختلفة وخاصة: المهارة اللغوية، والمهارة العددية والمهارات الحركية.

ومما لا شك فيه أن القرآن وحده كاف لتكوين هذه القدرات والخبرات، لماذا لا يكون القرآن وحده محور العملية التربوية في المرحلة الابتدائية؟ إن الذين تخرجوا من كتاتيب القرآن في الماضي، والذين يدرسون اليوم في مدارس تحفيظ القرآن لا يضاهيهم في القدرة اللغوية والكتابية خريجو المدارس الابتدائية بكل تأكيد. فالقراءة الجيدة بدون لحن، والكتابة المضبوطة بدون خطأ، هي سمة ملازمة لتلاميذ كتاتيب القرآن. ويتساويان بعدها في القدرة الحسائية، والخبرة التعليمية، لأن الكتب في المدارس العادية تعرف التلميذ فيها بيئته. وكلا التلميذين يعيشان في بيئة واحدة. ونحن لا نقول إن تلقي القرآن يجب أن يتم بالطريقة القديمة فقط، إن معطيات التربية النفسية يمكن أن نستعملها في التعليم خلال هذه المرحلة. ولكننا نطالب كما تقرر التربية نفسها في أرقى طرائقها الدراسية من خلال المشروع الذي ندرس المواد الدراسية كلها من خلاله.

إن تقسيم المواد إلى تاريخ وجغرافية وعلوم وعربية ودين يجب أن يكون في ذهن واضع المنهج وذهن المدرس، لا في ذهن التلميذ وواقعه.

لماذا نهلك التلميذ بعشر مواد، وعشر وظائف، وعشرة دفاتر، وعشرة مقررات للحفظ؟ أليس هذا من الطرائق التربوية المهترئة؟

يمكن أن يكون القرآن وحده رفيق تلميذ الابتدائية بجانب كراسه وقلمه.

(١) سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية - الباب الخامس - أهداف مراحل التعليم.

حينما تكون الآيات عن الليل والنهار والشمس والقمر يتلقى معلوماته الجغرافية .

وحينما تكون الآيات عن قصص الأنبياء وقصص السيرة يتلقى معلوماته التاريخية .

وحينما تكون الآيات عن الأنعام والنبات وقدرة الله فيها يتلقى معلوماته العلمية .

وحينما تكون الآيات عن الصلاة والزكاة والحج والصدق والأمانة يتلقى معلوماته الدينية .

أما معلوماته اللغوية فمن خلال الآيات السابقة كلها . أما القدرة اللغوية ؛ قدرة القراءة والكتابة : ففي بداية الطريق يتم تعرفه على الحرف وكتابه . ولا يصعب الاستفادة من الطريقة الجمالية أو التركيبية إذا شئنا ذلك .

والقدرة الحسابية يمكن أن يُفرد لها حصة يومية . فلا بُدَّ له منها ليفهم معنى أنصبة الزكاة ، ومعنى أنصبة الموارث وغيرها .

القرآن وحده يحقق هذه الأمور جميعاً ، وهي كلها جزء من أهدافه ، ولا نريد مزاحماً للقرآن أبداً مهما كان الكتاب .

ونريد هدفاً آخر أكبر من هذا الهدف : هو حفظ القرآن من خلال هذه المرحلة . إن هذه المرحلة التي تمتد من السادسة للشانية عشرة هي السن المناسبة للتدريب على الذاكرة ، فالذاكرة في هذه المرحلة شعلة متوهجة هي أقدر ما تكون على الحفظ والاستظهار ، وما يحفظه قلماً يتم نسيانه .

وحفظ القرآن يعني انطباع ثقافته كلها في قلب التلميذ وتكوّنه من خلال القرآن ، وهذه مدارس تحفيظ القرآن قائمة عندنا شاهدة على صدق ما نقول . فتلاميذ الثانية عشرة والثالثة عشرة يحفظون القرآن . وصلتهم مع أعظم كتاب بلاغي في الوجود وتعاملهم معه ، وحياتهم من خلاله ، تبين كم هو دوره في

تحسين نطقهم، وجودة قراءتهم، ويُعد ألسنتهم عن اللحن، وجودة كتابتهم، ومهارة مطالعتهم، وسعة ثقافتهم التي لا تعرف الحدود.

لقد تم هذا كله بالأساليب القديمة المعتادة، وبالجهد الشخصية المحدودة. فكيف إذا اتجه علماء التربية المسلمون إلى هذا الهدف، ووضعت إمكانية الدول المادية والمعنوية لتحقيق هذا الهدف؟! وأقولها بصراحة دون مجاملة:

إن مناهجنا القائمة في المرحلة الابتدائية خرَّجت لنا تلاميذ فقراء في الخبرة اللغوية، ورافقهم هذا الفقر حتى بعد انتهاء دراستهم الجامعية في أخطاء القراءة والكتابة، وتساوٍ في بقية القدرات والخبرات. إذا أحسنّا الظن مع تلميذ المدرسة القرآنية.

ولكن الجريمة الكبرى هي صرف التلاميذ عن كتاب الله، إنها مؤامرة تلقيناها على أنها خبرات تربوية حديثة!! ولقد حاولت السعودية أن تعطي القرآن كثيراً من الاهتمام بإكثار ساعات تلاوته؛ ولكن المحاولة لم تعط ثمارها المطلوبة لأن القرآن يزاحم بعشر مواد أخرى على الأقل روعيت فيها البساطة والصورة الجميلة؛ فغدت محببة إلى القلب أكثر من القرآن. ونجحت المؤامرة.

فهل لنا أن نصحو مرة ثانية، ونعيد القرآن إلى تلاميذنا وتلميذاتنا، كما نستفيد من كل معطيات التربية وعلم النفس في أسلوب تدريسه؟! نحافظ على كل ما نريد من مواد في ذهن المدرس وواضع المنهج؛ ليركز عليها في ذهن الطفل، دون إرهاقه بهذا التقسيم الذي عفا عليه الدهر وأصبح من مخلفات طرائق التربية.

ومؤتمرنا هذا هو المسؤول مسؤولية مباشرة عن هذه الصحوة، إذا تبني هذه المفاهيم، وتخلص من رواسب القيود الجاهلية التي طغت في كل جوانب الحياة.

ب - في المرحلة المتوسطة

إذا تذكرنا في تاريخنا التشريعي أن الرسول ﷺ نهى في بداية الدولة الإسلامية عن كتابة الحديث حتى لا يزاحم القرآن؛ أدرنا خطورة مزاحمة المواد العشر للقرآن في المرحلة الابتدائية، وأدرنا كذلك أن المرحلة المتوسطة - بعد أن يكون تلميذنا قد احتفظ بالقرآن في قلبه - يمكن أن يتلقى فيها تفصيلات علمية أو اجتماعية أو دينية أكثر.

وعودة يسيرة إلى الوراء نذكر فيها هذه الأسماء:

أنس بن مالك، عبدالله بن عمر، عبدالله بن عباس، زيد بن ثابت، عبدالله بن الزبير، عائشة بنت أبي بكر.

نجد أن هذه الأسماء قد نقلت لنا التراث الإسلامي كله عن رسول الله ﷺ.

عائشة كان سنّها عندما تزوجها رسول الله ﷺ ست سنين وعندما بنى بها تسع سنين.

عبدالله بن الزبير أول مولود في الإسلام بالمدينة.

عبدالله بن عباس كان رسول الله ﷺ يناديه يا غلام، ويشد بأذنه من الجانب الأيسر إلى الجانب الأيمن.

زيد بن ثابت كان عمره عشرين عاماً عندما كلف بجمع القرآن في خلافة الصديق أي كان عمره عشر سنين في أول سنّي الهجرة.

أنس بن مالك دخل بيت النبوة وعمره عشر سنين.

عبدالله بن عمر لم يحضر غزوة أحد لأنه كان صغيراً.

عمرو بن سلمة أمّ قومه وهو ابن ست سنين لأنه كان أعلم قومه بالقرآن.

فالمرحلة المتوسطة مرحلة ابتداء فرض العين في التكليف الإسلامية،

مرحلة تعلم كتاب الله والحكمة، مرحلة تعلم العبادات وأحكامها، مرحلة الاتصال بعلم التفسير وعلم الحديث وعلم الفقه وعلم التوحيد، ومرحلة الاتصال بالثقافة الإسلامية، ومرحلة التعرف على التاريخ الإسلامي، وجغرافية الأمة المسلمة.

فالتخصص في المرحلة المتوسطة بالتركيز على هذه الأمور هو الذي يناسب هذه المرحلة.

حاجة الطالب والطالبة الى مبادئ الهندسة واحدة؛ حيث يواجه لاختصاصه في عمارة الأرض، وتوجه لاختصاصها في التفصيل والخيطة.

حاجة الطالب والطالبة إلى مبادئ العلوم والأحياء واحدة؛ فهي لا بد لها أن تتعامل مع الحياة في بيئتها، مع الأدوات الكهربائية، مع المواد الغذائية، مع المواد التي تحتاجها في الغسل والكي.

فمبادئ العلوم والرياضيات تتلقاها الطالبة في هذه المرحلة بالقدر المقرر الذي تتعرف فيه على أسسها العامة.

بينما تتعمق في العلوم الإسلامية التي تركز فهمها لدينها، لعبادتها، لآيات الله المنبثة في الكون، للحكمة المنبثقة من الحديث وفقهه.

والعلوم اللغوية كذلك تتعمق فيها بصفحتها أداة الفهم للعلوم الأخرى قاطبة.

وأقول: إن المرحلة الابتدائية لا تحتاج إلى أي اختلاف في مناهجها للبنين والبنات.

والمرحلة المتوسطة يمكن أن تتوحد بين البنين والبنات من حيث المنهج العام، ولكن الكتب المؤلفة يجب أن تكون متغايرة.

فلا شك أن المواضيع تختلف سعة وضيقاً، وتركيزاً ومروراً عابراً من

الفتاة للفتى ، إضافة إلى بعض المواضيع الخاصة بالفتاة ، وبعض المواضيع الخاصة بالفتى كذلك .

ج - المرحلة الثانوية

إذا أخذنا الحديث المشهور المروي عن عائشة رضي الله عنها والذي رواه ابن أختها عروة بن الزبير والذي يقول فيه :

ما رأيت أحداً أعلم بشعر ولا بفقه ولا بطب من عائشة .

نجد أن قمة التخصص العلمي كان عند عائشة رضي الله عنها فهي بالإضافة إلى نقلها الشريعة من خلال الحديث النبوي ، فهي أعلم الناس بالشعر والفقه والطب .

لقد كان صحابة رسول الله ﷺ ينوفون عن عشرات الألوف وكان فقهاء الصحابة الذين يفتون يعدون على الأصابع ، وكانت عائشة أم المؤمنين أحد هؤلاء المعدودين .

فأي مدى من العمق والتخصص وصلت إليه أم المؤمنين رضوان الله عليها في فقه دين الله !!

لقد تساءل بعض التابعين وهو يرى اسم عائشة يملأ الدنيا في المجال الفقهي : تساءل عن جانب أحس أنه أبعد ما يكون عن مجال المرأة هو باب الفرائض - أي الموارث - .

ولو سألنا اليوم الطلبة المتخصصين بكلية الشريعة عن أصعب المواد عليهم ؛ لكان الجواب هو مادة الفرائض ! وخاصة حين تتعدد الأنصبة ويكون الحجب والعول والرد .

سأل ذلك التابعي : هل كانت عائشة تحسن الفرائض؟؟

فقال له المسؤول مؤكداً: رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض^(١).

وكان عطاء بن أبي رباح يقول:

كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً بالعامّة^(٢).

ويتجاوز أبو موسى الأشعري هذا الأمر فيقول:

ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علماً^(٣).

فإذا كان الفقه يمثل الجانب الديني، والشعر يمثل الجانب الأدبي، والطب يمثل الجانب العلمي - فلا غرابة إذن أن يتنوع التخصص في المرحلة الثانوية بين هذه الجوانب الثلاثة: الأدبي والعلمي والديني. إضافة إلى الجانب التربوي الذي تُدرس فيه خصائص الطفولة، وعلم نفس الطفل، إضافة إلى التوسع الجيد في مادة التربية الفنية والنسوية؛ بحيث يكون كل فرع فيها مادة مستقلة.

فتكون المواد الأساسية هي:

١ - مواد التربية الفنية والنسوية.

٢ - المواد التربوية وعلم نفس الطفل، مع مراعاة أن تكون منطلقة انطلاقاً تاماً من المفاهيم الإسلامية.

٣ - الثقافة الإسلامية: وتكون فيها الآيات التي عالجت رسالة المرأة، مثل: صدر سورة النساء، وسور النور والأحزاب والتحريم والطلاق.
والأحاديث الواردة في هذا الموضوع. والأحكام الفقهية كذلك.

٤ - اللغة العربية في كتاب واحد يجمع الأمور الضرورية في النحو والأدب.

(١، ٢، ٣) عن الإصابة في تمييز الصحابة.

ولا بد من الإشارة إلى أن التخصص العلمي يركز فيه على علم الأحياء وفروعه بشكل تفصيلي، بينما تكون المواد العلمية الأخرى كفروع الهندسة والجبر والفيزياء والكيمياء مبسطة جداً؛ لبعد ذلك عن حياتها العملية، إن لم نقل بإمكان الاستغناء نهائياً عنها.

وما عدا هذه المواد الرئيسية، فيكون التعمق والتخصص في كل فرع على حدة:

الفرع الأدبي ومواده اللغوية والاجتماعية. أو الفرع العلمي ومواده الحسابية وعلوم الأحياء والأدوية. أو الفرع الديني، ومواده في الفقه والحديث والتفسير.

د - المرحلة الجامعية

المرحلة الجامعية بالنسبة للمرأة هي مرحلة غير أساسية: بمعنى أن الأصل أن تكون المرأة في هذا السن قد دخلت بيتها الزوجي، وأسست أسرة جديدة. وتأخر المرأة في الزواج بعد سن العشرين بحجة الدراسة هو أمر غير طبيعي، ولا يتلاءم مع روح الإسلام، وتوجيهاته العامة إلى الزواج المبكر.

وليست عملية الدراسة الجامعية والتفرغ لها إلا عملية تضحية تقوم بها النابغات من نساؤنا ليحققن مفهوم فرض الكفاية في مجالهن، حيث يقوم بها البعض ليسقط عن الباقيات. وليس الأصل فيها العموم.

والمجالات النسائية التي نحن بحاجة لها في مجتمعنا هي مجال التعليم والطب، بتعليم المواد التي يتلقينها في مدارسهن، والتخصص في المجالات الطبية ليقمن بدورهن في تطيب النساء، بل والرجال عند الضرورة وعند قيامهم بجهاد العدو في خضم المعارك، كما كانت الصحابيات يفعلن في الجيش الإسلامي لتكون كل طاقات الرجال موجهة للقتال كما تقول أم عطية رضي الله عنها:

غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات كنا نسقي العطشى ونداوي الجرحى .

وما عدا هذين المجالين فهو خروج في طبيعته عن مهمة المرأة الأساسية ، كما سبق وقلنا في بداية البحث إنه ليس في العلم محظور، ولكن كل ما يحول دون تحقيق المرأة لمسؤوليتها في بيتها يكون محظوراً عليها .
كلمة أخيرة :

هذه محاولة يسيرة متواضعة أقدمها بين يدي المؤتمر، وأضعها بين يدي إخواني أعضاء المؤتمر العالمي الأول للتعليم الإسلامي - يكفي أن تكون مؤشراً فقط ؛ لكي يساهم الإخوة أعضاء المؤتمر بتقديم الصورة الكاملة للعملية التربوية المتميزة للمرأة المسلمة، وهي مهمتهم، بل أمانة في أعناقهم أن يؤدوها يحاسبهم الله تعالى على التقصير فيها .

والله أسأل أن يسدد خطانا إلى ما فيه رضاه، وأن يجنبنا الزلل والعثر
ويغفر لنا الخطأ والنسيان إنه سميع مجيب .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

نموذج من التربية النبوية عائشة من السادسة إلى الثامنة عشرة

لقد كانت عائشة رضي الله عنها نموذج الفتاة التي رعاها رسول الله ﷺ رعاية وعناية وتربية؛ منذ أن كانت في سن السادسة.

ولئن كنا نبحت عن نموذج تربية إمام المربين محمد ﷺ للأنثى فسنجد ذلك مستوفى في عائشة أم المؤمنين.

ويبقى هذا النموذج القدوة المحتذاة على مر العصور، يتعلم منه المؤمنون كيف تكون تربية الفتاة المسلمة.

والمرحلة التي رعى فيها رسول الله ﷺ الصديقة بنت الصديق، هي مرحلة التربية المتكاملة منذ سن السادسة حتى نهاية سن الثامنة عشرة.

إنها السن التي تتلقى فيها الفتاة في وقتنا الحاضر الدراسة الابتدائية والإعدادية والثانوية. وكان هذا قدراً من قدر الله، لتكون بين أعيننا كل طرائق التربية النبوية للأنثى واضحة جلية.

ونسستعرض في هذا البحث جزءاً من هذه التربية. مرجئين بقية الموضوع إلى بحث آخر.

١ - ابنة السادسة

آ - قدر الله :

عن حبيب مولى عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال :

(لما ماتت خديجة حزن عليها النبي ﷺ حزناً شديداً، فبعث الله جبريل فأتاه بعائشة في مهد فقال :

يا رسول الله هذه تذهب بعض حزنك، وإن في هذه خَلْفاً من خديجة)^(١).

ولقد حدث رسول الله ﷺ عائشة بذلك كما تقول :

(قال لي رسول الله ﷺ : أريتك في المنام مرتين، أتيت بك في سَرَقَةٍ من حرير فأكشفها فإذا أنتِ . قال : فيقال : هذه امرأتك، قال : فأقول : إن كان هذا من عند الله يمضه)^(٢).

وأمضى الله أمره، وتزوج رسول الله ﷺ عائشة في العام نفسه . وقبل إتمام الزواج كانت العناية والرعاية الخاصة .

ب - توصية نبوية :

(... فكان رسول الله ﷺ يختلف إلى بيت أبي بكر ويقول : يا أم رومان استوصي بعائشة خيراً، واحفظيني فيها .

فكان لعائشة بذلك منزلة عند أهلها ولا يشعرون بأمر الله فيها .

فأتاهم رسول الله ﷺ يوماً في بعض ما كان يأتيهم، وكان لا يخطئه يوماً واحداً أن يأتي إلى بيت أبي بكر منذ أسلم إلى أن هاجر .)^(٣).

لقد كانت الرعاية نظرية بوصية أم رومان، وكانت عملية بالزيارة اليومية لبيت أبي بكر . ومن خلال الزيارة يسأل عن أوضاع طفلة السادسة وبيادلهما الحديث . وأحست عائشة باهتمام رسول الله ﷺ بها، فأحست بثقة عجيبة،

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٨ ص ٧٨ ، ط . دار صادر ودار بيروت .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٨ ص ٦٣ .

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٨ ص ٧٨ .

وسرور متناه لهذا الاهتمام، ورأت في شخص رسول الله ﷺ ذلك الحنو والاهتمام والحب، فأولته ثقتها وراحت تبثه أشجانها.

هذه هي الصورة الأولى من العلاقة بين الطفل والمسؤولين عن تربيته؛ أهلاً ومعلمين: ثقة متبادلة، ونفسية طليقة مفتوحة تعبر عن كل ما يعن لها بحرية تامة وطلاقة متناهية؛ كما تذكر لنا القصة التالية:

جـ - عتاب ومشاركة وجدانية:

(... فأتاهم رسول الله ﷺ، يوماً في بعض ما كان يأتيهم، وكان لا يخطئه يوماً واحداً أن يأتي إلى بيت أبي بكر منذ أسلم إلى أن هاجر، فيجد عائشة مستترة بباب دار أبي بكر تبكي بكاء حزيناً، فسألها فشكت أمها، فذكرت أنها تولع بها، فدمعت عينا رسول الله ﷺ، ودخل على أم رومان فقال: يا أم رومان ألم أوصيك بعائشة أن تحفظيني فيها؟ فقالت: يا رسول الله إنها بلغت الصديق عني وأغضبته علينا. فقال النبي ﷺ: وإن فعلت. قالت أم رومان: لا جرم لا سؤتها أبداً.

وكانت عائشة ولدت السنة الرابعة من النبوة في أولها، وتزوجها رسول الله ﷺ في السنة العاشرة في شوال، وهي يومئذ بنت ست سنين وتزوجها بعد سودة بشهر^(١).

جوانب مهمة في التربية نفقها من هذه الحادثة:

- ١ - الاهتمام بأحاسيس الطفلة، والتعرف على واقعها ومشاكلها وآلامها.
- ٢ - المشاركة الوجدانية الفعلية التي تصل إلى حد التأثير بالبكاء لهذه المشاكل والآلام.
- ٣ - المعالجة الفعلية للمشكلة، ولو عن طريق الاتصال بالبيت والأسرة؛ لإصلاح بعض جوانب النقص التربوية فيه.

(١) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ٧٨.

٤ - ونلاحظ أن رسول الله ﷺ لا يرى عقوبة الطفلة في هذا السن على أخطائها؛ فلم يقبل عذر أم رومان رضي الله عنها، ولو أدت خطيئة عائشة إلى مشكلة في البيت.

٥ - ونجد التجاوب العظيم لبيت الصديق مع توجيهات النبوة؛ فتعلن أم رومان: لا جرم لا سؤتها أبداً. وتعلن بذلك انصياعها الكامل لتوجيه نبيها في أن تبعد الأذى والألم عن عائشة في هذا السن.

د - الفتاة اللاعبة والزواج:

تقول عائشة رضي الله عنها:

(تزوجني رسول الله ﷺ وإني لألعب مع الجواري. فما دريت أن رسول الله تزوجني حتى أخذتني أُمِّي فحبستني في البيت عن الخروج، فوقع في نفسي أنني تزوجت فما سألتها حتى كانت هي التي أخبرتني)^(١).

ومثل كل فتاة ترغب في اللعب مع أترابها الجواري، تنتظر فرصة تنسل فيها من البيت لتتابع اللعب مع رفيقاتها في الطريق.

ولكننا لو أردنا أن نعرف مستوى تفكيرها في هذه المرحلة؛ لوجدنا تفكيراً عجباً، وذكاءً وقادراً.

لقد أعدت للمسؤولية في البيت منذ سن السادسة، وها هي أمها تمنعها من الخروج للعب، فراحت تربط الأحداث بعضها ببعض.

إنها ترى إهتمام رسول الله ﷺ بها، وعندما كانت تخرج كل يوم للعب لم تكن أمها لتمنعها من ذلك، أما الآن فتجد إصرار أمها على عدم خروجها إلى الجواري رفيقاتها.

فأي جديد حدث؟

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٨ ص ٥٨.

(فوقع في نفسي أنني تزوجت).

انصاعت للأمر، ولم تسأل أمها عن السبب، وتركت الأمر بينها وبين نفسها.

إن ذلك الاهتمام في البيت، والتوجيه النبوي لها؛ جعلها تدرك مسؤوليتها منذ سن السادسة، وتعي واجبها وهي طفلة فتستجيب للبقاء في البيت دون أية ضجة وأية إثارة.

لو نظرنا إلى فتاة اليوم هل تدرك هذا المنع وترضى به قبل سن التاسعة؟! ولكنها التربية النبوية التي جعلتها أهلاً لمسؤولية الزواج والبيت منذ هذه السن المبكرة.

وتبدو لنا قوة شخصيتها يوم تركت فتح موضوع زواجها مع أمها. إن فتاة السادسة عشرة، بل فتاة العشرين، لا تضبط عواطفها من الفرح أن تسأل أمها في جو البيت الغريب الدافع لزواجها. يوم يأتي الخطاب يطلبونها ويتحدثون عنها، يوم يأتي الخطاب إلى بيتها، فتصل روحها إلى فمها بانتظار ما تسفر عنه الزيارة، ولا تدع أمها لحظة واحدة إلا وتسألها عن التفصيل، وعن الموافقة، وعن الرغبة في زواجها.

أية شخصية قوية هذه، التي تضبط عواطفها واندفاعاتها، وسيد الخلق يتزوجها، ومع هذا فتتحفظ بحيائها حتى عند أمها ولا تسأل عن شيء؛ حتى تكون أمها هي التي تفتاحها به؟؟ ثم تنقطع أخبارها عنا حتى التاسعة.

* * *

٢ - ابنة التاسعة

مناط الثقة :

عن عائشة رضي الله عنها قالت :

(فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وقد علف راحلتين

كانتا عنده ورق السمر - وهو الخبط - أربعة أشهر. قالت عائشة: فبينما نحن جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها! فقال أبو بكر: فدى له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل، فقال لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله. قال: فإني قد أذن لي في الخروج.

فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: نعم... (١).

كل ما يهمننا من هذه الحادثة هو كون عائشة مناط الثقة لرسول الله ﷺ، فرضي رسول الله أن يتحدث أمامها عن أخطر عملية في تاريخ النبوة؛ عملية الهجرة، وهي لا تزال في سن التاسعة!! إنه لا يمكن أن يتحدث رسول الله ﷺ بهذا السر أمام عائشة لو لم يكن على ثقة بشخصيتها، وعلى ثقة بکتمانها للسر، وعلى ثقة بباتها على الحق ولو تعرضت للخطر.

ونود أن نسأل: هل حفل تاريخ الدعوات كله أن تناط الثقة بفتاة في سن التاسعة غير فتاتنا عائشة عليها رضوان الله؟!

ولقد أثبتت عائشة أنها جديرة بهذه الثقة، فلم يتفلت لسانها أمام إنسان بهذا الحدث الخطير، وكان هذا تربية لها على السر، فقد كتمت أخبار الاتجاه إلى مكة فيما بعد حتى عن أبيها أبي بكر.

العروس المهاجرة:

عن عائشة قالت:

(لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة خلفنا وخلف بناته، فلما قدم

(١) مختصر السيرة، للشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

المدينة بعث إلينا زيد بن حارثة، وبعث معه أبا رافع مولاه وأعطاه بيعيرين وخمسمائة درهم أخذها رسول الله ﷺ من أبي بكر يشتريان بها ما يحتاجان إليه من الظَّهر. وبعث أبو بكر معهما عبدالله بن أريقط الديلي بيعيرين أو ثلاثة، وكتب الى عبدالله بن أبي بكر يأمره أن يحمل أهله: أمي أم رومان وأختي أسماء امرأة الزبير وأنا، فخرجوا مصطحبين. فلما انتهوا إلى قديد اشترى زيد بن حارثة بتلك الخمسمائة ثلاثة أبعرة، ثم رحلوا من مكة جميعاً، وصادفوا طلحة بن عبيدالله واصطحبنا جميعاً، حتى إذا كنا بالبيض من منى نفر بيعيري وأنا في محفةٍ معي فيها أمي، فجعلت أمي تقول: وابنتاه، واعروساه! حتى أدرك بيعيرنا وقد هبط من لُفت فسلم الله عز وجل...).

وكان هذا هو الفزع الأول الذي وقع لها وهي في طريقها مهاجرة إلى الله عز وجل. لقد كانت أعصابها هادئة متزنة، بينما نقلت لنا فزع وجزع أمها أم رومان على العروس المهاجرة عائشة، التي ما فتىء رسول الله ﷺ يوصي بها.

لقد كانت هناك مناط الثقة، وكانت هنا مناط المسؤولية، وكانت معدة لدورها الكبير الذي كلفت به وهو حمل أعباء بيت النبوة. وهذه المسؤولية ليست بالأمر اليسير.

عائشة في بيت النبوة:

تري ونحن نتحدث عن عائشة رضي الله عنها، هل ننسى أنها طفلة لها هواياتها ومواهبها وطاقاتها؟ هل نتصورها من طينة غير طينة البنات؟ وهل وعيها على مسؤوليتها ورسالتها يقضي أن تكون بلا طاقات، وبلا هوايات، وبلا رغبات؟ أبداً، فهذه الطفلة نفسها مناط الثقة، ومناط المسؤولية، تحدثنا عن رغباتها وهواياتها.

(في الصحيح عن عائشة أنها قالت:

تزوجني النبي ﷺ وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني

الحارث بن الخزرج، فوعكْتُ فتمزق شعري، فأتتني أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعِي صواحب لي، فصرخت بي، فأتيتهَا ولا أدري ما تريد بي. فأخذت يدي حتى وقفتني على باب الدار وإني لأنهج، حتى سكن نفسي. ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار فإذا نسوة من الأنصار، فقلن: على الخير والبركة، وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، وأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ؛ فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين^(١).

فلئن منعتهَا أمها عن اللعب مع الجواري في الطريق، فلن تمنعها عن اللعب في البيت، وطبيعة عائشة الاجتماعية لا تدعها منزوية وحدها في البيت، بل لا بد لها من صواحب يلعبن معها، ويمرحن معها.

وبالرغم من كل وعيها وذكائها الوقاد، فهذا لا يتعارض أبداً مع تلبية حاجتها إلى اللعب، واللعب الذي تهواه الأرجوحة، ومع من تحب من صويحباتها.

ثم نتساءل بعد ذلك:

هل انتهى الأمر في هوايات عائشة رضي الله عنها بعد أن أصبحت ربة بيت مسؤولة، وزوجاً لسيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام؟

تقول عائشة: كنت أَلعب بالبنات عند رسول الله ﷺ، وكُنْ يَأْتِينِي صواحي ينقمعن من رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يُسرُّ بهن إلي فيلعبن معي^(٢).

فلم يتغير شيء من الوضع، لا تزال في سن الطفولة، ولا تزال طاقات

(١) مختصر السيرة للشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ١٧٧.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد: عن عفان بن مسلم عن وهيب عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، ج ٨ ص ٦١.

اللعب عندها على أشدها، وإمام المربين يعرف هذا منها فيفسح لها المجال كاملاً لتلبي هذه الأشواق.

تلعب بالبنات، وهذه أحب الألعاب للبنات؛ أن يمارسن هواية الأمومة وهن في هذه السن، وتحاول أن تجعل من هذه الدمى طفلاً يحب ويكره، يأكل وينام، يرضى ويسخط. ويتسابقن في ذلك.

ولا تكتفي طفلتنا عائشة رضوان الله عليها بدمى البنات، بل تحاول أن تجعل لهن أجنحة كما تقول:

(دخل عليّ رسول الله ﷺ يوماً وأنا أَلعب بالبنات، فقال: ما هذا يا عائشة؟ فقلت: خيل سليمان. فضحك)^(١).

ولا يكتفي إمام المربين ﷺ بأن يغض نظره عن ألعاب الطفولة في بيته، بل ويغذيها. فهو عندما يجد في الطريق صويحات عائشة يدعوهم للدخول إليها، ويهيئ لها المجال الهنيء مع صديقاتها لتسعد بألعابها.

وماذا بعد اللعب؟

الترويح عن النفس وفي بيت رسول الله ﷺ.

تقول عائشة رضي الله عنها:

(دخل علي رسول الله ﷺ، وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعث، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزماره الشيطان عند النبي ﷺ!! فأطل عليه رسول الله ﷺ فقال: دعهما. فلما غفل غمزتهما فخرجتا)^(٢).

(وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب، فلما سألت رسول الله

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد عن محمد بن عمر عن خارجة بن عبد الله عن يزيد بن رومان عن عروة.

(٢) متفق عليه.

ﷺ، قال: تشتهين تنظرين؟ قلت: نعم. فأقامني وراءه وهو يقول: دونكم يا بني أرفدة، حتى إذا مللت قال: حسبك؟ قلت: نعم. قال: فاذهبي^(١).

وفي رواية نحوه: (تغنيان وتضربان)، وفيه: (وأنا جارية، فاقدروا قدر الجارية العربة الحديثة السن).

نلاحظ أن من اهتمامات الطفلة الولع بالأناشيد تتغنى بها، وبالرغم من أن الإسلام لا يرضى الغناء في مآثر الجاهلية أو تميميع الشخصية، نجد أن الجاريتين تغنيان بغناء يوم بعث وهو يوم جرت فيه معركة بين الأوس والخزرج - ومع ذلك فقد أباح لهن رسول الله ﷺ ذلك الغناء، لأن فيه حشاً على القوة ومديحاً للبطولة، مع ملاحظة كراهته ﷺ لهذا الجو؛ حيث أشاح بوجهه عنهن.

وجانب التربية دقيق هنا، إنه التوجيه غير المباشر، وبالإشارة للامحاة إلى كراهة هذا العمل، ولم يرض عليه الصلاة والسلام ذلك النهي المباشر من أبي بكر. إن إحساس الفتاة من ذاتها بخطئها أهم بكثير من الوعظ المباشر لها. والمربية مدعوة إلى أن تتمكن بلباقتها وحسن تصرفها من دفع الإحساس الداخلي لتلميذاتها إلى الطيب من العمل والطيب من السلوك، وغرس الكراهة والاشمئزاز في النفس لكل مردول.

وتؤكد لنا عائشة رضي الله عنها في الرواية الأخرى أنها كانت جارية حديثة السن عندما تم هذا الأمر. إن مثل هذا الغناء الذي يبعث في النفس الشجاعة والقوة دون أن يثير جوانب العصبية والحقد في النفوس؛ هو من ملاهي الطفولة التي تقدر بقدرها، وأروع ما في النص قول عائشة رضي الله عنها: (فاقدروا قدر الجارية العربة الحديثة السن).

إنها كلمة عائشة تمر عبر القرون والعصور لتصل إلى أذن كل مربية

(١) الشيخان والنسائي.

مسلمة تقول لها أن تقدر قدر الجارية الحديثة السن، وفي رواية: الحريصة على اللهو.

هذا هو واقع فتاتنا نرعاه بعناية وحذر: نراعي نوازعها، ولكن بقدر. وتبقى هي الهدف عندنا في التربية؛ أن نقدرها قدرها، وأن نراعي ميولها، وأن نوجه أهواءها بأعظم رعاية، وأعمق عناية. فلقد تعلمت الصديقة من رسول الله الدرس التربوي الخالد، وانتهزت فرصة إغفاءة الرسول ﷺ للحظات حتى غمزت صديقتها فخرجتا من البيت.

أما لعب الأحباش بالدرق يوم العيد: نرى فرح عائشة رضي الله عنها الذي لا يحد، ويسر الرسول صلوات الله عليه لها هذه الفرحة، فيدعوها إلى نظهرهم، بل ويهيم لها الجو النفسي بحيث تنظر بمتعة متناهية، رأسها على منكبيه.

فالجديد في المنظر مثير، والحركة مثيرة، والنفس مضطربة، ولا يكفي سيد المرين ﷺ بنظرها فقط، بل يأخذ النظر مداه.

ففي رواية، يسألها: أشبعت؟ فتقول: لا. حتى تكون هي التي تنصرف. لأن في هذا النظر ما يريح نفسها ويثلج صدرها، ويسعداها. فليكن ذلك.

* * *

٣ - ابنة العاشرة

عاشت عائشة رضي الله عنها في سن العاشرة ورفيقتها سودة بنت زمعة في بيت النبي ﷺ. وهي تنظر إلى سودة نظرة الفتاة الصغيرة إلى أمها. وشهدت نصر المسلمين المؤزر في بدر.

لكن جاءها وافد جديد في نهاية عامها العاشر، وكان هذا الوافد حفصة

بنت عمر رضي الله عنها . ولم يكن بين عائشة وحفصة ما يثير التنافس ، فلقد كانت حفصة رضي الله عنها مستغرقة في العبادة صياماً وقياماً ، كل همها أن يرضى رسول الله ﷺ عنها بعد رضا ربها عز وجل .

* * *

٤ - ابنة الحادية عشرة - الفتاة في المعركة

ها نحن نرى ابنة الحادية عشرة تؤدي دورها في الجيش الإسلامي في أحد .

وهذه هي الثمرة المباشرة للتربية النبوية خلال عامين مباركين .

ففي الصحيح عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال :

(لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ . . . ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان ، أرى خدم «خلاخيل» سوقهما تنقزان - تنقزان - بالقرب) .

وفي رواية : (تنقلان القرب على متونهما تفرغانه على أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملأنها وتجيئان فتفرغانه في أفواه القوم) .

وإنها لمهمة عسيرة ولأول مرة تواجهها عائشة بنت الصديق أن تعيش بين تناثر السهام وقعقة السيوف وطعن الرماح ، أن تعيش بين الأشلاء المتناثرة ، والأيدي المبتورة ، والرؤوس المحترزة أن تقوم بواجبها حيث انهزم الرجال ، وجُندل الأبطال !

إنها مع أم سليم الرميضاء المعلمة . تستجيبان للأتات ، وتنقزان بالماء مع أدنى استغاثة . يتصبب العرق من جبينهن .

ولكن إنقاذ الجرحى وإسعافهم ينسيهن تعبهن وجهدهن .

ينحط العدو من الجبل على المسلمين كوابل المطر ، أما أم سليم

وعائشة فعلى عهدهما وعلى مسؤوليتهما تؤديان الدور المناط بهما.

إيه يا ابنة الحادية عشرة، إيه يا ربيبة النبوة: فلست الآن تستمعين لغناء بعث، ولا تلعبين في الأرجوحة، ولا تنظرين لعب الأحباش بالدرق.

إنك ترين الآن الموت ماثلاً مع كل لحظة، وتمرين بين القتل والدماء والأشلاء؛ فما يثنيك ذلك عن واجبك، ولا يصرفك ذلك عن مهمتك.

تهمد الأسود ولا تهدين، وتتابعين قفزاً ووثباً، جيئةً وذهاباً لسقي العطشى فتفرغين الماء في أفواه القوم.

ولا تنسى عائشة رضي الله عنها في خضم المعركة، وفي أتون النار؛ أن تنقل لنا بعض لقطات من أحد:

الأولى حين وقعت المأساة في جيش المسلمين:

تقول رضي الله عنها كما روى البخاري:

لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة، فصاح إبليس: أي عباد الله أخراكم (أي احترزوا من ورائكم). فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم فبصر حذيفة فإذا باليمان أبيه؛ فقال: أي عباد الله أبي!! قالت: فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه. فقال: يغفر الله لكم!!

أما اللقطة الثانية فلقد كانت لقطة حاسمة، كما ذكر ابن حبان في صحيحه عنها:

قالت: قال أبو بكر الصديق: لما كان يوم أحد انصرف الناس عن النبي ﷺ، فكنيت أول من فاء إلى النبي فرأيت بين يديه رجلاً يقاتل عنه ويحميه، فقلت: كن طلحة فذاك أبي وأمي، فلم أنشب أن أدركني أبو عبيدة بن الجراح، وإذا هو يشد كالطير حتى لحقني. فدفعنا إلى النبي ﷺ فإذا طلحة بين يديه صريعاً، فقال النبي ﷺ: «دونكم أحاكم فقد أوجب».

وأورد الطيالسي عن عائشة رضي الله عنها قالت :
كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال : ذاك يوم كله لطلحة .

* * *

٥ - الفتاة الغيرة

لن نتابع خط السير مع عائشة رضي الله عنها إلى آخر المطاف لكننا نشهدها في هذه السنة تعاني أعنف العواطف وأشدّها من نزول أم سلمة رضي الله عنها زوجاً في بيت النبي عليه الصلاة والسلام . ولم تخفِ علينا هذه المشاعر قائلة :

(لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة حزنت حزناً شديداً لما ذكروا لنا من جمالها . قالت : فتلطفت حتى رأيتها ، فرأيتها أضعاف ما وصف لي في الحسن والجمال . قالت : فذكرت ذلك لحفصة وكاننا يداً واحدة فقالت : لا والله إن هذه إلا الغيرة ، ما هي كما تقولين . فتلطفت لها حفصة حتى رأتها ، فقالت : قد رأيتها ، ولا والله ما هي كما تقولين ولا قريب ، وإنها لجميلة . قالت : فرأيتها بعد فكانت لعمري كما قالت حفصة . ولكني كنت غيرة!!^(١) .

لقد كانت تحس أن رسول الله ﷺ لها ، وهؤلاء الشريكات جئن ينازعنها هذا الحظ النفيس ، ويشاركنها قلب سيد الخلق عليه الصلاة والسلام .

كانت تدع لعواطفها العنان تعبر عن كل مشاعرها وأحاسيسها وانفعالاتها وهي مطمئنة ، فرسول الله عليه الصلاة والسلام يسد خطأها ، ويكفكف غلواءها ، ويكبح عنان ثورتها .

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : عن محمد بن عمر عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة .

لكنها إنسان حي يتدفق حيوية وشعوراً، فها هي تغلي كالمرجل، وقد رأت رسول الله ﷺ يخرج من عندها ليلاً:

(قالت: فجاء فرأى ما أصنع .

فقال: «مالك يا عائشة، أغرت علي؟!»

فقلت: ما لي لا يغار مثلي على مثلك؟!

فقال: «أقد جاءك شيطانك؟»

قالت: يا رسول الله، أمعي شيطان؟

قال: «نعم» .

قلت: ومع كل إنسان؟

قال: «نعم» .

قلت: ومعك يا رسول الله؟

قال: «نعم، ولكنني أعاني الله عليه حتى أسلم»^(١) .

ما هو أهم درس خرجت به عائشة من هذه الحادثة، ورسخ في أعماقها وخالط ذاتها؟

هذا الدرس هو أن الشيطان مبعث الغيرة كلها، فلا بد من أن تعالج هذه الغيرة .

ومن نماذج هذه الغيرة مع أم سلمة حادثة الصحيفة:

«أن أم سلمة أتت بطعام في صحيفة لها إلى النبي ﷺ وأصحابه، فجاءت عائشة متزرة بكساء ومعها فهر (حجر) ففلقت به الصحيفة، فجمع النبي بين فلقتي الصحيفة ويقول: «كلوا غارت أمكم مرتين» ثم أخذ رسول الله صحيفة عائشة فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى صحيفة أم سلمة لعائشة»^(٢) .

(١) مسلم والنسائي .

(٢) رواه النسائي .

فها هي هنا رضي الله عنها لم تتمالك نفسها حين تجد أم سلمة تحضر الطعام الشهي لرسول الله ﷺ وهو عندها.

لقد توترت أعصابها، وأحست أن هذا إهانة جارحة لها، فلم تتمالك أن ضربت الصحيفة ففلقتها على مشهد من الناس!!

كيف تصرف الرسول عليه الصلاة والسلام إزاء هذه الحادثة؟

جمع بين فلقتي الصحيفة وقال: كلوا غارت أمكم.

فلقد أعلن على الملأ أن عائشة رضي الله عنها غارت، وفقط، دون سباب أو غضب أو إهانة، والتركيز على كلمة «أمكم» إحياء آخر بأن عائشة رضي الله عنها في مقام لا يصح لها أن تتصرف هذا التصرف وهي أم المؤمنين في الأرض. ودعوة المسلمين للأكل من صحيفة أم سلمة تأكيد على حق أم سلمة في تقديم الطعام. ولا ضرورة لمثل هذه الحدة من الغيرة من أم المؤمنين عائشة.

بهذه العظمة في المعالجة، وهذه الحكمة في التربية؛ استطاعت عائشة أن تعود إلى نفسها وتشعر بجسامة خطئها، بدون أن تُوجَّه لها كلمة تخذش مشاعرهما، أو تنال من كرامتهما. ولكنها أحست بلذع الخطيئة، فجاءت نادمة لرسول الله ﷺ تسأله: ما أفعل؟

فقال لها عليه الصلاة والسلام:

«يا عائشة: إناء بإناء، وطعام بطعام».

أي تربية هذه تقرب من تربية النبوة ومعالجة مشكلات الطفولة، والغيرة، والشطط في الانفعال؟!

لقد حول الجو من الغضب والعنف إلى الحب والود، فلا بد أن تهدي عائشة رضي الله عنها صحيفة لأم سلمة عوضاً عن صحفتها المكسورة، ولا بد أن تهديها طعاماً كما أهدتها أم سلمة.

وهذه هي عظمة التربية الخالدة.

ونأخذ صورة مماثلة بين سودة وعائشة، والفرق شاسع في السن والطبيعة بين الزوجتين، ولا تزال عائشة الطفلة، الطلقة، المرحه، الممزاحة اللعوب؛ لا تزال في سن الطفولة. تقول:

(أتيت النبي ﷺ بحريرة قد طبختها له، فقلت لسودة والنبي ﷺ بيني وبينها: كلي، فأبت، فقلت: لتأكلين أو لألطنن وجهك، فأبت. فوضعت يدي في الحريرة، فطليت وجهها!! فضحك النبي ﷺ. فوضع يده لها وقال لها: الطخي وجهها ففعلت، فضحك النبي ﷺ. فمر عمر، فقال: يا عبدالله، يا عبدالله، فظن أنه سيدخل، فقال: قوما فاغسلا وجوهكما. قالت عائشة: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ^(١)).

فهذه عائشة رضي الله عنها تفعل بجارتها سودة، ما فعلت أم سلمة فيها. وحين تمتنع عن الأكل تصر عليها حتى لتلطخ وجهها.

ورسول الله ﷺ ينظر، وكان بإمكانه أن يشير ولو إشارة يسيرة لعائشة أن تكف؛ لكنها لم تكن تلمح من رسول الله ذلك فلتمارس هوايتها ومزاحها ولعبها، وقامت بلطخ وجه سودة.

تدخل رسول الله ﷺ الآن مباشرة، إن سودة متتدة كبيرة السن، تستحي أن تفعل بعائشة رضي الله عنها ما فعلت هي بها، بل وتخاف كذلك، حرصاً على مرضاة نبيها، فهي تعلم مدى حبه لعائشة.

ولقد ضحك رسول الله ﷺ من صنيع عائشة بسودة.

كان لا بد من التدخل المباشر، وهكذا أخذ يد سودة، وأغمسها في الحريرة، وقال لها: الطخيها. ففعلت، وضحك النبي ﷺ.

(١) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح خلا محمد بن عمر.

ويا لها من جلسة هنية رخيّة، سعيدة، حلوة، ووجها امرأتى النبي ﷺ ملطخان بالطعام والنبي يضحك!!

بهذه البساطة، وهذه الطلاقة وهذه البشاشة كان رسول الله ﷺ يحيا في بيته، ومع أهله، ومع عائشة الفتاة الصغيرة، ابنة الثانية عشرة أو الحادية عشرة. ولقد كان درساً تربوياً لعائشة رضي الله عنها لا تنساه: أنها يجب أن تتلقى جزاء صنيعها، فليس لها ميزة بالمعاملة على غيرها حتى ولو مع سودة.

ورأت سودة مدى حب رسول الله ﷺ لعائشة، وقد كبر سنّها، واقتنعت بأعظم مجدٍ في دنياها أن تكون زوجاً للنبي عليه الصلاة والسلام. فقالت: وهبت ليلتي لعائشة.

لم تكن سودة لتشير كوامن غيرة عائشة في هذا السن، ولم تكن حفصة لتشير كوامن غيرتها بعد أن تعلمت أن الشيطان هو باعث الغيرة.

إنما الذي كان يهيج عواطفها الوافد الجديد أم سلمة رضي الله عنها، ولحظت عائشة كثرة تردده عليها فقالت:

(أرأيت لو نزلت وادياً وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجراً لم يؤكل منها في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: «في الذي لم يُرتع منها»^(١). تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرة غيرها.

لقد كانت حريصة على أن تدلل بنفسها عنده، وأن تسمع منه مدى حبه لها، أن تأخذ منه اعترافاً بذلك.

ففي الرواية الثانية تقول: فأنا لست كأحد من نسائك، كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل غيرك. قالت: فتبسم رسول الله ﷺ.

وبسمة النبي ﷺ سعادة دنياها، فهو ما تريد، لو استطاعت أن تحوط

(١) رواه البخاري.

قلبه كله ، فلا يند منه رعشة حب لغيرها ؛ لفعلت .

لقد انطلقت بطاقتها وأحاسيسها ومشاعرها وهواياتها كما هي بلا قيد ؛ بين يدي رسول الله ﷺ إمام المربين ، ورسول الله يضبط المعايير ويوجه المشاعر ، بالبسمة الهنية أو الإعراضة الخفيفة أو الشاء الجيد . ولم تחדش مشاعرها لحظة واحدة .

٦ - ابنة الثانية عشرة

المسلمون محاصرون في الخندق ، وكما قال الله تعالى :

﴿إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ ، وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾^(١) .

وقلب عائشة يخفق ، فقد طال البعد بينها وبين رسول الله ﷺ ، وازداد جزعها خوفاً على المسلمين . فجمعت عليها ثيابها وحدت السير متجهة نحو الخندق . ولندع لها الحديث كله تُمَتِّعنا بما لقت من مفاجآت وأهوال في خروجها هذا :

(خرجت يوم الخندق أقفوا الناس)^(٢) . فسمعت وثيد الأرض^(٣) ورائي . فإذا أنا بسعد بن معاذ رضي الله عنه ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنة^(٤) . قالت : فجلست إلى الأرض ، فمر سعد رضي الله عنه من أعظم الناس وأطولهم وهو يرتجز ويقول :

ليت قليلاً يشهدا الهيجا حمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

(١) سورة الأحزاب ١٠ و ١١ .

(٢) أقفوا الناس : أتبع أثرهم .

(٣) وثيد الأرض : زلزلتها .

(٤) مجنة : ترس .

قالت: ففقت فافتحمت حديقة فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيهم رجل عليه تسبغة له (تعني المغفر)^(١). فقال عمر رضي الله عنه:

ما جاء بك؟ لعمرى والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون هناك بلاء أو يكون تخور^(٢). قالت: فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت بي ساعتئذ فدخلت فيها. فرفع الرجل التسبغة عن وجهه فإذا هو طلحة بن عبيدالله رضي الله عنه فقال: يا عمر ويحك إنك أكثرت منذ اليوم، وأين التخور والفرار إلا إلى الله تعالى (...).

إنها فتاة عجيبة، لم تترب لحظة على الخوف. تغامر فتخرج باحثة عن جيش المسلمين. وفي أي وقت؟

(قال حذيفة: والله لو رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ هويماً من الليل ثم التفت فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم؟» - يشترط له النبي ﷺ أن يرجع - أدخله الله الجنة) قال فما قام رجل، ثم صلى رسول الله ﷺ هويماً من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله، فما قام منا رجل ثم صلى رسول الله ﷺ هويماً من الليل ثم التفت فقال: «من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة» فما قام رجل من القوم من شدة الخوف، وشدة الجوع وشدة البرد (...)^(٣).

في هذا الجو من البرد والخوف والجوع تحركت الصبية العجيبة، ابنة الثانية عشرة تقفو أثر الجيش. وإن فتاة الثانية عشر اليوم، قد تخور خوفاً من صوت الرعد والبرق والريح العاتية وهي بين أهلها وفي داخل بيتها.

(١) المغفر: الحديد الذي يغطي الرأس فيحميه من السيوف في المعركة.

(٢) تخور: تراجع وانسحاب.

(٣) تهذيب السيرة لابن هشام / ١٩٧.

وعندما طاف اليهودي بالحصن أيام الخندق. ما جرؤ على الخروج له وقتله إلا صفية بنت عبد المطلب. وها هي تقتحم الحديقة فتذهل ابن الخطاب البطل في هذا الخروج المغامر، وتصعقه جرأتها، ومع ذلك يعنفها على هذا الخروج. وتتمنى أن تبتلعها الأرض من هذا التعنيف، لولا أن أنقذ طلحة رضي الله عنه الموقف قائلاً لعمر:

(ويحك إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التخور أو الفرار إلا إلى الله تعالى).

ونترك عائشة بعدها تحدثنا عن سعد والخندق مما رأت وشاهدت وسمعت دون أن أي تعليق: (ورمى سعداً رضي الله عنه رجلٌ من قريش يقال له ابن العرقه بهسمٍ له وقال له: خذها وأنا ابن العرقه فأصاب أكحله فقطعه فدعا الله تعالى سعدُ فقال: اللهم لا تمتني حتى تقرَّ عيني من بني قريظة قالت: وكانوا حلفاء ومواليه في الجاهلية قالت: فرقاً كلمه. وبعث الله تعالى الريح على المشركين وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً، فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيههم. ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمر بقبة من آدم فضربت على سعد رضي الله عنه في المسجد قالت فجاء جبريل عليه السلام وإن على ثنياه لنقع الغبار فقال: أو قد وضعت السلاح؟ لا والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح. أخرج إلى بني قريظة فقاتلهم.

قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمته وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فمر على بني تميم وهم جيران المسجد فقال: «من مرَّ بكم؟» قالوا: مرَّ بنا دحية الكلبي وكان دحية الكلبي يشبه لحيته وسنه وجهه جبريل عليه الصلاة والسلام. فاتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلما اشتد حصارهم واشتد البلاء قيل لهم: أنزلوا على حكم رسول الله ﷺ؛ فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر فأشار إليهم أنه الذبيح. قالوا: ننزل على حكم سعد بن

معاذ فقال رسول الله ﷺ: «انزلوا على حكم سعد بن معاذ» فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه فأُتي به على حمار عليه إكاف من ليف قد حمل عليه، وحفَّ به قومه. فقالوا: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل الكتاب ومن قد علمت قالت: فلا يرجع إليهم شيئاً ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لي أن لا أبالي في الله لومة لائم. قالت قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيّدكم فأنزلوه» فقال عمر رضي الله عنه سيدنا الله قال: «أنزلوه» فأنزلوه، قال رسول الله ﷺ: «أحكم فيهم» قال سعد رضي الله عنه: أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم. فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى ورسوله» ثم دعا سعد رضي الله عنه فقال:

اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئاً فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك.

قال: فانفجر كلمه، وكان قد برىء منه إلا مثل الخرص، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ قالت عائشة رضي الله عنها: فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما قالت: فوالذي نفسي بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر رضي الله عنه من بكاء عمر رضي الله عنه وأنا في حجرتي وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿رحماء بينهم﴾ قال علقمة: فقلت: أي أمه فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟

قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد ولكنه كان إذا وجد فإنما هو أخذ بلحيته ﷺ... (١).

أي ذكاء هذا؟ وأي بلاغة هذه؟ وهي تعرض لنا جزئيات الغزوة وتفصيلاتها وملابساتها. ولا تجد حرجاً أن تعرض لنا ما لها وما عليها؛ ما

(١) رواه الإمام أحمد.

أصابته به وما أخطأت حتى كأننا شهود عيانٍ فيها. ولما تناهز الثانية عشرة بعد؟؟؟!!

ب - أثقل الوافدين

انتهت الخندق في أوائل ذي القعدة، وتلتها غزوة بني قريظة، وشارف ذو القعدة على الانتهاء. لكن حمل في ثنياه وافداً من أثقل الوافدين على قلب عائشة الفتاة المرحمة، بنت الثانية عشرة. وكان هذا الوافد هو زينب بنت جحش رضي الله عنها، التي جاءت إلى بيت النبوة في ضجة واحتفال ضخم من السماء والأرض، وفي أمر من الله تعالى بزواجها.

روى البخاري عن أنسٍ قال:

(بنى النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعياً. فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون. فدعوت حتى ما أجده أحداً أدعوه فقلت: يا رسول الله ما أجده أحداً أدعوه قال: «ارفعوا طعامكم» وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته» قالت: وعليك السلام ورحمة الله كيف وجدت أهلك يا رسول الله بارك الله لك؟ فتقرى حُجَر نساءه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة فما أدري أخبرته أم أخبر أن القوم خرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخلة والأخرى خارجة أرخى الستر بيني وبينه وأنزلت آية (الحجاب...).

* * *

لقد كانت رضي الله عنها على المستوى المطلوب من الأدب الرفيع الذي تلقته من رسول الله ﷺ. لكنها تكظم في قلبها أنفاساً حرة، وغيره

تكاد تنهش صدرها . إنها تعلم أنه مضى ليعرس بزینب ويعود إليها من عند زینب قائلاً :

السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته .

وعليك السلام ورحمة الله ، كيف وجدت أهلك يا رسول الله ؟
بارك الله لك .

لم تجد حرجاً وهو قادم من عند ضرة جديدة من رد السلام والتحية ،
والسؤال عن هذه الضرة ، كيف وجدها ، والمباركة له فيها .

مع أنه لا يخفى أبداً من ثنايا كلامها ما يعتمل في صدرها من انفعال
وهي تسارع لتسأل :

كيف وجدت أهلك يا رسول الله ؟

ترى : هل أخذت زینب بقلبه كل مأخذ ، مع هذا الاحتفال السماوي ،
والتزويج الرباني . وهي ابنة عمته وأقرب الناس به .

إنها تريد جواباً ، وليكن الجواب ما يكون ، فما يصبر قلبها على
الانتظار .

ما رأيه ؟ هل حلت محلها وأخذت مكانها ؟ !! إنها النار تعتمل في
صدرها ولا تملك إلا هذا الأدب ، فعلى من تصب هذا الانفعال ، والله زوجه
له من السماء ، إن كانت قد خطبت عنده ، وغلبتها في حبه لها ، فما لذة
العيش بعد ذلك .

كيف وجدت أهلك يا رسول الله ؟

لقد سارعت في السؤال عن زینب قبل أن تبارك له بها .

وعرفت الجواب بعد أنه لم ير أهله إلى الآن ، وعندما عاد ثانية إليها ،
وقد عرفت الخبر وكما يقول أنس : فما أدري أخبرته أم أخبر . . .)

ولا يعد أبداً أن تكون قد بعثت رسلها تستجلي الخبر، فما أن رآته عائداً إليها حتى أخبرته بخروجهم، إنها تريد أن تعرف رأي زوجها الحبيب بهذا الوافد الجديد.

والظاهر أن الأمور سرعان ما تبلورت، واحتلت زينب مكان المنافس القوي لعائشة رضي الله عنهما، فأم سلمة لم تكن تقل عن زينب مكاناً ونسباً وجهاداً. غير أنها كما وعدّها رسول الله ﷺ عندما قالت له: إني امرأة غيرى. فقال لها:

أما الغيرة فيذهبها الله عنك.

فالمعركة من جانب واحد، أما عائشة اليوم فهي تدخل حلبة النزال مع زينب رضوان الله عليهما. تقول عائشة:

(لم تكن من نسائه امرأة تناصيني في المنزل عنده غيرها)^(١).

وفي رواية: كانت زينب بنت جحش تساميني في المنزل عند رسول الله ﷺ (...).

ج - مؤامرة

قلب عائشة يغلي كالمرجل، فها هو عليه الصلاة والسلام يدخل على زينب فيطيل المكث عندها، ولا بد أنها تتحفة بطعام أو شراب شهى. وها هي الغيرة تتأجج في قلبها. فتمضي إلى حفصة تبثها أشجانها وهمومها. إنها في بيت سيد ولد آدم. فلتسرع من حبه، ولتحاول أن تحوطه لنفسها فقط من دون الناس جميعاً، ومن دون ضرائرها جميعاً. وعندما تتجاوز الحد سوف تأتيها التوبة النبوية، وتلقاها بصدر رحب.

(١) تهذيب السيرة لعبد السلام هارون / ٢١٧.

إن ابنة الثانية عشرة كتلة ملتهبة من العواطف، لا بد أن توجه هذه العواطف لا تواجه حتى لا تقود إلى الانحراف. ولا تقدر الفتاة في هذه السن عواقب الأمور، ألم تمض عائشة رضي الله عنها إلى الخندق وحيدة تفقو أثر المسلمين، ولقيت التعنيف من عمر، لقد تلقت تعنيفه، دون أن تحمل في قلبها عليه، بل بلغت حساسية ضميرها أن تمنى لو أن الأرض ابتلعتها من كثرة تعنيفه. وها هي الآن تمضي مع ابنته حفصة في مخطط جديد عجيب.

عن عبيد بن عمير قال:

سمعت عائشة تزعم أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش، ويشرب عندها عسلاً، فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا ما دخل عليها، فلتقتل: إني أجد منك ريح مغافير؛ أكلت مغافير! فدخل على إحداها فقالت له ذلك. قال: بل شربت عسلاً عند زينب، ولن أعود له. . .).

لقد استطاعت الذكية الصبية رضي الله عنها أن تجر حفصة إلى هذه المؤامرة. ويدعيان أنهما يشمان ريح مغافير، ورسول الله ﷺ لا يطيق الرائحة الكريهة. والمغافير صمغ شبيه بالناطف ينضحه شجر العرطف، فيوضع في ثوب، ثم ينضح بالماء فيشرب وله رائحة منكورة ونجح المخطط على أن لا تخبر حفصة أحداً بقرار رسول الله ﷺ أنه لن يأكل عسلاً بعد اليوم عند زينب. ولا تقوى حفصة على كتمان السر، فالمخطط واحد منهما، والسماء ترقب هذا التخطيط البشري القاصر، وأن الألوان لكشفه بعد أن أفضى السر، ونزل القرآن من فوق سبع سموات يدعوها إلى التوبة، ويرفع هذا القيد عن رسوله ﷺ.

﴿يا أيها النبي لم تحرّم ما أحلّ الله لك، تبغني مرضات أزواجك والله غفور رحيم قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم، وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرفَ

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة.

بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت: من أنباك هذا. قال نبأني العليم الخبير. إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما، وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل، وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير، عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات، عابدات، سائحات، ثيبات وأبكاراً^(١).

كانت هذه الآيات أسمى درس تتلقاه عائشة رضي الله عنها في خضم انفعالها وانسياقها مع عواطفها. وبدأت تحس بخطورة كل موقف وكل حركة. وفعلت هذه الآيات فيها ندباً عميقاً في كيائها. غيّر تيار عواطفها إلى مجرى آخر. وهيأتها لمواقف ومسؤوليات ضخمة. تفاعلت معها التفاعل العجيب.

٧ - ابنة الثالثة عشرة

لا يزال بينها وبين زينب رضي الله عنهما تنافس كبير. ولنشهد بعض هذه النماذج منه بعد المعركة الخاسرة الأولى معها.

معركة رابحة:

عن عروة قال قالت عائشة:

(... ما علمت حتى دخلت عليّ زينب بغير إذن وهي غضبي، ثم قالت لرسول الله ﷺ: أحسبك إذا قلبت لك بنية أبي بكر ذريعتها...)

زينب رضي الله تعالى عنها تبتدىء المعركة، وتعبّر عن غيرتها العنيفة. إن رسول الله ﷺ ينسى بقية نسائه عندما يرى عائشة رضي الله عنها وتهش له بذراعيها تستقبله.

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، ولن تروى غضبها بدون النيل من

(١) سورة التحريم، الآيات ١ - ٥. وقد تم التوسع في تفسير هذه الآيات في الحديث عن سورة التحريم، وإنما سيق من هذا النص بما يناسب المقام.

عائشة فماذا تفعل مع رسول الله ﷺ. ولتشف غيظها من عائشة.

ويغلي المرجل في قلب عائشة. وتتأجج النار في صدرها. لكن الدرس القاسي السابق الذي تلقته يقف أمامها كالهول يحول بينها وبين الكلام.

(ثم أقبلت عليّ، فأعرضت عنها. . .)

وماذا يفعل سيد الخلق في هذه المعركة المحتدمة؟! وأين ينضم؟
اكتفى عليه الصلاة والسلام بالقول لعائشة رضي الله عنها:

(دونك فانتصري).

وهل يعوز بنت أبي بكر حجة، وما أن تلقت الإشارة والإذن حتى انطلقت سيلاً متدفقاً حجة وفصاحة ومحاجة ضد زينب رضي الله عنهما.

(فأقبلت عليها حتى رأيت قد يبس ريقها في فمها، فما ترد عليّ شيئاً).

إنها عائشة رضي الله عنها مع حقها المهدور تمضي كالبحر الهادر، لم يوقفها شيء. إلا صمت زينب المطبق. فقد سدت عليها المسالك، وردت عليها كل ما واجهتها به. ورسول الله ﷺ الذي يحمل ثقل الدنيا والدعوة على رأسه جالس يسمع. واكتفى بالصمت المعبر. لا يحب الله الجهر بالسوء إلا من ظلم. . . وقد ظلمت عائشة. فاستلت حقها من زينب حتى يبس ريقها في فمها.

(فرأيت النبي ﷺ يتהלل وجهه).

وهذا نص الرواية كاملاً كما ورد.

عن عروة قال قالت عائشة: ما علمت حتى دخلت عليّ زينب بغير إذن وهي غضبي ثم قالت لرسول الله ﷺ: أحسبك إذا قلبت لك بنية أبي بكر ذريعتها ثم أقبلت عليّ، فأعرضت عنها. فقال النبي ﷺ دونك فانتصري،

فأقبلت عليها حتى رأيت قد يمس ريقها في فمها، فما ترد عليّ شيئاً، فرأيت النبي ﷺ يتهلل وجهه^(١).

الهدايا تكشف الأسرار:

عن هشام عن أبيه عن عائشة:

(أن نساء رسول الله ﷺ كنّ حزبين فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة، والحزب الآخر أم سلمة وسائر أزواجه وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة. فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها لرسول الله ﷺ أخرها حتى إذا كان في بيت عائشة بعث بها إلى رسول الله ﷺ. فتكلم حزب أم سلمة فقلن لها: كلمي رسول الله ﷺ يكلم الناس فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ هدية فليهد إليه حيث كان من نسائه. فكلمته أم سلمة بما قلن. فلم يقل لها شيئاً. فسألنها. فقالت: ما قال لي شيئاً. فقلن: كلميه. قالت فكلمته حين دار إليها. فلم يقل لها شيئاً. فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً. فقلن لها: كلميه. فدار إليها، فكلمته فقال لها:

«لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة» فقالت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله.

ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ فأرسلنها إلى رسول الله ﷺ تقول: إن نساءك ينشدنك العدل في بنت أبي بكر. فكلمته فقال: «يا بنية ألا تحبين ما أحب؟» قالت: بلى.

فرجعت إليهن فأخبرتهن. فقلن: ارجعي إليه. فأبت أن ترجع.

فأرسلن زينب بنت جحش. فأتته فأغلظت وقالت: إن نساءك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة. فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة، وهي قاعدة

(١) رجاله ثقات أخرجه أحمد ٩٣/٦ وابن ماجه (١٩٨١) وقال البوصيري في (الزوائد) (١٢٨) هذا إسناد صحيح على شرط مسلم، رواه النسائي في عشرة النساء.

تسبها حتى إن رسول الله ﷺ لينظر إلى عائشة هل تتكلم . قال : فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها . فنظر النبي ﷺ وقال : «إنها ابنة أبي بكر»^(١).

* * *

معركة حامية الوطيس من ثلاث جولات متتابعة انتهت لصالح عائشة رضي الله عنها .

إنها لتسعد أرغد سعادة ، يوم ينتشر الخبر بين المسلمين جميعاً أن عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما أحب نسائه إليه . إنها تطير فرحاً بهذا العلم . ولكن الذي يفرحها أكثر أن يعلم ضرائرها ذلك عنها . فلا شيء أهنأ لقلبها من ذلك العلم .

أما الهدايا فعلى الرغم من هنائتها بها حين تتناولها مع حبيبها محمد ﷺ . فهي أصغر في ذهنها من ذلك الشأو الذي سبقت به صوحيباتها . أن تكون هي الفائزة الأولى بقلب سيد ولد آدم محمد عليه الصلاة والسلام .

وها هي تشهد هذا الاحتجاج العنيف من ضرائرها على تحين هدايا الناس في يومها . وكانت الجولة الأولى مع أم سلمة رضي الله عنها . وهي صامته صابرة تكظم انفعالها . وتترك الأمر لرسول الله ﷺ . إنها لم تتدخل للمواجهة السافرة وتقول لها ولهن من ورائها هذا أمر لا علاقة له بالعدل ، وهذا يخص الناس ، لا يخص رسول الله ﷺ ، كما تفكر كل ضرة في هذا الوجود كي لا تفقد هذه الميزة .

إن نساء النبي ﷺ يرين لهن حقاً مهدوراً في هذه الصيغة ، فرحن يطالبن فيه ، وهي ترى رضي الله عنها لها حقاً مكتسباً الأصل أن تدافع عنه .

(١) أخرجه البخاري ١٥١/٥ ، ١٥٢ في الهبة : باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه .

لكن الصبية الذكية، والفتاة الأريية. تدع الأمر لرسول الله ﷺ.

وهو سمو عظيم من ثمرة هذه التربية، وتطور عند عائشة رضي الله عنها عما كانت عليه من قبل. إنها غدت تفرق بين عواطفها المتأججة، وغيظها المكظوم، وبين سلوكها المطلوب وهي بين يدي رسول الله ﷺ. ولا تزال آيات التحريم ترن في أعماقها. وتهز كيائها يوم تجاوزت الحد المطلوب.

إن حساسيتها وانفعالها لم ينقصا ذرة واحدة. وهي في سن تفجر الأحاسيس والانفعالات، لكن عظمة التربية كوّنت لديها هذا الصبر المر. وهي ترى أم سلمة رضي الله عنها تطالب النبي ﷺ بتعميم على المسلمين يقول:

من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ فليهد إليه حيث كان من نسائه.

وراحت تعد اللحظات، ويكاد قلبها يصل حنجرتها من الخوف، وعيونها متمسرة بضم رسول الله ﷺ ماذا ينطق:
فلم يقل لها شيئاً.

ومضت أم سلمة رضي الله عنها، وهي هادئة الأعصاب. فقد قال لها رسول الله ﷺ: أما الغيرة فيذهبها الله عنك، لتشهد ثورة عنيقة من حزنها تطالبها بالعودة ثانية للمطالبة بهذا الحق، وما كادت عائشة يقر قرارها حتى تفاجأ بالطلب ثانياً من أم سلمة رضي الله عنهما أن يصدر التعميم على المسلمين.

فقلن كلميه، قالت، فكلمته حين دار إليها فلم يقل لها شيئاً.

إن صمت النبي الثاني أبهج قلب عائشة رضي الله عنها، وجعلها تحس في نشوة يرافقها شيء من القلق أن تعود المحاولة الثالثة. فالصمت قد يطمع معارضاتها بمتابعة المواجهة، ولم يكن قلقاً من نسج الخيال، فقد صح ما توقعته. وجرت المحاولة الثالثة.

(فقلن لها: كلميه . فدار إليها فكلمته . . .)

وها هو رسول الله ﷺ يفرج عن شفتيه بكلام . أمسكت عائشة قلبها بيدها ماذا تسمع؟

فقال لها: لا تؤذيني في عائشة . فإن الوحي لم يأتي وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة . فقالت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله .

هل هي في يقظة أم في حلم . وتتفحص أذنهما . أحق ما تسمعه أم هي واهمة؟

وكيف تشك في ذلك ، وهذا رسول الله ﷺ أمامها ، وهذه أم سلمة تسمع وتجب . هل هناك أعظم من هذه البشارة تتلقاها فتاة الثالثة عشرة .

إن الوحي لم يأتي وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة .

وفي رواية: (. . . فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها) .

هذه عائشة ، الصبية الصغيرة ، الناضجة المتفتحة . لا ينزل الوحي على محمد رسول الله ﷺ إلا عندها ، وفي لحافها . ومن الوحي؟ جبريل؟ . من أين؟ . من عند الله عز وجل ، لو كان غير عائشة لأصابها جنون العظمة بأقل من هذا الخبر بكثير . ولصرعت الدنيا بغرورها وتطاولها على الأخريات من ضرائرها اللاتي يكدن لها . ولكنها عائشة بنت الصديق . تربيته ، وتربية النبي ﷺ . تعلّمت أن لا تقدم بين يدي الله ورسوله شيئاً . واكتفت بدفاع رسول الله ﷺ عنها . وتحدث عنها في مأثرة لن يبلغ شأوها أحد .

وتعود تسائل نفسها: أصحيح وهي في هذه السن لا يأتي الوحي من الله تعالى لرسوله إلا في بيتها وثوبها ولحافها؟ وهل كانت تعرف هذه المأثرة قبل هذه المعركة بينها وبين ضرائرها والتي خرجت منها ظافرة؟

ثم كانت الجولة الثانية ، وقد ضممن إلى صفهن سيدة نساء أهل الجنة

فاطمة بنت محمد. جاءت فاطمة رضي الله عنها باسم حزب أم سلمة، تقول لرسول الله ﷺ إن نساءك ينشدنك العدل في بنت أبي بكر.

وخفق قلبها مرة ثانية خفقاً عنيفاً. وهل يرد رسول الله ﷺ لابنته فاطمة طلباً، وهي تعلم مدى حبه لها. وكان الجواب المقنع الحاسم:

ألا تحبين ما أحب قالت: بلى، فرجعت إليهن وأخبرتهن. فقلن: إرجعي إليه فأبت أن ترجع.

وراحت عائشة ترشف كؤوس السرور. فكل جواب أجمل وأحلى وابهج من الثاني. لقد سأل ابنته فاطمة عن حبها لما يحب. واكتفى. بهذا الجواب.

فهذه عائشة، حب رسول الله ﷺ ليس استتاجاً، بل صراحة من فمه الشريف عليه الصلاة والسلام، وهي الأثيرة عند الله عز وجل، فما ينزل الوحي عليه ﷺ وهو في ثوب امرأة غيرها.

ثم كانت الجولة الثالثة. مع زينب بنت جحش رضي الله عنها، التي جاءت وأغلظت وطالبت سيد الخلق عليه الصلاة والسلام بقولها:

إن نساءك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة (وليس في ابنة أبي بكر) ورفعت صوتها وتناولت عائشة.

ونظرت عائشة في وجه رسول الله ﷺ كأنها تستأذنه في الكلام، ورأت الإذن من عينيه، وأطلقت العنان للسانها الطلق الجريء فسدت المنافذ كلها على زينب حتى أسكتها.

لقد تكررت الصورة السابقة. وعائشة التي تتوقد ذكاء وحيوية تدلي بالحجة إثر الحجة. وترد على منافستها زينب حتى أسكتها.

وانتهت الجولات الثلاث لصالح عائشة رضي الله عنها. ومع هذه الجولات شهادتان من أغلى الشهادات عندها حب الله تعالى لها وهو ينزل

وحيه في بيتها، وحب رسول الله ﷺ لها وهو يرى حب الله تعالى لها. ويدعو ابنته فاطمة إلى أن تحب ما يحب.

جويرية : الضرة المباركة :

السنة السابعة للهجرة تدلف سريعاً، ورسول الله ﷺ يمضي إلى بني المصطلق ومعه عائشة رضي الله عنها إذ خرجت القرعة عليها. (فلما سمع رسول الله ﷺ بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق، وقتل من قتل منهم ونفل رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه)^(١).

ثم تستلم الحديث عائشة رضي الله عنها، تحدثنا عن ضررتها المكروهة، المباركة قالت عائشة :

لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها^(٢)، وكانت امرأة حلوة مألحة^(٣)، ولا يراها أحد إلا أخذت بنفسه. فأنت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها. فوالله ما هو إلا أن رأيته على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها رسول الله ما رأيته. فدخلت عليه فقالت :

يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس - أو لابن عم له - فكاتبته على نفسي، فجئتك استعينك على كتابتي.

(١) تهذيب سيرة ابن هشام لهارون ٢١٠.

(٢) المكاتبه : هو أن يتفق العبد مع سيده على أن يعطيه مبلغاً من المال مقابل حريته.

(٣) مألحة : شديدة الملاحه.

قال: «فهل لك في خير من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي عنك كتابتك وأتزوجك». قالت: نعم يا رسول الله. قال: «قد فعلت».

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرة ابنة الحارث ابن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ. وأرسلوا ما في أيديهم.

قالت: فلقد اعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها^(١).

في كل يوم وافدة جديدة لبيت النبوة وعلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن تستقبل هؤلاء الوافدات. وهذه جويرة رضي الله عنها بنت الحارث ابن ضرار سيد قومه، فجمالها الأسر، وجاذبيتها الفاتنة، لا غرو أن تكرهها عائشة رضي الله عنها. لأن رسول الله ﷺ سوف يرى منها ما رأت. وماذا تفعل مع رسول الله ﷺ؟ إنها لا تملك أن تسأل أو تعترض أو تناقش، بل تملك أن تحب وتكره، تملك أن تفرح وتتألم. وهي التي تنقل لنا ما في نفسها رضي الله عنها وتفضي لنا به. ترى المنظر المغيظ لها، فتحرق في قلبها، وتمضي دون أن تثير أي زوينة. فالشأن شأن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

لكن أروع ما في حديثها هذا الذي تبثه لنا، هو الشاء على من كرهتها لأول لحظة، لجمالها وفتنتها، وهو مستوى عجيب جداً من فتاة متفتحة الأنوثة في هذه السن، أن تفصل عاطفتها وقلبها فلا تنساق وراءهما في التقويم.

إن الذي رفع مقام جويرة رضي الله عنها، وحدثنا عن مآثرها وعن بركتها على قومها عائشة رضي الله عنها.

(١) تهذيب سيرة ابن هشام لهارون، وإسناده صحيح لأنه رواه عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عائشة.

إننا لنرى كبار الرجال، والقادة أحياناً يعجزون عن هذا المستوى الطاهر لعائشة يعجزون أن يثنوا على من يكرهون، أو ينقدوا من يحبون. نراهم يرفعون من يحبونهم فوق الشبهة، ويطرونهم ثناءً وتركيزاً حقاً كان ذلك أم باطلاً. ويحطمون من يكرهونهم ويحرقونهم شتماً وتسفيهاً وازدراء حقاً كان ذلك أم باطلاً. وكثيراً ما نرى الدعوات تنهاوى بأهواء قياداتها الذين يحولون الدعوة مزرعة لمن يحبون، ومثلثة لمن يكرهون.

فهل لهؤلاء أن يتعلموا هذا الدرس من عائشة رضي الله عنها، وهي تثنى على من أبغضتها. تثنى دون إحراج، ودون ضرورة، ولا يمنعها وهي الضرة المحنقة أن تتحدث عن فضل ضررتها فتقول:

فلقد اعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها.

كان بإمكان عائشة رضي الله عنها ابنة الثالثة عشرة أن توقف حديثها عند زواج رسول الله ﷺ بجويرية دون أن تتحدث عن أثر هذا الزواج في المسلمين، وتنقل بركة ضررتها التي اعتقت قومها وأدخلتهم في الإسلام.

وفيما نقلته لنا رضي الله عنها، أوضحت المدى الأبعد الذي حدا برسول الله ﷺ أن يتزوج جويرية، لقد ضم قبيلة إلى الإسلام حين أعتق كل شبابه وكما تقول الرواية الثانية عن أبي قلابة:

«أعتق رسول الله ﷺ جويرية واستنكحها، وجعل صداقها عتق كل مملوك من بني المصطلق.

فرحة لم تتم:

من بين أزواجه جميعاً طارت القرعة لها برفقة رسول الله ﷺ في خروجه إلى بني المصطلق، وكادت تطير فرحاً، ولا تحملها الأرض كأنما هي فراشة تود أن تطير معه وتكاد تخرج من ثيابها من سعادتها. ستكون بعد ساعات في

الهودج وحدها مع رسول الله ﷺ، وسُتمضي كل أيام الغزوة معه دون منازع أو منافس، إنها متعة لم تسعد معه بها أبداً. فلقد دخلت البيت النبوي وفيه سودة بنت زمعة رضي الله عنها تقاسمها أيامها، وهي الآن تمضي وحدها معه، ولنستمع إليها تحدثنا عن هذه الفرحة التي جاءتها القصص فنغصتها أيما تنغيص (كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج سهمي فخرجت معه بعدما نزل الحجاب، وأنا أحمل في هودج وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل فقممت حينئذ، فمشيت حتى جاوزتُ الجيش. فلما قضيت حاجتي أقبلت إلى رحلي، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فالتمسته، وحسني التماسه، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري، وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم، إنما يأكلن العُلقة من الطعام^(١)، فلم يستكروا خفة المحمل حين رفعوه وكنت جارية حديثه السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب، فأمتت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي. فبينما أنا جالسة غلبتني عيني، فنمت.

إن نفسية عائشة رضي الله عنها لتتدفق من خلال كلامها. فهي تمضي لحاجتها تقضيها حين آذن النبي ﷺ بالرحيل، إنها تمنع في الصحراء ليلاً ولعلها الفتاة الوحيدة في الجيش كله، فتقضي حاجتها وتعود دون خوف أو حذر، وفي الوقت الذي أوت فيه إلى هودجها رفعت يدها إلى عنقها، فإذا هي لا تجد عقدها الذي تحبه، وهو جزء منها، لقد سقط من عنقها دون أن تشعر، وهل تمضي مع الجيش مخلقة وراءها هذا العقد الحبيب، أم تقدر أن الجيش لن يتم رحيله قبل أن تتمكن من العثور على العقد، ودفعها جبهها لعقدها أن

(١) العُلقة من الطعام: كل ما يتبلغ به من العيش، وهي من الطعام اليسير منه.

ترجع الاحتمال الثاني، فعادت تمعن في الصحراء ثانية، والهم قد اعتلج في صدرها، ترجو أن تعثر على العقد، وتعود بسرعة للجيش الماضي للرحيل. وطال البحث، وكبر الهم، ولم تتراجع عن أملها في عقدها الذي تحبه، وتعلم أن حبیبها رسول الله ﷺ يحبها فيه. إنه غال عليها، إنه قطعة منها، فكيف تدعه وتمضي وغلب عليها حرصها على العقد حتى عثرت عليه. فعادت على جناح السرعة، وعلى أمل أن تدرك الجيش قبل أن يرحل، ولكنها المفاجأة المذهلة:

فجئت منازلهم وليس بها داعٍ ولا مجيب.

في اللحظة الحرجة، تنكشف النفوس، وفي الساعة العصبية. تبدو المواقف.

لم تصرخ، ولم تلطم وجهها، وهي الوحيدة في الصحراء الآن، ولم تندب حظها، ولم تطلق العنان لسانها يسب ويشتم ويندب الحظ العاثر، كما تفعل كل امرأة تفاجأ بمثل هذا الموقف. الليل رهيب، والصحراء مترامية، وابنة الثالثة عشرة تفاجأ بهذا الموقف فكيف تتصرف؟ وكيف تفكر.

إن ذهنها الوقاد السوي دفعها إلى أن تعذر المسلمين عن الرحيل بدونها، دون ضجة، ودون انهيار أو غضب، هي خفيفة الجسم، جارية حديثة السن، نحيفة. وليست بدعاً في ذلك، فكل النسوة يحصرن على أن يكن مشوقات القد، لعلها فطرة عندهن، يأكلن العُلقة من الطعام، فلذلك لا عجب أن يحملوا الهودج ظانين أنها فيه.

ثم دفعها ذكاؤها إلى أن تحدد المكان الذي كانت فيه رغم ظلام الليل، فالأصل أن تبقى هناك لا أن تتيه في الصحراء.

ثم دفعها ذكاؤها أن تقدر أن القوم عندما يفتقدونها ولا يجدونها سوف يعودون للبحث عنها، وعليها أن تمكث في المكان الذي كانت فيه.

هكذا بكل بساطة، إن المرء لا يكاد يصدق، أن تضبط ابنة الثالثة عشرة عواطفها فلا تنهار، وتضبط أعصابها فلا تتخبط، وتتخذ الموقف الحكيم المناسب دون أن يرهبها الليل، وترهبها الوحدة، ويفزعها عواء الريح في الليل، وإن الرجل الكبير الكبير ليضطرب ويرتعب ويفزع، ويبيكي، لكن الطمأنينة عندها والجرأة عندها بلغت حداً فوق الوصف.

ها هي تغلبها عينها فتنام. إن ثقتها بالله الواحد الأحد الذي يرعاها ويعرف غربتها لا تحد، جعلتها هادئة، قريرة، مطمئنة.

فأين فتاة الثالثة عشرة عندنا اليوم؟ أين بعض اللاتي يخفن من مواء الهرة، ومن انطفاء الكهرباء؟ ومن أزيز الرعد، ومن الخروج عشرة أمتار خارج البيت في الليل البهيم، وأين فتياتنا اللاتي يزاولن بالتحريرو والثورية، ودور المرأة، وحضورها الحروب، وحقوق الرجال، أين هن، من سيدة النساء، الفتاة المتفتحة الأنوثة، المكتملة الشخصية أن يأتين ليرينها في غول الصحراء تنام غافية حين تغلبها عينها، وفي الصحراء، العقرب والحية، والذئب والضبع والعدو المتربص إنها تنام رضي الله عنها وبهذه البساطة. فبينما أنا جالسة غلبتني عيني فنمت.

هي هناك قبل عام تلحق بالجيش، وتبحث عن المسلمين، وتفتحم الخندق، والرجال لا يجروؤن على الخروج من البرد والخوف والجوع، وهي هنا تنام في قلب الصحراء وقلب الليل وقلب الوحدة. لك الله يا ابنة أبي بكر.

المسلم صفوان - يعود بها :

(وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأدلى، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني، فعرفني حين رأيته، كان يراني قبل الحجاب فاسترجع، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفت، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير

استرجاعه، فأناخ راحلته، فوطىء على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلكت من هلك في، وكان الذي تولى كبر الإفك عبدالله بن أبي بن سلول.

* * *

صفوان رضي الله يتخلف عن الجيش لبعض حاجته، ويود أن يلتحق بالجيش، فيدلج، يقوم للسير في نهاية الليل وعماية الصبح، فترة النشاط المناسبة للسير، فيفجأه سواد إنسان نائم، فيقترب منه، فإذا هو عائشة بنت أبي بكر، فيسترجع، يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وفي رواية يقول: أظعينة رسول الله هنا؟

وتنتبه عائشة رضي الله عنها على استرجاعه وصوته، إنها تعرفه قبل أن يفرض الحجاب، فماذا تفعل؟ اترتمي بين يديه خائفة فزعة مذعورة. ترجوه أن ينقذها؟ إن أول شيء يشغل بالها، أمر ربها لها بالحجاب، ولا هودج هنا تركب فيه، وهي أم المؤمنين وقد وقر في أذنيها قول ربها جل وعلا:

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.

هذه هي القضية الأولى عندها، قبل الخوف والفزع، والرغبة، قبل كل شيء. ووجهها يحرم رؤيته على صفوان «فخمرت وجهي بجلبابي».

إنها لم تعدم الوسيلة المناسبة التي تحافظ فيها على أمر ربها بالحجاب وهي في الصحراء. وكان المسلم الفذ، العفيف الطاهر، وكانت المسلمة الفذة العفيفة الطاهرة.

فوالله ما تكلم كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه.

عرف واجبه مع زوج رسول الله ﷺ، فأناخ راحلته، ووطىء على يديها. ولا داعي لأن يدعوها للركوب - فهي تعرف ما عليها. وقامت فركبت الراحلة، ومضى الركب الصامت إلى المدينة، فوصل في قلب الظهيرة.

لكن عيون ابن أبي الحاقد، وجواسيسه المنبئين في كل مكان، اهتبلوها فرصة مناسبة للشار، ألم يفصح في هذه الغزوة، ووقف ابنه عبدالله على مشارف المدينة، ووضع السيف على عنق أبيه زعيم المنافقين، وقال له :

والله لن تدخل حتى تشهد أنك أنت الذليل وأن محمداً هو العزيز.

وكان هذا أمام المسلمين جميعاً، وحانت فرصة الانتقام، فراح يروي ما رآه، وما رأت عيونه عائشة وصفوان بن المعطل جاءا وحيدين في الصحراء متخلفين عن الجيش. ألم يتخلفا لريبة؟ ألم يتخلفا عن موعد؟

وراح وعيونه يتلمظون كالأفعى ينفثون السم الزعاف في كل مكان، لعلهم يقتلون هذا النبي بهذا السم. إذا كانت زوجه قد ارتكبت الفاحشة.

لكننا مع عائشة رضي الله عنها، خطوة فخطوة. ولن نستبق الحدث.

الفتور . . والخبر الصاعق :

(فقدما المدينة، فاشتكت شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفاك ولا أشعر بشيء من ذلك، ويريني في وجعي أنني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليّ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم؟» ثم ينصرف فذلك الذي يريني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نهت، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع، وهو متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول من التبرز قبل الغائط. وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم بن عبد مناف وأمها ابنة صخر ابن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثانة بن المطلب. فأقبلت أنا وهي قبل بيتي، قد فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها (ثوبها). فقالت: تعس مسطح فقلت لها: بشس ما قلت: أتسبين رجلاً شهد بدرًا؟

قالت: أي هنتاه^(١)، أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وما ذاك؟ فاخبرني الخبر فازددت مرضاً على مرضي. فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله ﷺ فسلم ثم قال: كيف تيكم؟ فقلت: أئذأن لي أن آتي أبوي؟ وأنا حينئذ أريد أن استيقن الخبر من قبلهما. فأذن لي..

* * *

عائشة رضي الله عنها تشتكي من المرض. والدنيا حولها قائمة قاعدة والناس يفيضون في قول أهل الإفاك وهي لا تشعر بشيء. وذلك من رحمة الله تعالى بزوجة نبيه الطهور العفيفة. إنما الشيء الذي أقلقها هو أنها لا ترى من رسول الله ﷺ اللطف الذي تعرفه منه عند مرضها، ولا شك أن هناك حدثاً ما لا تدري كنهه. خفف من هذا اللطف معها، وتراجع رصيدها، فهي لم تقترف ذنباً، ولم تسيء بكلمة هذا الذي تذكره. لكن لا تدري، فمقام رسول الله ﷺ أعظم بكثير من أن تتمكن من تأدية واجبه. وبلغ بها الأدب مبلغاً عجباً أن تستحي من عتاب حبيبها عليه الصلاة والسلام بكلمة، وتسأله عن فتوره نحوها وهي مريضة. وليس الأمر يوماً أو يومين، لقد مر قرابة شهر عليها. وهي ترى المعاملة نفسها لا تتغير، لا شك أن شيئاً آذاه منها، لكنها لا تدري هذا الشيء. إنها تحس بالبسمة واللفتة والنظرة والهمسة، وبمقياسها الدقيق الذي تعرفه. فقد فقدت بعضاً من اللطف والاهتمام والتأثر الذي تعرفه حين تشتكي، هي في أدبها الجم تستحي أن تذكر شيئاً. وهو عليه الصلاة والسلام، لا يريد أن يجرح مشاعرها فيفاتحها بشيء.

ويا رجال الأرض، تعالوا، تعلموا الأدب من بيت النبوة.

إن اللفظ في المدينة وصل إلى حد شارك فيه المؤمنون لا المنافقون

(١) قال ابن الأثير: أي: يا هذه - قال الجوهري: هذه اللفظة تختص بالنداء وقيل: معنى يا هنتاه: أي يا بلهاء كأنها نسبتها إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم.

وحدهم. وهو الزوج الكريم، ويرعى مشاعر زوجه الحبيبة شهراً كاملاً، فلا يسألها عتاباً أو استفساراً أو إشارة.

ولو كان هذا اللفظ في مجتمعنا اليوم، لعاد الرجل بحميته العصبية. فيفرغ الرصاصات من مسدسه في رأس زوجته تأثراً أهوج بما يسمع، وإن كان أقل حمية، فيطلق ثلاثاً حين يسمع بأن زوجته قدمت مع رجل آخر دون علمه، والعاقل العاقل الذي يتمالك نفسه ساعات أو أياماً فيسأل ويناقش ويتحرى، وحين يتأكد من الخبر فلن يبق زوجه عنده.

أين نحن من أدب النبوة، فعائشة تشتكي، ورسول الله ﷺ يحمل أثقال الجبال من الهم، ولا يطارحها بشيء، إنما أقصي ما وقع أن أخفى هذا الهم عن زوجه المريضة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ومن ثقل هذا الهم، خف بعض اللطف الذي كانت تعرفه من حبيبها عليه الصلاة والسلام.

ويصل الخبر للحصان الرزان عائشة رضي الله عنها، لكنها لم تكذب تصدق عقلها بما يحدث، ومع ذلك تضبط أعصابها فلا تثور في وجه رسول الله ﷺ، لأنه متأثر بالإشاعات الدائرة، واكتفت بأن تستأذن رسول الله ﷺ في زيارة أبويها. ولا غرابة أن تفقد غيرها وعيها وصوابها لهذا الخبر الصاعق، وتمضي كالعاصفة المدمرة تنال من كل من تجده أمامها وإن المرء ليعجب أشد العجب من العاطفة المتأججة المكظومة والإرادة القوية الحاسمة. التي تجعلها تكتفي بالاستئذان فقط لزيارة أبويها.

اللحظات العصبية:

(فجئت أبوي، فقلت: يا أمّاه، ما يتحدث الناس؟. قالت:

يا بُنَيّة! هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن عليها، فقلت: سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟! فبكيت الليلة حتى لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي.

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، حين استلبت الوحي يستأمرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال:

يا رسول الله، أهلك، ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي فقال: لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، واسأل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: أي بريرة، هل رأيت من شيء يريك؟ قالت: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً أغمضه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله.

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبدالله بن أبي بن سلول فقال وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني^(١) من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي».

فقام سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله، أنا أعذرک منه، إن كان من الأوس، ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرک. فقام سعد بن عباد - وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد: كذبت لعمر الله: لا تقتله، ولا نقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير - وهو ابن عم سعد بن معاذ - فقال: كذبت! لعمر الله لنقتله، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتناور الحيان^(٢) الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: فبكيت يومي ذلك وليتي، لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم،

(١) من يعذرني: أي من يقوم بعذري إن جازيته على قبيح فعاله، وقيل: من ينصرنى، والعذير: الناصر.

(٢) تناور الحيان: أي تواتبا وتناهضا للنزاع والعصبية.

فأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم، ولا يرفأ لي دمع. حتى ظننت أن البكاء فائق كبدي، فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، استأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينما نحن على ذلك، دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، ولقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت فتشهد، ثم قال:

«أما بعد، يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله، وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه». فلما قضى مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة.

فقلت لأبي: أجب رسول الله فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت لأمي: أجيبي رسول الله، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. فقلت وأنا يومئذ حديثه السن لا أقرأ كثيراً من القرآن:

إني والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم! إني بريئة - والله يعلم أنني بريئة - لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله لا يعلم أنني بريئة - لتصدقني، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف: ﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾. ثم تحولت فاضطجعت على فراشي.

* * *

ما تكاد عائشة رضي الله عنها تتأكد من أبويها بما يتحدث به الناس حتى شهقت بالبكاء الذي يكاد يعتمر أحشاءها اعتصاراً. فهل وصل الأمر إلى هذا الحد، أن ينهش الناس عرضها وهي لا تدري، وماذا تملك أمها لها؟ لقد أعدت الأمر كله مؤامرة من ضرائرها حتى يفسدن حياتها مع زوجها، ويثأرن من حبه لها، إنه حسد الضرائر:

هوني عليك، فوالله لقلماً كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرون عليها. إنها أعظم صدقة تتلقاها في حياتها وهي في هذه السن المبكرة، لا تقوى على المحن والمصائب. والدنيا مقبلة عليها، كالعصفورة بين يدي رسول الله ﷺ. وها هي حياتها تنقلب إلى مآثم. والألم يفتت كبدها، فلا يروي غليلها إلا البكاء، ولا يطفىء حرقة قلبها المتأجج بالنار إلا البكاء. وإلى من تلجأ، إلى أبويها، ها هما ينظران إليها، فلا يملكان لها حولاً ولا طولاً. ولعل الهم الذي أصابهما، وهما يعانيان منه أكبر مما أصابها، وهل أعظم بلاء ومحنة وهولاً من أن يتحدث الناس في عرض ابنتهما؟ وكما قالت عائشة في رواية أخرى:

(والله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام!)

ولكن الفتاة الطهور المحصنة، ترى في البهتان عليها ما يفقدها عقلها.

وإن المرء ليعجز مهما كتب عن تصوير هذه المشاعر والأحاسيس أمام هذا الخبر الرهيب، أن ترى الفتاة نفسها عزلاء من المعين والنصير. ولا تملك أن تواجه شيئاً أو تصد مفترياً، أو تحطم معتدياً عليها بهذا الكلام القبيح. ولا يكاد العقل يصدق عظمة هذه الحصافة والتمالك أمام هذا الهول.

لقد شهدت يوماً فتاة سافرة وليست محجبة. وقد اتهمها شاب بأنها قبلها شاباً آخر. فإذا هي تهذي كالمجنونة، تسب وتهدد وتتوعد، وتود أن ترمي نفسها من شاطئ من الشاطئ السادس أمام هذا الاتهام الظالم، وتود أن تحضر السكين فتقطع من يطعن في عرضها. وليس غريباً على أمثالها مثل هذا التصرف. فالفتيات السافرات من زميلاتهن يفعلن ذلك وأكثر، ولم تتمكن من ضبطها عن التصرفات الحمقاء المذكورة حتى جاء ذلك الشاب، واعتذر لها بأنه كان مازحاً فيما قاله ولن يعود.

فكيف بنا ونحن أمام أم المؤمنين عائشة التي لا ترى إلا من وراء

حجاب، والتي كان أول ما عملته أن تلفت بجلبابها تغطي وجهها عن صفوان رضي الله عنه، والتي لم تنطق بكلمة واحدة طيلة طريقها حتى دخلت بيتها، ولم ينطق صفوان طيلة الطريق بكلمة واحدة.

ولكن ماذا تجدي هذه المعلومات عندها، أتقوم لتبثها لأُمها وأبيها. وهل يشكان فيها معاذ الله؟ ما الذي يوصلها إلى بيوتات الناس، الذين يلغون في عرضها، ويثلمون من شرفها؟! تتداعى الأفكار، وتتداعى الدموع، وتنهمر انهماراً. ماذا تفعل. كيف يجد النوم إلى عينيها سبيلاً. وقد انتهت حياتها بعد هذه الفرية. ماذا يتحدث عنها ضرائرها؟ الحاسدون والحاسدات الذين أكل قلوبهم الغيظ من حب رسول الله ﷺ لها، هل تحطمت تلك الأحلام؟. ويكاد قلبها ينفطر من الألم. ولها لسان تستطيع أن تدافع به عن نفسها، وتصد كل فرية، لكن من يصدق؟ ويأتي الجواب دموعاً تنهمر، وقلقاً يسيطر. فلا تكتحل بنوم، ولا تجد للحياة كلها طعماً بعد هذا البلاء. ومع هذا، فما الموقف؟ إنها اكتفت بالبكاء فقط.

ومن رحمة الله تعالى بهذه الفتاة أن الخبر لم يصلها إلا بعد قرابة شهر، وإلا لدوت كما ذوى العود النضير، ويست كما يبس الغصن الرطيب.

وها هي تسمع ضجة، فقد حضر رسول الله ﷺ وهي تدرك الأصوات فها هو صوت أسامة بن زيد رضي الله عنه، وهذا صوت علي بن أبي طالب، وتقف لحظة مصغية من وراء حجاب لما يجيب أسامة وعلي. وفي الوقت الذي يهدأ روعها فيه لجواب أسامة رضي الله عنه. يعتدل الألم في صدرها لجواب علي رضي الله عنه، وتستمع جواب بريرة. الذي يبرىء ساحتها من كل سوء وكل ما يؤخذ عليها أنها تنام عن عجبها فتأتي الشاة فتأكله.

وهو جانب من شخصيتها. فهي في بيتها، تدع أموره لبريرة، وحتى حراسة العجين قد تغفل عنها، وهذا التصرف متناسب مع هذه السن، سن الثالثة عشرة، أن تقع بعض الهنات في أمور البيت أو التقصير فيه، لكن

التصرف المذهل الذي يعجز كبار الرجال وعظيمات النساء عنه هو هذا الضبط لهذه الانفعالات الهائجة، والعواطف الجائشة. تكتفي أمام أخطر حدث في حياتها بأن تنزوي إلى نفسها وتأوي إلى غرفتها، وتستسلم للبكاء تحمله كل ما تعاني من آلام مريرة.

ويمر النهار ثقيلاً بطيئاً كأنما شد بحبال غلاظ لتستقبل الليلة الثانية بالبكاء نفسه وتعجز عن أن تغمض عينيها. فإعصار الألم يكاد يقتلعها من جذورها، وأملها الوحيد برب السماوات والأرض أن ينقذها من هذا البلاء، ويذهب عنها هذه الفرية.

كانت أمها لا تغادرها لحظة واحدة، تبكي لبكائها، وتقطع لألمها، وأبو بكر رضي الله عنه مع صبيحة اليوم الثاني يأمل أن يخف البلاء على صغيرته، عروس رسول الله ﷺ، وينظر إليها كالنبته الداوية من الحزن، وتأتي امرأة من الأنصار تستأذن لتدخل عليها، وتشاركها في البكاء.

وتنأى إلى سمعها أن المدينة كلها تضج بالحديث عنها حين وقف رسول الله ﷺ يعلن ألمه لهذه الأحاديث الباطلة، وكيف أن الأوس والخزرج كادا يقتتلان بين مثبت وناف، بين مدافع عن أصحاب الفرية من الخزرج، وبين مهدد بقتلهم من الأوس.

وتعلم الهم الضخم الذي يعاني منه نبي الله عليه الصلاة والسلام، ماذا يفعل مع الناس أكثر مما فعل. وبينما هي في هذه الهواجس يقدم رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ويرى أن الخبر قد وصل إلى عائشة زوجه الحبيبة. وأن حرصه على أن لا يصل إليها الخبر خلال شهر لم يمنع من تسرُّبه بعد ذلك، وهو عبد الله ورسوله، ينتظر توجيهاً من الله تعالى بهذا الأمر. وعندما علم أن الخبر قد وصلها، جلس بجوارها قائلاً والألم يلف كيانه الشريف:

«أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة -

فسيرئك الله وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله، وتوبى إليه. فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه».

وجمد الدم في عروق عائشة، وقلص دمعها فما تمس منه قطرة، وانتظرت جواباً شافياً من أبيها وأمها، وانطلقت تجيب كاللبوة الجريحة.

إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أنني بريئة - لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر-والله يعلم إني بريئة - لتصدقوني، والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف:

﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾.

إنها تعلم أنها تخاطب سيد الخلق، لكن الجرح الغائر في نفسها، جعلها تمضي في الحديث والقول وكأنها تجابه الدنيا مجتمعة عليها. وفيها أبوها وأمها وزوجها الحبيب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ومعها رب السموات والأرض.

﴿والله المستعان على ما تصفون﴾.

وكما تحدث عن نفسها أنها جارية حديثة السن، قليلة الحفظ للقرآن فقد هيا الله تعالى ذهنها الوقاد لحفظ حديث رسول الله ﷺ. وكل ما يتعلق في شؤونه الداخلية والخارجية ومن أجل هذا كانت معه حتى في الحرب وفي السلم وفي النوم وفي الأكل وفي الراحة، وفي الخلوة لا تدع صغيرة ولا كبيرة من بيته الشريف إلا وتحفظها، وتحفر في قلبها حفراً، وهي الآن ترى نفسها أقوى امرأة في هذا الوجود وهي تخاطب سيد ولد آدم غير هيابة ولا وجلّة.

﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾.

تقول عن نفسها في رواية أخرى، (والتمست اسم يعقوب فلم أجده،

فقلت: أبو يوسف، ثم انتهت من كلامها وارتمت على فراشها، وقلبها يدق بعنف بعد هذا الموقف العنيف.

وتنزل البراءة من السماء؛

(فاضطجعت على فراشي، وأنا أعلم أنني بريئة، وأن الله تعالى يبرئني ببراءتي ولكن والله ما ظننت أن الله ينزل في شأني حياً يتلى، ولشأني كان في نفسي أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

قالت: فوالله ما قام رسول الله ﷺ. ولا خرج أحد من أهل البيت حتى نزل عليه الوحي؛ فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق، وهو في يوم شات، من ثقل القول الذي ينزل عليه، فلما سُري عنه وهو يضحك، كانت أول كلمة تكلم بها:

«يا عائشة أما والله لقد برأك الله» فقلت أمي: قومي إليه. فقلت:

والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، وأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكَ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ النور ١١ العشر آيات كلها.

فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح لقربته وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة: فأُنزلت: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تَجِبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ النور: ٢٢. قال: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري. فقلت: أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً، وهي التي كانت تساميني من

أزواج النبي ﷺ. فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها
فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك.

* * *

إنها على ثقة أن الله تعالى سيرثها، ولكن أن ينزل في هذه الجارية
الحديث السن قرآنًا يتلى، هي أحقر في نفسها من ذلك، إن الغرور لا يعرف
إليها سبيلًا. رغم كل الحظوة عند نبي الله ﷺ، ورغم أنها زوج سيد ولد آدم،
لكن أن يحتفل الله تعالى بها إلى درجة أن ينزل بها قرآنًا يتلى في كل مكان
في الأرض، وفي كل جيل، وفي كل عصر كانت أهون في نفسها بكثير من
ذلك، لقد نزل بها القرآن وبأختها حفصة عندما وقعتا في خطأ فادح، أيعود
القرآن الكريم بعدها لينزل براءتها من السماء؟ هذا ما لم تحلم به إن منتهى
أحلامها أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يعرف منها براءة عائشة رضي الله عنها،
وفي تصورهما أن الأمر لا يحتمل أكثر من ذلك.

ونزل الوحي على رسول الله ﷺ.

ولا شك أن أصعب اللحظات أثناء الوحي كانت على أبي بكر وأم
رومان والدي عائشة رضي الله عنهم فهي تصف وضعها قائلة:

(فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فزعت ولا باليت، قد
عرفت أنني بريئة، وأن الله عز وجل غير ظالمي).

أما وضع أبويها فقالت عنه:

(وأما أبوي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرّني عن رسول الله ﷺ حتى
ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما قاله الناس).

إنها لحظات قبل الوحي كان يمكن أن تبقى حادثة عادية عابرة تقتضي
توبة وندماً من فتاة في سن الثالثة عشرة من عمرها أو نفيًا للشائعة، لكنها تبقى
حدثاً خاصاً. فإذا هي تنقلب بعد الوحي حدثاً عالمياً تتلوه القرون تلو القرون

والأجيال عقب الأجيال لتصبح براءة عائشة جزءاً من عقيدة كل مسلم في هذا الوجود حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ويتلوها المؤمنون في الأرض، ويتعبدون الله تعالى بالآيات التي نصت على براءتها، والتي نزلت كالحمم على رؤوس الوشاة والمتحدثين بهذه الفرية، من المؤمنين كانوا أم من المنافقين. وتتصر السماء للفتاة العزلاء العفيفة الطاهرة. وترمي الحديث بالإفك في انصع بيان، وأعنف هجوم على الخائضين فيه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإَفْكَ عَصَبَةٌ مِنْكُمْ، لَا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين، لولا جأؤوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون، ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم، إذ تلقونه بألستكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم، ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم، إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون، ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم، يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾^(١).

وزكى الله تعالى عائشة العفيفة المحصنة، وفي كل مكان تتكرر فيه تزكيتها في هذه الآيات ينصب الحديث معها على المجتمع المسلم كله وموقفه من هذه القضية.

وأن التوبة يجب أن تكون من الذين ولغوا في حديث الإفك، وليس من عائشة رضي الله عنها.

وقبل أن تسمع عائشة رضي الله عنها نص الآيات، وعندما شهدت ضحك رسول الله ﷺ وبشارته لها: أما والله لقد برك الله وفي نص آخر: «أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك».

وفي الوقت الذي سيطر فيه على أبوي عائشة شعور الفرح الغامر وقالا لها: قومي إليه.

فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله.

أقول قبل أن تسمع عائشة الآيات رضي الله عنها. وسمعت أن الوحي نزل ببراءتها. وقفت موقف العابدة المتبتلة من ربها الذي رعى جناحها الكسير، واكتفت بحمد الله وحده وأنها قبل لحظات فقط. كانت محل شك من الخلق، ولم يكن معها في يقين براءتها إلا رب الخلق. فلا تحمده إلا هو الذي أنزل براءتها من عنده.

لقد تركت الآيات كل هوامش الحادثة. وكل ظروفها، ولم ينزل ولو تقرير بسيط لعائشة رضي الله عنها على اهتمامها بعقدها، وتركها هودجها، والتماسها لذلك العقد وقت رحيل الناس، فذلك أمر ثانوي لا يدخل في عقيدة المسلم وسلوكه. بل هو لم بسيط يتناقش رسول الله ﷺ فيه مع عائشة فيما بينهما، إنما القضية الأخطر والأعظم هي براءتها رضي الله عنها من هذه الفرية، وتسمية حديث الناس بالإفك المبين والبهتان العظيم، ودعوتهم إلى التوبة والإنابة حتى من خلجات نفوسهم، وخطرات قلوبهم في حق عائشة الحصان الرزان، بينما دعي الموغلون في الحديث إلى الحد لأنهم لم يأتوا بأربعة شهداء.

(ثم خرج إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثانة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش،

وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم .

ومن هؤلاء الثلاثة؟! إنهم أعلام في المجتمع الإسلامي في المدينة
مسطح بن أثانة : من المهاجرين الأوائل ، وممن شهد بدرًا .

ولقد رأينا عائشة رضي الله عنها تهاجم خالتها أم مسطح عندما قالت عن
ولدها : تعس مسطح . قالت لها :

بئس ما قلت : أتسيبن رجلاً شهد بدرًا؟!!

وحسان بن ثابت : الشاعر الأول لرسول الله ﷺ وهو الذي قال له عليه
الصلاة والسلام :

«أهجهم (أي قريشاً) وروح القدس معك» .

وحمنة بنت جحش : ابنة عمة النبي ﷺ ، وزوج شهيد الإسلام مصعب
ابن عمير .

وهذا كله لم يمنع من حدّهم أمام المسلمين جميعاً لما خاضوا فيه من
الحديث .

عائشة التقيّة : والذين ولغوا في عرضها :

ويلذ لعائشة رضي الله عنها أن تحدثنا عن هؤلاء الخصوم الذين خاضوا
في حديثها . وعمّن وقف معها وضدها ، ونستطيع من خلال هذه الأحاديث أن
نفقه عائشة رضي الله عنها أعمق وأعمق .

فلقد أنهت أولاً كل فرية على أي مسلم حين فسّرت هي نفسها الذي
تولى كبر الحديث ، فقالت :

(وكان الذي تولى كبر الإفك عبدالله بن أبي بن سلول) .

وحدثتنا ثانياً عن ابن خالتها مسطح بن أثانة .

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

فمسطح مقيم في بيت أبي بكر رضي الله عنه ينفق عليه، وسمح لنفسه أن يخوض في هذا الحديث الأفك وهو ابن خالة عائشة، ويكفيها أن تنقل عائشة لنا قصته كاملة :

(فلما أنزل الله براءتي، قال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره: والله لا أنفق على مسطح أبداً شيئاً بعد الذي قال لعائشة. فأنزلت: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ قال: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي.

فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً).

إن هذا السمو عند عائشة رضي الله عنها، ومن خلال التربية القرآنية أنها هي التي تحدثنا عن سبب نزول الآية، وفي مسطح رضي الله عنه، وأن آثار الحديث يجب أن تمحى وتذوب في هذا المجتمع المثالي، القرآني، وأن العفو والصفح يجب أن يسود بعد أن نفذ حد الله تعالى. لا أن تبقى الأحقاد مأروثة، والضغائن مسيطرة، فتفكك أوصال المجتمع، وتقطع وشائجه.

وهي إشارة من ناحية ثانية، إلى نفس عائشة رضي الله عنها العالية، المترفعة، العظيمة التي تعرف أن العفو والصفح من شيمتها، وفي أعماقها، وأنه لا مكان للحقد بعد الحد، والله تعالى دعاها ودعا أبائها لذلك.

﴿وليعفو وليصفحوا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾.

وبهذه اللمسة القرآنية الخالدة، ينتقل الموقف من: (والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة).

إلى: (بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي - فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه - وقال: والله لا أنزعها منه أبداً).

وبالنسبة لضرائرها فتتجه الأصابع إلى زينب رضي الله عنها، فهي الضرة القوية وهي التي تنافسها عند رسول الله ﷺ، وهي التي خاضت معها المعارك الراحبة والخاسرة.

والمنطق البشري العرفي يقتضي أن تكون زينب التي ابتدأت عائشة بالهجوم مرتين أن تكون هي التي تشعل نار الحديث، وتحمل حطب وقوده، وهي فرصة سيقت إليها تشفي غلها وغيرتها المتأججة من ابنة أبي بكر، وتود أن تسقطها من حسابها عند رسول الله ﷺ، حتى أن أم رومان رضي الله عنها - وهي أم عائشة - صورت القضية كلها حسد ضرائر.

وقديماً كان في الناس الحسد.

(يا بنية! هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن عليها...)

وهذه حمنة بنت جحش رضي الله عنها تدخل إلى بيت وتخرج من بيت بهذا الحديث. ولا تستطيع امرأة في هذا الوجود أن تفصل حمنة عن زينب أو تقول إن هذا الأمر - مهما سمت المرأة - خارج عن تخطيط زينب وتوجيهها رضي الله عنها، أقول حتى في عالم الرجال يصعب جداً الفصل بين الأختين في هذا الموقف، أما عالم النساء، فقد يضيف الروايات، ويخترع الأقاصيص. وينسبها إلى زينب التي حانت الفرصة لها للشار، وحركت أختها من مكان لمكان في هذا الحديث.

أليس أعجب ما روى التاريخ أن يكون الذي استطاع الفصل بين الأختين، والذي برأ زينب رضي الله عنها، الضرة الكبرى المنافسة - هي عائشة الصديقة رضي الله عنها!!؟

وهل بعد هذه العظمة من عظمة؟! وهل بعد هذا السمو من سمو؟! وهي ابنة الثالثة عشرة! تقول رضي الله عنها:

(وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري . فقالت :
أحمي سمعي وبصري ، ما علمت إلا خيراً ، وهي التي كانت تساميني من
أزواج النبي ﷺ ، فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها ،
فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك) .

وما الذي يجبر عائشة رضي الله عنها على ذكر هذه الفقرة في حديثها ،
وتثني على أكبر منافساتها وتتحدث عن ورعها ، وعصمة لسانها وبصرها ، ! غير
التقوى الحية في قلب هذه الصبية الفتية؟!

وهل هي بحاجة إلى شهادة زينب ببراءتها . وقد برأها الله تعالى من فوق
سبع سموات .
يا نساء الدنيا!

تعالين واشهدن ابنة الثالثة عشرة ، كيف ترتفع فوق الهوى والألم
والحقد . لتنقل لنا عبر العصور والدهور ورع المنافسة الكبرى لها زينب . وما
علمنا هذه المركمة الخالدة لزينب رضي الله عنها إلا من خلالها .
وماذا عن حسان بن ثابت رضي الله عنه؟

عن مسروق قال : (دخل حسان بن ثابت على عائشة يشبُّ بأبيات له
فيها فقال :

حصان رزان ما تزن^(١) بريئة وتصبح غرثي من لحوم الغوافل^(٢)
قالت : لست كذاك . فقلتُ : تدعين مثل هذا يدخل عليك ، وقد أنزل
الله تعالى : ﴿والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ قالت : وأي عذاب
أشد من العمى ، ثم قالت : كان يرد عن النبي ﷺ^(٣) .

(١) تُزن : ترمي ، وقوله : غرثي ، أي خميصة البطن ، يريد أنها لا تغتاب أحداً ،

(٢) والغوافل : جمع غافلة وهي العفيفة الغافلة عن الشر .

(٣) الرواية أخرجه البخاري وفي رواية أخرى له عن أبي حذيفة : هو ممن تولى كبره
والصحيح عن الزهري والمروني عن عائشة رضي الله عنها أن عبدالله بن أبي هو الذي
تولى كبره .

فهي لا تنسى رضي الله عنها أنه كان يذب عن رسول الله ﷺ، ويدافع عنه وتنسى موقفه الأول منها، وتدعه يدخل عليها وينشدها الشعر.

* * *

وهي التي تنقل لنا موقف أسامة وعلي رضي الله عنهما حين استشارهما رسول الله ﷺ في فراق أهله، ولا تنسى أدق التفاصيل، ففي الوقت الذي تروي عن علي رضي الله عنه قوله: (لم يُضَيِّقْ الله تعالى عليك، والنساء غيرها كثير). لم تنس أن تذكر قوله:

واسأل الجارية تصدقك.

إذ يدعو رضي الله عنه إلى التحقق والتثبت قبل الإقدام على أي خطوة.

وهي التي تنقل لنا موقف الأوس والخزرج اللذين كادا يقتتلان في شأنها. وتتحدث عن الموقف العنيف ضدها من سعد بن عبادة رضي الله عنه:

(كذبت لعمر الله ! لا تقتله، ولا تقدر على قتله).

لا تنسى أن تذكر لنا تقويمه عند المسلمين، (وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً).

ولا تنسى أن تذكر لنا عذره بهذا الموقف: (ولكن احتملته الحمية ..).

وحتى موقف الجارية تنقله لنا بأمانة لها أو عليها، فلا تكتفي بقول الجارية: (لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن).

ولا تنسى أن تذكر حدود الحداثة التي تصل إلى أنها:

(تنام عن عجين أهلها فيأتي الداجن فيأكله).

* * *

وهكذا تودع عائشة رضي الله عنها عامها الثالث عشر، الذي لقيت فيه أعظم محنة فصبرت واحتسبت، ولقيت فيه أعظم منحة، فحمدت وشكرت، فما أخرجتها المحنة عن أدب المسلم وسموه، وما أخرجتها المنحة إلى البطر والكبر والغرور، وغدت براءتها جزءاً لا يتجزأ من عقيدة كل مسلم في هذا الوجود، وقرآنًا يتلى على مر العصور والدهور يتعبد به، ويتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى^(١):

٨ - ابنة الرابعة عشرة

مضت القرعة في الحديبية لأختها أم سلمة، حيث رافقت رسول الله ﷺ في سفره هذا، وتناهت إلى سمعها الأخبار عن وافد جديد إلى بيت النبوة، وليست امرأة عادية إنها بنت أبي سفيان أم حبيبة رضي الله عنها.

إنها من بنات عم رسول الله ﷺ - فهي أقرب إليه نسباً منها. وليس من نسائه من هو أكثر صداقاً منها، فقد دفع النجاشي مهرها عن رسول الله ﷺ أربعة آلاف درهم، وقد خطبها عليه الصلاة والسلام سنة ست مع عمرو بن أمية الضمري عندما مضى إلى النجاشي، لاعادة المسلمين هناك، وسألت عن سنّها فخفف من غيرتها أنها في السن بضع وثلاثون سنة.

سمعت بوصول خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وعلمت أنه جاء بأم حبيبة.

(١) أخرج حديث الإفك بطوله البخاري في الشهادات وفي المغازي وتفسير سورة النور مختصراً وأخرجه أحمد ومسلم والترمذي، وعبد الرزاق في المصنف، وفي السيرة لابن هشام والبداية لابن كثير وفي تفسيره كذلك.

ووقع في هذه الروايات إشكالان من بعض الرواة، الأول أن الجارية بريرة، والثابت أنها ليست كذلك، وقد رد المحدثون والعلماء هذا الاشكال. وكون سعد بن معاذ هو الذي رد على سعد بن عباد. وسعد قد توفي بعد الخندق رضي الله عنه - كما روت عائشة - والحديث هو لأميد بن حضير ابن عم سعد بن معاذ.

إن الأمر لا يضيرها إلا بأنها تفقد يوماً جديداً لا ترى فيه حبيبها عليه الصلاة والسلام. وهي لا تدري بعد ذلك كيف قلب حبيبها عليها بعد نزول براءتها من السماء. هل زال ما به من ألم؟ أم لا يزال يعتب عليها لما تصرفت به؟ أم ضعف حبه لها عما كان عليه من قبل. لقد عاد لطف رسول الله ﷺ بها كما كان وزيادة، ولكنها لا تدري، هل ثلم هذا الحب أو وهن؟

كلها تساؤلات تحفر في أعماقها، وتبحث عن دليل يهديها لما تريد، فلا تجد.

إنه لا يضيرها كثرة الضرائر والوافدات، إذا بقي لها القدح المعلى بينهن. ولقد سمعت من حبيبها عليه الصلاة والسلام أنه يرتع بعيره في الشجرة التي لم يؤكل منها، وليس بينهن بكرة غيرها.

غير أنه الذي حرك غيرتها على أشد ما تكون، الأخبار التي وردت مع فتح خيبر عن زواج رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي سيد اليهود، ترى هذا عنصر غريب كل الغرابة عليها؟! ما هو جمالها؟ وما سنها؟ هل يمكن أن تستأثر بقلب حبيبها عليه الصلاة والسلام؟ فهذه القضية أكبر همها، وعلمت أن رسول الله ﷺ وصل المدينة، ومعه صفية.

لم تستطع أن تجلس، وقلبها يفور كالقدر لتعرف هذه الوافدة الغريبة، وتتناهى الأخبار إليها أنها جميلة وصغيرة، ترى هل هذه هي الضرة الحقيقية؟! ها هي تلبس خمارها وجللبابها وتتلثم، حتى لا يعرفها أحد، وتمضي لتعرف هذه الضرة الجديدة.

إنها فطرة المرأة: حب التعرف على كل عروس، إن النساء يتداعين ليرين العروس الجديدة، كما هي الحال في كل جيل وفي جيلنا اليوم، ولا سيما أنها عروس غريبة ليست من مكة، وليست من المدينة.

وراحت النساء تزاحمن ليرين صفية، وانسلت عائشة الصديقة بينهن، وتناولت لثراها، ورسول الله ﷺ سيد الخلق يرى إقبال النساء فيصرف النظر

عنهن، يتركنهن لسجيتهن، يتحدثن ويعلقن ويصغن، وحانت منه التفاتة. فهذه المثلثة عائشة، إنها زوجها الحبيب، كانت تسترق النظر بين صفية وبين رسول الله ﷺ، وقلبها يخفق، إنها جميلة حقاً إنها في ريعان صباها، وتود أن تمضي لتخلو إلى نفسها، ويستقر قلبها، وتود لو تكشف حجب الغيب فترى قلب حبيبها عليه الصلاة والسلام، ثم همت بالمغادرة وراعاها أن يبدأ تشد ثوبها، فالتفت بعنف، أي امرأة هذه تريد أن تسألها عن رأيها؟ هل قدم بعض ضرائرها يشاركنها الهم؟ وكادت تصعق، إنها يد رسول الله ﷺ، وهي تلتهب من الغيرة.

يقول لها عليه الصلاة والسلام: يا شقراء كيف رأيت؟

قالت وهي تتأكل من الألم والغيط والغيرة: رأيت يهودية بين يهوديات.

وأدرك عليه الصلاة والسلام مدى ما تعانیه من انفعال، رغم أنه ناداهما بتحبب وود - يا شقراء، فقال لها:
لا تقولي هذا، فقد أسلمت.

* * *

وأخذت صفية وأم حبيبة مكانهما في بيت النبوة، ودورهما في حياة النبي ﷺ، وأرادت عائشة أن تواجه هذا الابتلاء الجديد بقوة، وتربجهما إلى جانبها في موقفها ضد أم سلمة وزينب، فاستطاعت أن تضم صفية إليها. فهما في سن متقاربة، وتفهم بلغتها وأحاسيسها، وغدت صفية رضي الله عنها مع الزمن من حزب عائشة أم المؤمنين.

ولم ينته العام حتى جاء وافد جديد في نهايته هي ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها، فانضمت إلى الركب، حيث جاء رسول الله ﷺ بها وهو قادم من عمرة القضية.

لكن ما أهمها كثيراً ما سمعت به أن ميمونة قد وهبت نفسها للنبي ﷺ،

وإن انتشر هذا الأمر، فكل امرأة في الدنيا تود أن تكون زوجاً للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكن هل يُعقل أن تقدم امرأة على ذلك، لقد استحييت أن تسأل ميمونة عن صحة الخبر.

إذ أن هناك خبراً آخر مفاده أنها فوضت أمرها لأختها أم الفضل، وأن العباس رضي الله عنه أبا الفضل هو الذي ذكرها لرسول الله ﷺ عليه الصلاة والسلام، فوافق على زواجها.

والله أعلم أي ذلك كان.

وما هي إلا فترة وجيزة حتى وقع ما تحسبه عائشة رضي الله عنها، فهذه أم شريك الأنصارية وخولة بنت حكيم تهبان نفسيهما لرسول الله ﷺ.

إنها تنظر في قلبها، فتود لو تقدر أن تحوط رسول الله ﷺ من كل انثى، أن يكون لها وحدها من دون نساء الأرض جميعاً، لكنها تعلقة وأمنية.

قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أتهب المرأة نفسها لرجل؟

ولغير رسول الله ﷺ في هذا الوجود، فلا، أما له فنعم.

﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين﴾.

﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً، ترجي من تشاء منهم وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك، ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتهن كلهن، والله يعلم ما في قلوبكم. وكان الله عليماً حليماً﴾.

وتعجب عائشة رضي الله عنها من هذا الأمر فلا تتمالك أن تقول:

والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.

إنها تستسلم لقدر الله، فليس كل تعلقة أو أمنية تملكها تتحقق، إنه يكفيها من رسول الله ﷺ أن تظفر بحبه، بكل حبه. فلتبذل كل ما تملك، ولتحرص على رضاه، ولتتفان في هواه على أمل أن تكون أكبر الفائزين.

لقد جربت حظها رضي الله عنها مع خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فأخفقت.

فهي تحدثنا عن هذه التجربة قائلة:

كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكذب يسأم من ثناء عليها واستغفار لها فذكرها يوماً، فحملتني الغيرة فقلت: لقد عوّضك الله من كبيرة السن! قال: فرأيتك غضب غضباً أسقطت في خلدي، وقلت في نفسي: اللهم إن ذهب غضب رسولك عني لم أعد أذكرها بسوء، فلما رأى النبي ما لقيتُ قال: «كيف قلت؟ والله لقد آمنت بي إذ كذبتني الناس، وآوتني إذ رفضني الناس، ورزقت منها الولد وحرمتموه مني». قالت: ففدا وراح عليّ بها شهراً^(١).

لقد كانت تدرك رضي الله عنها، وهي الفتاة الغضة الإهاب، بنت الخامسة عشرة وأقل، أنها ليست زوجة رجل عادي، تغضبه، فيترضاها، وينتهي الأمر، إنها زوجة رسول رب العالمين، إن أغضبته فقد أغضبت الله تعالى، وقد أدركت هذه المسؤولية بهذا السن المبكر، وعرفت حدودها. وكيف تتمكن أن تحافظ على حب سيد ولد آدم.

لقد كانت على سجيتها. تخطيء. وسرعان ما تدرك الخطأ، لا تعرف إصراراً على باطل، تتصرف على فطرتها دون قيد، فإن أخطأت فالحبيب المصطفى يصحح، وكيف؟ بالنظرة أو الإشارة أو الصمت أو الكلمة وهي على مستوى متقدٍ من الذكاء لا يحد، وعلى مستوى من الأدب لا يحد.

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي، وإسناد الحديث حسن ١١٢.

صحيح أنها لم تصل إلى أفق خديجة رضي الله عنها، ورضيت حدها الذي أعطاه لها نبيها، ولم تصل إلى أفق فاطمة، ولكن غير ذلك فهي تزاحم وتزاحم لتتقرب من الكمال، الكمال الذي لا يتعارض مع الحب، والود والمتعة الحلال، والهناء الرغيدة.

إنها بين يدي إمام المربين عليه الصلاة والسلام، فلا يضيرها أن تنطلق دون حدود ودون قيود بكل ما تملك من حرية، فيما تعرفه من حلال فتستمتع به، وما تعرفه من حرام فتتجنبه، وما لا تعرفه لن تتكلف له، فهي تسأل عن كل شيء، وتحدث بكل شيء. والمربي عليه الصلاة والسلام، يرفع ويوجه ويشير ويفضي. إنها في بيت النبوة.

إنها تطامنت أمام هاتين العملاقتين بعدما بلغها قول رسول الله ﷺ:

«أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم، وآسية»^(١).

ويكفيها فخراً أنها ذكرت مع مريم وآسية، كما ذكرت فاطمة وخديجة رضي الله عنهن أجمعين «فعن أبي موسى رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ:

كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وأفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

إنها تجتهد دون تكلف، وتستمتع بحبيبها المصطفى عليه الصلاة والسلام ما وسعها ذلك. وكيف لا تسارع في هواه وهي ترى ربه تعالى يسارع في هواه.

(١) إسناده صحيح، وأخرجه أحمد، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وذكره الهيثمي في المجمع ورجالهم رجال الصحيح.

٩ - ابنة الخامسة عشرة

هدأت عائشة رضي الله عنها بعد زواج ميمونة، وبعد نزول قول الله عز وجل:

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدُلَ بِهِنَ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنَهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾^(١).

وكثر الخيرات على المسلمين بعد فتح كنوز خيبر، وصدق الله تعالى قوله: ﴿وَمَغَانِمُ كَثِيرَةً نَأْخُذُونَهَا...﴾ وانتشر السر في المدينة، وعائشة وهي في هذه السن المبكرة راحت ذات يوم تشير إلى رغبتها في هذا المتاع، وأن تصوغ شيئاً من الذهب تتزين به كما تتزين قريناتها فصمت عليه الصلاة والسلام قليلاً ثم قال:

يا عائشة. لو شئت لسارت معي جبال الذهب، جاءني ملك إن حُجِرَتْهُ^(٢) لتساوي الكعبة فقال: إن ربك يقرئك السلام ويقول لك: إن شئت نبياً عبداً، وإن شئت نبياً ملكاً؛ فنظرت إلى جبريل، فأشار إليّ: أن ضع نفسك (من التواضع) فقلت: نبياً عبداً.

فكان ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئاً يقول: آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد^(٣).

* * *

الأيام تمر وبنّت الخامسة عشرة، تود أن تأخذ حظها من الدنيا. ولعل هذا الحظ مكفوف عنها لأنها لا تطالب به، وهل جواب رسول الله ﷺ لها من

(١) الأحزاب / ٥٢.

(٢) الحجة: معقد السراويل: وقيل حيث يثني طرف الإزار.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي. وقد حسن الحديث بشواهد التي أوردها الهيثمي في المجمع.

قبل يعني انصرافها هي عن الدنيا كذلك، إن الأمر خاص بنبي الله ﷺ، وراحت تخطط للأمر، فاتحت حزبها حفصة وصفية وسودة، فما تلكأن في ذلك، وخطت خطوة أخرى إلى آخر الشوط، فلقد وحد الهدف بين الحزبين، واجتمعن كلهن في موقف موحد يطالبن رسول الله ﷺ بالنفقة.

ولا شك أن فتيات الأنصار، يلمن بالطلب فينلن وهن يغدون في حلة ويرجعن في حلة. ويصفن الذهب والجوهر، ويحفرن عائشة رضي الله عنها على ذلك.

وكانت هدنة بين نسوة النبي ﷺ يجتمعن فيها على هذا الرأي، وما أحد أجراً من عائشة على ذلك فهي محظية رسول الله، ولن يرد لها طلباً، وكما يقول عمر رضي الله عنه.

(وكنا معشر قریش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذن من آداب نساء الأنصار).

ولم يكن من السهل الوصول إلى هذا القرار. فهذه حفصة تلتقي عائشة فتحدثها حديث أبيها بالأمس (أي حفصة أتغاضب إحداكن النبي ﷺ حتى الليل؟

- نعم.

- قد خبت وخسرت! أفتأمنين أن يغضب الله تعالى لغضب رسوله فهلكي).

ثم أوضحت لعائشة الوصية الشديدة التي أوصاها بها أبوها.

(لا أبالك لا تستكثري النبي ﷺ ولا تراجعيه في شيء، ولا تهجريه، وسليني ما بدا لك).

وقفت حفصة هنا ثم ابتسمت وهي تتابع حديثها قائلة:

(ولا يغرنك أن كانت جارتك أوصاً (أجمل) وأحب إلى النبي ﷺ).

ومع ذلك أتعذّن وطلبين من رسول الله ﷺ النفقة . وعلى رأسهن عائشة واستمع رسول الله ﷺ لهن دون أن يعلّق بشيء ، ومضى إلى مشربة له فاعتزل فيها ، وأحس نساء رسول الله ﷺ بخطورة الأمر ، وأسقط في أيديهن رغم أن الخوف قد تملكهن جميعاً ، غير أن عائشة رضي الله عنها ، كانت على سجيتها ، لقد علمها حبيبها عليه الصلاة والسلام أن يصحح لها خطأها ، والصورة الآن شديدة ، ولعله عليه الصلاة والسلام لم يبت هذه الليلة عند واحدة من نساءه .

وانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم ، فقد صلى الرسول ﷺ الفجر مع أصحابه ، وعاد معتزلاً إلى مشربته ، لا شك أن أزمة بيتية عنيفة في بيت النبي قد دعت به إلى هذا التصرف ، فهو عادة يمضي إلى بيت واحدة من زوجاته . وإن كان فيما مضى بعض المواقف لا تثير ملاحظة أحد ، حتى إن المرأة لتهجّر رسول الله ﷺ إلى الليل ، ولا أدل على كتمانها ، من أن عمر بن الخطاب وزير رسول الله ﷺ لم يدر بها إلا مؤخراً ومن زوجته .

إن حلم رسول الله ﷺ لأثقل من الجبال ، وإن خلقه القرآن . فكم يغضي عن خطأ بسيط يند ، وكم يتجاهل كلمة شاردة تنذر ، فلم يستطع عقل الفاروق أن يتصور موقف ابنته من زوجها رسول الله ﷺ ، وهي أو غيرها تهجره إلى الليل .

انتشر الخبر في المدينة أن رسول الله ﷺ طلق نساءه . وكان وقع هذا الخبر على المسلمين أشد من الصواعق ، حتى ليسأل الفاروق أخاه الأنصاري الذي قال له ، حدث أمر عظيم .

عمر : أجمعت غسان . (وكان الحديث يجري في احتمال غزو المدينة من غسان) .

الأنصاري : لا بل أعظم منه وأطول ، طلق رسول الله ﷺ نساءه .

وكانت كل زوجة من أزواجه قد انكفأت على نفسها تندب حظها العاثر ،

وتحس أن القرآن سينزل ليفضحها. وها هو عمر يدخل على حفصة رضي الله عنها (فإذا هي تبكي). قال: ما يبكيك أو لم أكن حذرتك؟ أطلقكن رسول الله ﷺ. قالت: لا أدري هو في المشربة).

(ودخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له قال: فوجد النبي ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً ساكتاً قال: والله لأقولن شيئاً أضحك رسول الله ﷺ. فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقلت إليها فوجأت عنقها فضحك رسول الله ﷺ وقال: هنّ حولي كما ترى يسألنني النفقة. فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده).

(ثم تتبع نساء النبي ﷺ فجعل يكلمهن فقال لعائشة: أغيرك أنك امرأة حسناء، وأن زوجك يحبك لتنتهين أولينزلن فيك القرآن. قال: فقالت أم سلمة: يا ابن الخطاب أو ما بقي لك إلا أن تدخل بين رسول الله ﷺ وبين نساؤه، ولن تسأل المرأة إلا لزوجها؟).

وكفت أم سلمة المؤونة عائشة. وما كان لها أن تجرؤ على الرد عليه. وهي في هذه السن. لقد كانت تهابه، ولا تزال تذكر موقفه يوم الخندق، حتى لتمنت أن تبتلعها الأرض من شدة تعنيفه لها، ولكن هذا الأمر يهون عندها إن القضية الأكبر، هي موجودة رسول الله ﷺ وتأثره، وانتظرت تعد اللحظات واحدة تلو الأخرى، وهي تراها أطول من الساعات، متى يدخل عليها رسول الله ﷺ، وكان عمر رضي الله عنه يحاول تهدئة الموقف، وإدخال السرور على قلب رسول الله ﷺ، وتأمل أن ينجح أبوها وعمر في مهمتهما. ولكن دون جدوى. إنها تنظر وتنتظر، ولا يوجد ما يوحي بمغادرة رسول الله ﷺ مشربته.

وهمست حفصة في أذنها قائلة، وهي تكفكف دموعها: اعتزلنا رسول الله شهراً.

شهر؟ هل تطبيق فراق حبيبها شهراً كاملاً؟. وما تفعل. ومن بعد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما يمكن أن يهدى الموقف؟

وعادت إلى ذاكرتها، قصة المغافير، وقول الله تعالى :

﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، مسلمات مؤمنات فانات تائبات، عابدات، سائحات ثيبات وأبكاراً﴾

إنها ما تنتهي من مشكلة، حتى تواجهها مشكلة أكبر وأشد، وهي تعلم الآن غضب رسول الله ﷺ من أزواجه ومنها وعته عليها.

إنه درس جديد في التربية، لم تعهده، ولم تألفه من قبل، إنه عندما كان بلغه عنها السوء في حديث الإفك، لما يتجاوز الأمر أن يخفف بعض لطفه فيها، أما الآن، فالأمر أخطر بكثير! إنه هجران لمدة شهر كامل، وتحاول أن تتناسى الأمر، أو تخفف منه، فتعجز عن ذلك.

إنها أكبر مرة تلقي فيها جزاء هذا الموقف. ثم تقول في نفسها: هو كله أهون من الطلاق، ثم تعود لنفسها قائلة: ومن يدري، فقد يكون الطلاق بعد هذا الشهر.

إن كل يوم يمر عليها يعدل سنة. لم تعد تذوق للحياة طعماً، أين تفر من هذه الأفكار التي تنهيبها ليل نهار، وتستعيد حادثة الإفك، فتراها أهون عليها من هذا العلقم، فهي تعرف نفسها أنها بريئة أما اليوم، فالخطأ واضح، والعقوبة قائمة، وهل أشق على قلبها، وأشقى لها من أن يكون حبيبها غاضباً منها وهاجراً لها، ثم تمنى نفسها بأنه قد مر يوم ويوم، وبقي كذا. وتحاول أن تلهو بأي شيء عن هذا الهجران، فلا تجد شيئاً في حياتها يستحق المتعة إن خسرت رسول الله ﷺ وخسرت حبه لها، وتتضرع في الليل، وتبكي، وترجو ربها أن يرضي عنها قلب حبيبه محمد عليه الصلاة والسلام وقلب حبيبها.

وتتوارد الأفكار، ماذا فعلت؟ ما الجناية الكبرى؟ لقد سألت رسول الله

ﷺ النفقة تريد أن تتمتع كما تتمتع كل فتاة في هذا الوجود، ولكن هل تمنى أن تملك متاع الوجود كله، وتخسر موقعها زوجاً لرسول الله صلوات الله عليه؟! . أبداً، إنها الشقية، إنها الخاسرة الكبرى.

واقترب الشهر من نهايته، لا النوم يسعفها، ولا الطعام تجده شهياً في جوفها، إنها غدت إنساناً آخر غير ذلك الإنسان، غير عائشة الصبية المرححة الذكية، إنها الآن تحس أنها تجف كما يجف النبات، وتذبل كما يذبل العود، أين العافية التي امتلأت بها، ففاتها خلال هذا الشهر. ويطل الشهر، على نهايته، فتروح تعد بالساعات، بأوقات الصلوات. كم من الأوقات تبقى حتى ينتهي الشهر، وهذا هو اليوم التاسع والعشرون يبرز فجره، إن فجر غدٍ سيكون روحها الجديدة التي تبعث في نفسها الحياة بعد الموات، ولن يمر يوم غدٍ بدون جديد، وهي تضرع إلى الله سبحانه أن يكون هذا الجديد، هو عفو رسول الله ﷺ عنها.

إن الهجران مقابل الخطأ، هو من أعظم وأنجع أساليب العقوبة في التربية، في فتاة مؤمنة كريمة مثل عائشة، ولا شيء أوجع منه وآسى منه إلا الفراق الأبدي، والهجران الأبدي، وها هي تمسك بيدها قلبها من أن يكون ذلك، إن مجرد وروده خاطراً عليها يجعلها تغطي وجهها بيديها وتعجز عن تصويره، هي جاهزة بعد اليوم لكل أمر، لكل توجيه لأن تأكل التراب، وتلبس أخشن الثياب، وتجلس في العراء، ويرضى عنها حبسها عليه الصلاة والسلام، لن تطلب من هذه الدنيا بعد اليوم إلا أن يرضى حبسها عنها، ماذا يفيدها، جمالها الأسر، وذكاؤها النادر، عمرها الباكر الغض، ماذا يفيدها إن غدت مطلقة رسول الله ﷺ.

وأين الثريا وأين الثرى، وأين حبيبة رسول الله وزوجه، من مطلقة؟!!

وكانت المفاجأة المذهلة. إنها تسمع وقع أقدام رسول الله ﷺ، إنه

هو، بعينه، بذاته، فتغضي حياء، وتتورد وجنتاها بالدم القاني، ويخفق قلبها حباً، وشوقاً وتطلعاً، ويصل إلى فمها فتمسك به.

يدخل عليه الصلاة والسلام مبتسماً، ولأول مرة ترى بسمته التي غامت عنه خلال هذا الشهر، ولا تنسى أنها زوجه، وأنها جبه. فتداعبه قائلة: وهي طائفة بين الأرض والسماء:

إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً، وإنا أصبحنا لتسع وعشرين ليلة أعدّها عدّاً.

قال عليه الصلاة والسلام: الشهر تسع وعشرون.

إنها لتعلم أنه جاءها قبل كل ضرائرها، إنها تسعد بذلك، لكن تنظر في قسّات وجهه، فلا يزال عليه الصلاة والسلام في اهتمام بالغ، وعنده كلام يقوله:

إن الأمر جد خطير:

يقول: إني ذاكر لك أمراً، ولا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك.

عائشة: نعم.

وتلا رسول الله ﷺ قرآناً من ربه، وليس حديثاً عابراً:

﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾^(١).

كانت تسمع الآيات تتلى عليها من فم رسول الله ﷺ الشريف وترى الدنيا، كل الدنيا تتراقص بين عينيها، في جهة، وترى الله تعالى ورسوله.

(١) الأحزاب / ٢٨ - ٢٩.

والدار الآخرة في جهة ثانية، وهل أجمل في دنياها وعالمها من حبيبها المصطفى عليه الصلاة والسلام، الذي غمر عليها وجودها وأرغد عيشها، ورزقها سعادتها.

كانت المعادلة تتأرجح في ذهنها المتقد كالجمر المنطلق كالسيل.

وقالت:

هل بدأت بأحد من نسائك قبلي؟!!

(إنها تريد أن تطمئن أنها المحظية الأولى عند رسول الله عليه الصلاة والسلام، وتود لو أن بعضهن اختارت غير حبيبها وتركتها لها، وهي تعلم أن الغيرة ستدفعهن إلى اختيار رسول الله ﷺ إن لم يدفعهن الإيمان بذلك، وطمحت أن تتأثر بأحب خلق الله لها).

«قال: لا».

ولا تزال تذكر وصية حبيبها لها أن لا تتعجل وتستأمر أبويها بهذا الاختيار.

ولكن من أبواها أمام الله ورسوله؟!!

قالت: أفيك أستأمر أبوي؟! فإني أختار الله ورسوله والدار الآخرة.

ثم أتبعته قائلة: وأسألك أن لا تخبر أحداً بالذي قلت.

قال: لا تسألني امرأة منهن إلا خبرتها، إن الله لم يعثني معنئاً ولا متعنئاً ولكن بعثني معلماً ميسراً.

إنه معلم البشرية الأول ﷺ. وأول سمة من سمات المعلم الأول، والمربي الأول هي سمة اليسر، إن الله بعثني معلماً ميسراً، والعنت والتعنت لا يلتقيان أبداً مع سمة المعلم. ومن أجل ذلك، فهؤلاء يخبرهن ابتداءً باختيار عائشة، فهو يريد أن يكون اختيارهن من ذاتهن دون تأثر بعوامل

خارجية. لكن إذا سألته عن اختيارها، فلا مندوحة له عن الإجابة. حتى لا يكون متعنتاً في إحراجهن بالاختيار.

صلى الله عليك يا معلم البشرية.

صلى الله عليك يا مربى عائشة رضوان الله عليها.

إن الدروس التي تلقيتها في هذه السن، والعبر التي أغنت حياة ابنة الخامسة عشرة، والتربية العظيمة في هجران هذا الشهر، لهي أكبر في عالم التربية من مئات المحاضرات، ومن مئات الكتب، وكانت الثمرة في التو، وكانت الثمرة في اللحظة، وبمحض الاختيار وبمحض الإرادة، ودون اللجوء إلى الأب والأم، إنها هي التي كانت تسأل النفقة، والحد الأدنى منها، ورغد العيش، ويسار الحياة. هي التي تختار دون تردد ودون عكمة، ودون استشارة، فليس فوق حبيبها حبيب.

أفيك أستمأر أبوي؟! فإني اختار الله ورسوله والدار الآخرة.

نفس تبنى، وفطرة تستعلي، وبناء يشاد، في الفتاة التي ما تزال حسب عالمنا اليوم بنت الشارع اللعوب، أو الفتاة اللاهية الطروب.

وفعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت عائشة.

وأجمل خبر سيق إليها في عمرها كله، بعد هذه الجولة الطويلة، وبعد هذه العقوبة الصعبة. وفي عامها الخامس عشر، ما تناقلته السنة المؤمنين في المدينة، عن المسلم الجديد، عمرو بن العاص والسنة المؤمنات كذلك وغدا على كل شفة وكل لسان:

(... قال فأتيته: فقلت: يا رسول الله، أي الناس أحب إليك؟

قال: «عائشة»، قالت: من الرجال؟ قال: أبوها^(١).

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

فماذا تريد من الدنيا بعد ذلك؟! .

إنه الشئ لا يأتي إلا بعد المحنة، ولا يأتي إلا بعد اختبار المعدن، لا يأتي جزافاً، ولا يكال كيلاً. إنما يأتي ثمناً لتجربة، ورصيداً لموقف، وهل في الدنيا أحد أسعد منها، إذا كانت هي أحب الناس إلى رسول رب العالمين، وأبوها أحب الرجال إلى رسول رب العالمين؟ .

إنها كلمة معلنة، لا تقال سراً، ولا تقال بين الجدران، إنها تقال لعمر و ابن العاص أمير سرية ذات السلاسل، المسلم الجديد اليوم. لتنقل علماً وديناً لكل مسلم في هذا الوجود.

* * *

١٠ - ابنة السادسة عشرة

وندلف إلى العام التاسع للهجرة، حيث أنها عانت بعد الرسول ﷺ قرابة ثلاثة أشهر في نهاية العام الثامن؛ رمضان وشوال وذو القعدة. وإذا كانت تعاني من ألم الفراق في هذه المرحلة الطويلة. فإن الطمأنينة قد سكبت في قلبها، وهي تعيش على ذكرى حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، أنها أحب الناس إلى رسول الله. ولذلك كانت تكفكف غيرتها. كلما ذكرت أن ضررتها أم سلمة مع رسول الله ﷺ في سفره. وجاءت أنباء الانتصارات الضخمة للمسلمين، فعاشت أحداثها تكبح جماح الغيرة عندها، لقد فتح الله مكة على المسلمين ﴿وجاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾، و﴿جاء نصر الله والفتح﴾. وشهدت الناس بعد فتح مكة ﴿يدخلون في دين الله أفواجا﴾، من كل فج عميق يغدون على رسول الله ﷺ من الشام واليمن وعمان، والعراق. يبايعون رسول الله ﷺ على الإسلام.

كما شهدت في عامها هذا غزوة تبوك. وتناقل المنافقين، وعودة المسلمين ظافرين منصورين وأجمل ما شهدته هذا العام أن رسول الله ﷺ بعث أباه أبا بكر أميراً على الحج. أما هي فقد كان هذا العام من أغنى أعوامها

على الإطلاق. فقد مكث عليه الصلاة والسلام سبعة أشهر في المدينة يعلم الناس الإسلام ويفقههم في الدين، وكانت هي تسمع وتسأل وتناقش وتحفظ عن ظهر قلب كأنما حفر في قلبها حفراً. لقد كان عليه الصلاة والسلام شغلها الشاغل، يملأ عليها كل حياتها. ففي كل يوم تسمع جديداً، وتنهل علماً، وتلقى خيراً، وعرفت رسالتها في القرار في البيت، لكن أي قرار، في بيت النبوة والعلم والحكمة.

﴿... وقرن في بيوتكن، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، وأقمن الصلاة، وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً﴾^(١).

فلقد كان العلم كله في بيوتهن. وكان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ في بيوت النبي عليه الصلاة والسلام، لكن عائشة رضي الله عنها ينزل عليه الوحي وهو في لحافها.

عجبية هذه الفتاة ما أكرمها على الله تعالى. وعجبية أن تستأثر بقلب رسول رب العالمين. فيما يرى رسول الله ﷺ بها من المزايا، والذكاء، والأدب، والطلاقة، والفصاحة.

وشاركت السماء في سرور رسول الله ﷺ بعائشة.

فهذا جبريل الروح الأمين يسلم على عائشة.

(فعن أبي سلمة أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ:

«يا عائش» هذا جبريل وهو يقرأ عليك السلام». قالت: وعليه السلام ورحمة الله ترى ما لا نرى يا رسول الله)^(٢).

(١) الأحزاب / ٣٣ - ٣٤.

(٢) أخرجه البخاري.

١١ - ابنة السابعة عشرة

دروس لا تنسى

ولا تنسى عائشة رضي الله عنها الدروس من أبيها في أدب التعامل مع أحب خلق الله تعالى إليها.

الدرس الأول:

إنها تجادل رسول الله ﷺ في قضية، وقد علا صوتها:

(فجاء أبو بكر يستأذن على النبي ﷺ فسمع عائشة رضي الله عنها وهي رافعة صوتها على النبي ﷺ فأذن له فدخل، فقال يا بنت أم رومان أترفعين صوتك على رسول الله ﷺ وتناولها أبوها فحال النبي ﷺ بينه وبينها، ثم خرج أبو بكر، فجعل النبي يترضاها وقال:

«ألم تريني حلت بين الرجل وبينك».

ثم استأذن أبو بكر مرة أخرى فسمع تضاحكهما فقال: اشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما^(١).

ولئن استطاعت هذه المرة أن تنجو من أبيها لرفع صوتها على حبيبها فلم تنس أبداً المرة الأخرى التي أدماها فيها أبوها، وها هي تحدثنا عنها أنه:

كان بينها وبين النبي ﷺ كلام فقال لها:

«من ترضين بيني وبينك؟ أترضين بعمر؟!».

قالت: لا أرضى عمر قط. عمر غليظ.

«قال: أترضين بأبيك بيني وبينك؟!».

قالت: نعم، قالت فبعث إليه رسول الله ﷺ فقال:

(١) أخرجه أبو داود في الأدب - باب ما جاء في المزاح. وإسناده قوي، وأخرجه النسائي.

إن هذه من أمرها كذا، ومن أمرها كذا .
قالت : اتق الله ولا تقل إلا حقاً .

قالت : فرفع أبو بكر يده فرثم^(١) أنفها وقال :

لا أم لك يا ابنة أم رومان تقولين الحق وأبوك ولا يقوله رسول الله ﷺ ،
قالت : فابتدر منخراها كأنهما عزلا وان^(٢) . فقال رسول الله ﷺ : إنا لم ندعك
لهذا .

قالت : ثم قام إلى جريدة في البيت فجعل يضربها بها فولت هاربة منه .
فلزقت بظهر النبي ﷺ حتى قال له رسول الله :

«أقسمت عليك لما خرجت فإننا لم ندعك لهذا» .

فلما خرج أبو بكر رضي الله عنه ، قامت . فتنحت عن رسول الله ﷺ
فقال : أدني مني . فأبت أن تفعل .

فتبسم رسول الله ﷺ وقال :

لقد كنتِ قبل شديدة اللزوق بظهري^(٣) .

أما المرة الثالثة : فتذكرها منتشية سعيدة رغم تعنيف أبيها لها ، وتحديثنا
عنها قائلة :

(خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، حتى إذا كنا بالبيداء أو
بذات الجيش انقطع عقدي ، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس
معه وليسوا على ماء ، فأتى الناس أبا بكر رضي الله عنه فقالوا :

ما ترى ما صنعت عائشة ، أقامت برسول الله وبالناس وليسوا على ماء ،

(١) رثم أنفها : أي كسره حتى أدماه .

(٢) عزلا وان : مثى عزلا وهي فم المزاد (القربة) الأسفل .

(٣) السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين للمحب الطبري وقد أورده عن (الحافظ
الدمشقي) .

وليس معهم ماء! قالت: فعاتبني أبو بكر ولقيت من أبي من التعنيف والتأفيف وقال: في كل سفر للمسلمين منك بلاء وعناء^(١). وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعي من التحرك إلا مكان النبي ﷺ على فخذي، فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم. فتييمموا.

فقال أسيد بن الحضير - وهو أحد النقباء: ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر! قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته^(٢).

(قالت: يقول أبي حين جاء من الله الرخصة للمسلمين:

والله ما علمت يا بنية إنك لمباركة! ماذا جعل الله للمسلمين في حبسك إياهم من البركة واليس^(٣)).

إنها التربية غير المباشرة لفتاتنا المسلمة اليوم من هذه الدروس التي ساقتها لنا عائشة رضي الله عنها.

إنها تنطلق على سجيته دون قيد مع حبيبها عليه الصلاة والسلام، وهي تعلم أن إمام المربين ﷺ يكفكف من غلوائها حين يمكن أن تبغي على أخواتها، ويأخذها بقلبه العظيم حتى يؤوب بها إلى الجادة، لكن عندما يكون التجاوز عليه الصلاة والسلام وفي أدب التعامل معه، فمن يوجهها. إنها تعلم أنه ﷺ ما يغضب لنفسه قط. أما إذا انتهكت من محارم الله فلا يقوم لغضبه شيء وشاء قدر الله تعالى أن يشهد أبا بكر رضي الله عنه هاتين المرتين. في رفع الصوت على النبي ﷺ والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ، إِنَّ الَّذِينَ يَغْضَوْنَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٤).

(١) من رواية الامام أحمد.

(٢) متفق عليه.

(٣) من رواية الإمام أحمد.

(٤) الحجرات ٢/ و ٣.

والمرة الثانية وهي تدعو رسول الله ﷺ إلى أن يتقي الله ولا يقول إلا الحق. فكان هو الذي يقوم بالتأديب والتأنيب، ولو اقتضى الأمر الضرب الشديد.

أما الرسول عليه الصلاة والسلام إمام المربين، فكما ردت عائشة رضي الله عنها:

(ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى فينتقم الله تعالى) (١).

لقد كان من سمو تربيته عليه الصلاة والسلام أن لا يستعمل الضرب وسيلة من وسائلها.

وحين تذكر المرأة ويذكر الخادم فهما النوعان اللذان يختلطان بالنبى عليه الصلاة والسلام ليل نهار ويتعاملان معه، ولا شك أن عظمة التربية عنده لا تتناسب أبداً واستعمال الضرب فيها، وحيث أنه ﷺ لا يغضب لنفسه، فلو كان الأمر يستحق الضرب لما فعله، أما أبو بكر رضي الله عنه وهو يرى فتاته يرتفع صوتها على سيد الخلق. ويراها تقول له: اتق الله ولا تقل إلا حقاً، فهو لا يتمالك نفسه أن يؤدبها ويضربها بلا هوادة، وقد تجاوزت حدود أدب النبوة.

وعائشة رضوان الله عليها، هي زوجة، وليس بينها وبين زوجها الحبيب قيود وسدود تغضب وترضى، وتحب وتكره، فعلى سجيته يرتفع صوتها، وتشترط لنفسها عند التحكيم. وترفض حكماً وتقبل آخر، تختلف مع زوجها الحبيب في رأي، وهو رسول الله ﷺ الذي يحتكم إليه المسلمون في الأرض. والذي لا يقبل حكمه لا إيمان له: بل الذي يقبله ظاهراً ويتحرج قلبه فلا إيمان له.

(١) رواه مسلم عن عائشة.

﴿فَلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾^(١).

إنها تعيش في بيت النبوة، تتلقى منه التربية، وترتع منه الحكمة، وتنهل منه العلم لكن رسول الله ﷺ يسير بها الهوينى خطوة خطوة، وبدلاً من أن يقدم التربية المباشرة فيما يخص شخصه عليه الصلاة والسلام، يلجأ إلى طريقة أكثر أنساً، وألصق قلباً أن يحكم بينها وبينه عمر أو أبي بكر وزيريه وصاحبيه. ولئن شكت في تحيز عمر فلن تشك في تحيز أبيها، إنه ﷺ يريد أن يربيه من خلال أبيها فيما يخص شخصه عليه الصلاة والسلام، كي تعرف حدودها في ما تختلف فيه مع نبيها وزوجها، ولم يسمع أبو بكر القضية إنما سمع ذلك الشرط، فأدماها وأسأل أنفها، وراح يضربها بجريد النخل حتى ليعزم عليه رسول الله ﷺ أن يخرج، وأمام غضبة أبيها البكرية - الله ورسوله - لم تجد من تلجأ به ومن تستغيث به وتحتمي به غير رسول الله ﷺ الذي خاصمته، واشتجرت معه وحكمت أباهما في ذلك.

هذا عالم البشر كله، فهل فيه أعظم من هذه التربية. وهل فيه ما يقاربها أو يماثلها.

وكم نحن بحاجة إلى أن نعيش هذه الدروس التي نقلتها لنا عائشة رضوان الله عليها. وهي تدين بها نفسها دون أن يجبرها أحد على ذلك، لكنها الأمانة على نقل العلم، والقوامة على نقل التربية للبشر كافة، وللمسلمين في الأرض، فلا بد أن تتعلم كل فتاة، وكل أم، ويتعلم كل أب وكل زوج ماله وما عليه، وقد كانت التلميذ الأخص والأول في مدرسة النبوة.

لا بد أن تعلم كل فتاة، وكل زوجة حق زوجها عليها، وهي في سني نضجها الأولى نظرياً وعملياً، فلا تتجاوز حدودها، وأن زوجها أو أباهما أو مربيتها حين تتغاضى عن حقها، وتصبر ويصبر على تجاوزاتها وانفعالاتها

(١) النساء / ٦٥.

وغضبها، فهذا لا يعني أبداً أنها مصيبة، وأنها على حق، وأنها على هدى، فقد لا يكون الحل إلا الصبر، والحلم، والإغضاء عن الأذى، وأن تراجع الفتاة نفسها كثيراً وهي تعتد بآرائها. وتطالب بحقها. فحقوق الزوج والأهل والمربين أعظم، ولا عذر لها في أن تستجيب لقضيتها وانفعالها وعنادها وغرورها.

هذا الدرس الأول.

لكن الدرس المهم الثاني :

هو واجب الأهل في التربية، واجب البيت قبل أن تصبح الفتاة زوجاً وأماً أن يكون البيت على يقظة تامة من تجاوزات فئاته، وعلى معرفة وبصيرة تامة بسلوكها وخلقها، وموافقها. وأن التربية الرادعة والعتب الحيي . لا بد من شعور الفتاة بهيبة الأب وهيبة الأم، والالتزام بالتوجيه، والوقوف عند الحدود.

والتربية البيتية المائنة لن تخرج إلا جيلاً نافهاً ضائعاً.

وما نراه في مجتمعاتنا اليوم، وقد سد الانحراف أفقها هو دليل على فقدان البيت لدوره منذ البداية، ومنذ اللحظات الأولى، يغلب الحب على الواجب، وتسدل الفتاة وتبكي إن أخطأت فتقف الأم محامياً عن ابنتها المدللة. ويغلب حب الأب على ابنته. فتبلغ سن البلوغ فلا تصلي. فيكتفي بالتذكير، والألم، ولا تلبس الحجاب، فيثور لنفسه ويهدأ، وتستغل الفتاة هذا الحب فتمتدادي، وتخالط الرجال، فيغضب لنفسه وعلى نفسه ويتدخل الآخرون. فتهداً العاصفة، وتمر المعصية تلو المعصية، وتورث الخطيئة عقب الخطيئة. ويعجز البيت، ويفقد سيطرته، وتنهار القيم، أمام العواطف وأمام الرغبات، وأمام الانحرافات فأبو بكر رضي الله عنه لم يكن يعنيه ماذا تقول عائشة في المرة الأولى، فيهم بها لأنها ترفع صوتها عند رسول الله، وكل المؤمنين منادون أن لا يرفعوا أصواتهم عند رسول الله.

ويضربها ويدمها. وهي تقول لرسول الله ﷺ : اتق الله ولا تقل إلا

حقاً. ومن في هذا الوجود يقول الحق كل الحق غير رسول الله ﷺ.

﴿وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى﴾^(١).

ويضربها ويوجعها، ويخزها في خاضعتها، وقد حبست المسلمين لهاونها في عقدها، وعرضت المسلمين للمعصية. وفوات الصلاة، لعدم وجود الماء، والله تعالى يقول:

﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾^(٢).

إن واجب البيت في التربية، وواجب الأب والأم، والولي، مرتبط بالتوجيه:

﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة﴾^(٣).

﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم، إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم، فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وانفقوا خيراً لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

والدرس الثالث الأعظم والأهم، إلى المربين.

أماً أو أباً أو أخاً أو مدرّسة أو واعظة أو موجهة.

وبين يديهم هذه العجينة، هذه الفتاة ذات الطاقات الهائلة من العواطف. والكنوز الضخمة من المشاعر، التي تريد أن تطلق بلا قيود ولا سدود، فيأتي دور المربية، وهي تكفكف هذه العواطف إلى مجراها الطبيعي

(١) النجم ٣/ و٤.

(٢) النساء من الآية ١٠٣.

(٣) التحريم من الآية ٦.

(٤) التغابن / ١٤ - ١٦.

لا تخنقها . وهي تنظم هذه المشاعر في قنواتها الأصلية لا تكتبها .

وها هو إمام المربين عليه الصلاة والسلام أمامهم جميعاً . فيما يخص ذاته عليه الصلاة والسلام :

يغضي عن رفع صوت عائشة ، حتى لسمعها أبو بكر ، ولا يرفع الصوت عليه .

ويسمع القول (اتق الله ولا تقل إلا حقاً) فيغضي وهو لا ينطق عن الهوى ، ويحمي عائشة من أبيها ، وتلتصق به وهو الأرحم والأحب من أبيها ، ويعزم على أبي بكر أن يخرج لحمايتها منه ثم يدعو عائشة بعد ذلك إليه ، فتلتكأ ، فيتسم قائلاً :

لقد كنت قبل شديدة اللزوق بظهري .

ويقبل التحكيم ، وإليه يحتكم المسلمون في الأرض ، وليس التحكيم بينه وبين قادة المسلمين . إنما بينه وبين زوجه في العقد الثاني من عمرها ، رضي الله عنها .

وأي كلام يستطيع أن يقوله المرء في عظمة هذه التربية ، التي يدعو مربّي الأرض إلى فقها .

وحسب المرء المسلم أن يضع يده عليها ، لينهل المربون منها ما شاؤوا ، ويطرحوا كل ما في جعبتهم من أصول وأساليب ومصطلحات تبدو تافهة أمام هذا السلوك ، وأمام هذا الأسلوب ، وأمام هذه التربية .

ولا ينسوا كذلك أن الجيش كله يحبس ، لماذا؟

للبحث عن عقد عائشة الذي انقطع وضاع .

عقد يوقف الجيش .

ومن منا لا يشور ويغضب وينفعل ، لأن زوجته أو ابنته قد تأخرت

لحظات عن الموعد المقرر بحجة إلباس أولادها أو لبس ثيابها، بل تتحرك الغضبة عنده، فيتركها لأنها تأخرت، ويحاربها على هذا التأخر.

وهذا أبو بكر رضي الله عنه يغضب لحبس الناس والجيش وليسوا على ماء فيلوم ويعنف ويظعن في الخاصة.

وسيد الخلق غاف على فخذ زوجته بعد أن أصدر أمره بإيقاف تحرك الجيش لعل العقد يعود، فهو أمانة.

ولم يحبس الجيش ساعة. ولا ضحى ولا أمسية، لقد اضطر للمبيت، والصلاة أعظم شيء في هذا الوجود صارت على خطر، كل هذا من أجل عقد عائشة وتفريطها في انفراط عقدها وتضييعه.

وأدب عائشة، تضرب وتظعن، وتلام وتعنف، وهي صامئة حرصاً على راحة زوجها الحبيب، فلا تبدي حراكاً ولا ترفع صوتاً، وتكفكف دموعها حتى لا تنهمر على وجه زوجها رضي الله عنها، فينزج من إغفاءه.

وينزل الوحي من رب العالمين بالتييم. والتخفيف على المسلمين في هذا الوجود إلى قيام الساعة. بمناسبة انفراط عقد عائشة وضياعه، وحبس المسلمين.

ويفرح المسلمون بهذه الرخصة، ويقوم سيد الأوس ليعلن في الجيش عن بركة هذه الفتاة الصغيرة. ابنة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة ويقول: ما هذه أول بركاتكم يا آل أبي بكر.

ولا يمنع هذا الأمر أبا بكر الأب، وأبا بكر المربي، والذي قال ابتداء بعد الضرب والظعن!

في كل سفر للمسلمين منك عناء وبلاء.

ما يمنعه ذلك أن يأتي إلى ابنته الصغيرة التي ضربها وعنفها من قبل أن يعترف بخطئه ويقول:

والله ما علمت يا بنية إنك لمباركة ماذا جعل الله للمسلمين في حبسك إياهم من البركة واليسر.

وتقع الرخصة، ويقع اليسر، ويخفف على المسلمين، وينبعث بعير عائشة رضي الله عنها ليوجد العقد تحته.

ونعود مع ابنة السابعة عشرة إلى الرحلة الميمونة، إلى

حجة الوداع:

وفي هذه الحجة معها رفيقاتها جميعاً. فكل ضرائرها زوجات النبي ﷺ يرافقنه في هذه الحجة، فلتحاول أن تخص حبيبها من بينهن بشيء تتفوق به عليهن ونجحت في ذلك. فقد أحضرت طيباً خاصاً وهي تعلم حب رسول الله ﷺ للطيب.

(قالت: طيبت رسول الله ﷺ بيدي بذريعة في حجة الوداع المحل والإحرام)^(١).

(وقالت: طيبت رسول الله ﷺ حين حرمه بأطيب الطيب)^(٢).

وبكت للمفاجأة التي لم تكن على البال:

(فعن جابر قال: أقبلنا مهلين بالحج، وأقبلت مهلة بالعمرة حتى إذا كنا بسرف^(٣) عركت^(٤) عائشة رضي الله عنها. فدخل عليها رسول الله ﷺ فوجدها تبكي فقال:

ما يبكيك؟

قالت: شأني إني قد حضت.

(١) (٢) أخرجه مسلم.

(٣) سرف: موضع على بضعة أميال من المدينة.

(٤) عركت: حاضت.

قال: إن هذا شيء كتبته الله على بنات آدم، فاغتسلي ثم أهلي بالحج^(١).

ونفذت أمر رسول الله ﷺ وأهلت بالحج.

وعلى الطريق تلقت الصدمة الثالثة، فضرائرها معها، ولا بد من الاحتكاك فحدثتنا قائلة:

(خرجت مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع وخرج معه نساء. وكان متاعي فيه خف^(٢) وكان على جمل ناج^(٣). وكان متاع صفية بنت حيي فيه ثقل وكان على جمل ثقال^(٤)) فقال رسول الله ﷺ:

«حولوا متاع عائشة على جمل صفية، وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب».

قالت عائشة رضي الله عنها: فلما رأيت ذلك قلت: يا لعباد الله غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله ﷺ. قالت:

فقال رسول الله ﷺ:

«يا أم عبد الله! إن متاعك كان فيه خف، وكان متاع صفية فيه ثقل فأبطلوا الركب فحولنا متاعها على بعيرك، وحولنا متاعك على بعيرها».

قالت: فقلت: أليس تزعم أنك رسول الله؟

قالت: فتبسم وقال: «أوفي شئ أنت يا أم عبد الله؟»

قالت: فقلت: «أولست تزعم أنك رسول الله فهلا عدلت؟!!»

(١) أخرجه مسلم.

(٢) خف: خفيف.

(٣) جمل ناج: جمل سريع قوي.

(٤) جمل ثقال: بطيء.

فسمعني أبو بكر وكان فيه عَرَبٌ (أي حدة) فأقبل عليّ ولطم وجهي فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا أبا بكر».

فقال: يا رسول الله أولم تسمع ما قالت؟!

فقال رسول الله ﷺ:

«إن الغبراء لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه»^(١).

إنها الغيرة التي تفقد فيها الفتاة المسلمة توازنها ووعيها. فلا تدري ما تقول. وكم لهذا الخلق من عجائب وغرائب، حتى عاتشة صاحبة الفضل على سائر النساء في الأرض الصديقة بنت الصديق، وترى متاعها يحوّل عن جملها. فتفقد وعيها وتسأل:

أولست تزعم أنك رسول الله.

وفي هدوء وثقة يتسم عليه الصلاة والسلام، ليعيدها إلى وعيها وتوازنها.

أوفي شك أنت يا أم عبدالله.

وحين تحس الزوجة أن العدل قد تزلزل، وأن زوجها قد فضل ضررتها عليها وهماً أو حقيقة. فتغدو إنساناً آخر، لا يدرك ما يقول، ولا يعي ما ينطق.

ولا يدرك أسفل الوادي من أعلاه.

فهل لنا أن نعرف طبيعة هذا الخلق وأبعاده في كيان المرأة والفتاة؟!!!

وتعود فئاتنا إلى هدوئها، وتستعيد وعيها من لكمة أبيها. وتتابع مشاعر الحبح، وتطوف بالبيت، بعد طهرها من حيضها.

(١) السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين للمحب الطبري وقد أخرجه عن الحافظ أبي القاسم الدمشقي.

(ووقفت المواقف كلها حتى إذا طهرت طافت بالكعبة وبالصفا والمروة ثم قال: قد حللت من حجك وعمرتك).

فقالت: يا رسول الله إني لأجد في نفسي أني لم أطف بالبيت حتى حججت.

وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً إذا هويت الشيء تابعها عليه. فأرسلها مع عبد الرحمن فأهلت بعمرة من التنعيم^(١).

وفي البخاري: (فاتيا «يعني عبد الرحمن وعائشة رضي الله عنهما» فقال:

أفرغتما؟ قلنا: نعم، فنأدى بالرحيل في أصحابه، فارتحل الناس ثم خرج إلى المدينة). وهي عود على بدء.

أن ينتظر الجيش وقوامه ينوف عن سبعين ألفاً، فالذين حضروا حجة الوداع، مائة وثلاثون ألفاً مع رسول الله ﷺ، لأنها هويت أن تعود بلا عمرة. وتابعها على هواها، وأخر السير حتى فرغت من عمرتها.

فأي إكرام يفوق إكرام المرأة في هذا الوجود.

وكانت كذلك سنة للمسلمين في الأرض إلى يوم الدين كالنجم. فصار الناس يعتمرون بعد الحج كعمرة عائشة رضي الله عنها، ومن مكان اعتمارها من التنعيم.

ولئن حبس سبعون ألفاً من أجل عائشة، رضي الله عنها.

فقد استن المسلمون على مدار الأرض والزمان هذه السنة بسنة عائشة، وهم ملايين الملايين إلى أن تقوم الساعة.

* * *

(١) أخرجه مسلم.

١٢ - ابنة الثامنة عشرة

الشهران الأخيران والوداع الأخير

١ - الحرص على المشاعر:

عن عائشة رضي الله عنها قالت:

(لما كانت ليلتي من رسول الله ﷺ انقلب فوضع نعليه عن رجله، ووضع رداءه وسط إزاره على فراشه، فلم يلبث إلا ريثما ظنّ أنني قد رقدت.

ثم انتعل رويداً، وأخذ رداءه رويداً ثم فتح الباب وخرج وأجافه^(١) رويداً، فجعلت درعي في رأسي، ثم تقنعت بإزاري فانطلقت في إثره.

حتى أتى البقيع، فرفع يديه ثلاث مرات. فأطال القيام ثم انحرف فأسرع.

فأسرعت، فهرول، فهرولت، فأحفر فأحفرت فسبقتة فدخلت فليس إلا أن اضطجعت دخل قال:

مالك يا عائشة؟

قلت: لا شيء.

قال: لتخبرني أو يخبرني اللطيف الخبير.

قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فأخبرته الخبر، فقال:

أنت السواد الذي رأيت أمامي؟ قلت: نعم، قالت: فلهزني^(٢) في صدري لهزة أوجعتني ثم قال: أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله^(٣).

(١) أغلقه.

(٢) لهزني: ضربني. واللهز الضرب بجميع الكف.

(٣) قال لها ذلك رسول الله ﷺ لأنها ظنت أنه ذهب إلى إحدى ضراتها في ليلتها ظمناً لها.

قالت: فقلت: مهما يكتُم الناس فقد علمه الله .

قال: فإن جبريل أتاني حين رأيته ولم يكن يدخل عليك وقد وضعتِ ثيابك، فناداني فأخفى منك فأجبتَه فأخفيت منك، وظننت أنك قد رقدتِ. وكرهتُ أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي، فأمرني أن آتي أهل البقيع فأستغفر لهم.

قلت: كيف أقول يا رسول الله؟

قال: قل: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون^(١).

فهي لا تملك مشاعرها، ولا يخطر في ذهنها إلا خاطر واحد. أنه مضى لإحدى ضرائرها في ليلتها، فلا تمالك أن تمضي خلفه خلصة لتري أين يذهب، وكانت المفاجأة ما صغرت به نفسها في عينيها أنه مضى يستغفر لأهل البقيع، وفعل ذلك كله حرصاً على أن لا يزعجها من نومها أو تستوحش في خروجه.

لقد كانت تمضي ليلها نائمة، ويمضي ليله قائماً، يصلي ويتهجد، وهي معترضة إياه في القبلة كما تقول:

(كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمز لي فقبضت رجلي، فإذا قام بسطتهما والبيوت يومئذ خالية المصابيح^(٢)).

ثم كان الاستغفار الثاني لأهل البقيع تحدثنا عنه قائلة:

(رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول وارسأه! فقال: بل أنا والله يا عائشة، وارسأه!

(١) أخرجه أبو حاتم بهذا السياق ومعناه متفق عليه.

(٢) رواه الشيخان.

ثم قال: وما ضررك لو مُتَّ قبلي فقمْتُ عليكِ وكفُتُكِ وصليتِ عليكِ ودفنتُكِ؟ قلت: والله لكأنني بك وقد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست به ببعض نسائك^(١).

إنها كيان يغلي غيرةً وحباً على رسول الله ﷺ، ورغم كل ما أُطبق الأرض من حبه لها أكثر من كل الناس، لا تزال تغار على قلبه أن يلتفت إلى أحد غيرها.

ومالي لا يغار مثلي على مثلك .
لقد بلغ من حبه لها ﷺ أن قال لها :
إنه ليهوّن علي الموت أني رأيتك زوجتي في الجنة^(٢) .
فصعوبة الموت لفراقها يخفف عنه فيه أنها زوجته في الجنة .
فهل نال هذه الحظوة مخلوق عند رسول الله ﷺ غيرها .

* * *

لقد دنا أجل النبي ﷺ، وهي تحس بهذا المعنى، فترتعب، كيف تفارق حبيبها الذي يملأ عليها دنياها ويملك مجامع قلبها وحياتها، فما هي تروي ابتداء وجعه ﷺ، واستئذانه نساء ليكون في بيتها .

(... واستأذن النبي ﷺ نساء في مرضه فقال :
إنه ليشق عليّ الاختلاف بينكم فائذن لي أن أكون عند بعضكن .
ف قالت أم سلمة : قد عرفنا من تريد ، تريد عائشة قد أذن لك)^(٣) .

إن حبهنّ لرسول الله ﷺ عجيب، فهو في مرض موته عليه الصلاة والسلام . وتتحرك الغيرة في قلوبهن شوقاً إليه . ويأذن له أن يتمرض في بيت

(١) السيرة لابن هشام (المختصر) ٣٣٠ .

(٢) السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين عن الحافظ الدمشقي .

(٣) سير الإعلام للذهبي وقال الذهبي عنه هذا حديث صالح الإسناد لكن فيه انقطاع

عائشة على كرهه منهن . وجواب أم سلمة يشير بذلك ، وهي التي أذهب الله تعالى الغيرة عنها بدعاء رسول الله ﷺ لها بذلك ، ولكنها تعترف أنها لن تبلغ شيئاً وعائشة في حب رسول الله ﷺ لها على شدة حبه لها ، وتدرك مغزاه من الحديث أنه يريد عائشة .

وما أروع اعتراف أم سلمة رضي الله عنها بهذا الحب ، ولا يضيرها أن تقول له أمام الناس جميعاً (فعن أبي قيس مولى عمرو قال: بعثني عبد الله بن عمرو إلى أم سلمة: سلها أكان رسول الله ﷺ يقبل وهو صائم؟ فإن قالت: لا فقل: إن عائشة تخبر الناس أنه كان يقبل وهو صائم فقالت:

لعله أنه لم يكن يتمالك عنها حباً، أما إياي فلا)^(١)

في الوقت الذي كانت عائشة رضي الله عنها تعلقُ على هذا الحديث قائلة:

(... وأيكم يملك إربه كما يملكه رسول الله) .

إنها لتدرك مكانتها وتفخر بأن رسول الله ﷺ قد اختارها ليمرض عندها . بل وتفخر بتسع على ضرائرها وأخواتها فتقول:

(فضلت عليكم بعشر ولا فخر . كنت أحب نسائه إليه ، وكان أبي أحب رجاله إليه وابتكرني ولم يبتكر غيري ، وتزوجني لسبع وبنى بي لتسع ، ونزل عذري من السماء واستأذن النبي ﷺ نساءه في مرضه ، وكان آخره زاده من الدنيا ريقى . . . وقبض بين فجري ونحري ، ودفن في بيتي) .

وإن كنا قد عرفنا الست ، فلتتابع الثلاث المذكورة:

٣ - وكان آخر زاده من الدنيا ريقى:

قالت: مات رسول الله ﷺ في بيتي وفي يومي وفي سحري^(٢)

(١) سير الإعلام للذهبي . وقال المحقق عنه : أخرجه أحمد وسنده جيد .

(٢) السحر: الرثة .

ونحري^(١) فدخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه سواك رطب، فنظر إليه حتى ظننت أنه يريد، فأخذته، فمضغته ونفضته وطيبته، ثم دفعته إليه، فاستن به كأحسن ما رأيت مستنّاً قط، ثم ذهب يرفعه إليّ فسقطت يده، فأخذت أدعو بدعاءٍ يدعو به له جبريل، وكان يدعو به إذا مرض، فلم يدع به في مرضه ذاك، فرفع بصره إلى السماء وقال: الرفيق الأعلى، وفاضت نفسه، فالحمد لله الذي جمع بين ريقٍ وريقه في آخر يوم من أيام الدنيا^(٢).

إنها التربية في آخر يوم من أيام النبي ﷺ في هذه الدنيا. برزت في أربع جوانب. تاركين عنف مشاعر الوداع في جانب آخر.

الأول: نظرة النبي ﷺ إلى السواك كافية لأن تدرك السيدة العظيمة حب النبي ﷺ له ورغبته فيه، وترى كيف كان يعمل فيه عليه الصلاة والسلام عندما يريد أن يستاك.

الثاني: فأخذته ومضغته وطيبته ثم دفعته إليه: وذلك تلبية لتلك الرغبة الدفينة في أعماقه عليه الصلاة والسلام وحبه للسواك. وتهيته له لينفذ حبه ورغبته فهو وصية جبريل له: ما زال جبريل يوصيني بالسواك حتى خشيت أن أردد.

السواك مطهرة للفم مغفرة للذنوب مرضاة للرب.

ولم يدرك عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما ولا كل من في البيت هذه الرغبة الحبيسة عند النبي ﷺ، وأدركتها الصديقة بنت الصديق.

الثالث: وهو أعمق من هذا المظهر، فهي تحفظ الدعاء الذي كان يدعو به عليه الصلاة والسلام بعد السواك. وتعلم أن جبريل عليه الصلاة والسلام كان يعلمه إياه فتدعو به.

(١) النحر: الصدر.

(٢) أخرجه أحمد، والحاكم ووافقه الذهبي.

وكم هي هناة النبي ﷺ وهو في آخر لحظاته من الدنيا يرى زوجته تعلم ما يقر عينه فتفعله، حين يعجز عليه الصلاة والسلام عن ذلك.

الرابع: وهو أعمق من هذه الأمور جميعاً، ويرتبط بهذا الحب الوثيق العميق الذي يجمع هذين القلبين والذي كان يهيم عائشة رضي الله عنها أكثر من أي شيء آخر حتى لتفخر به على صوحيباتها جميعاً أن يخالط ريقها ريقه في آخر أيامه من الدنيا، ولن تصل لهذا الأمر ببساطة، إنه الكلف الذي ليس فوقه حب.

٤ - بل الرفيق الأعلى:

حتى هذه تعطينا منها علماً في ذكائها اللامح، فهي قد سمعت ذات يوم من رسول الله ﷺ أنه ما من نبي حين يقبض إلا يخير، ومن أجل هذا قالت، وقد كان فؤادها كالجبل الأشم وهي ترى روح حبيبها تفيض إلى بارئها:

خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق.
فقد اختار جوارربه على الدنيا الفانية.

٥ - لحظة الوداع الأخيرة:

وها هي ترى نفسها وحدها، وسيد الخلق قد فاضت روحه وهو مستلق في صدرها. وتحدثنا عن هذه اللحظات العنيفة. تعرض صورتها عارية صادقة بكل ما فيها تقول: (مات رسول الله ﷺ بين سحري ونحري وفي دولتي لم أظلم فيه أحداً فمن سفهي وحداثة سني أن رسول الله ﷺ قبض وهو في حجري، ثم وضعت رأسه على وسادة، وقمت التدم مع النساء وأضرب وجهي)^(١).

ولا تنسى فضل الله عليها وهي في هذه اللحظات العنيفة ضرائرها بأن قدر الله تعالى قد جعل وفاته عليه الصلاة والسلام في دولتها وفي يومها المقرر

(١) تهذيب السيرة لابن هشام / ٣٤٢.

لها، وهذا يعني أنه قد أقام عندها يوماً واحداً عن كل زوجة من زوجاته .
وحب الله تعالى لها أن يكون قبض عليه الصلاة والسلام في يومها وتستعمل
التعبير الجميل الأخاذ.

(... وفي دولتي لم أظلم فيه أحداً...).

فهي الغيرة والحب والتنافس حتى في هذه اللحظات، إنه قلب عائشة
العظيم، وإنه لأكبر أمجادها أن يودّع النبي عليه الصلاة والسلام دنياها وهو في
صدرها، وقد خالط ريقها ريقه في آخر لحظات الدنيا عنده .

٦ - نداء إلى المحبين :

ولا بد من فقرة بين أعظم حسيين في هذا الوجود . وإننا لا نجد غرابة
في عظيم الخلق الذي وصفه ربه تعالى : ﴿وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ .

لكننا نعجب من هذه الفتاة حدثه السن، التي لم تتجاوز سن المراهقة،
كيف استطاعت أن تستأثر بقلب سيد الخلق وتستحوذ على حبه حتى ليهون
عليه الموت أنها زوجته في الجنة

لكن صور الحب العظيمة، تدعو كل المحبين والأزواج إلى عظمة هذا
المستوى الرفيع، فلم يكن التعامل بين النبي ﷺ وقد شارف على الستين،
وبين ابنة التاسعة حتى الثامنة عشرة تعاملًا ينطلق من الامثال والواجب، إنما
ينطلق من التفاني في الحب، وتبادل المشاعر. وذلك من خلال هذه الصور
الغنية عن أي تعليق :

آ - (عن أحمد بن حنبل بإسناده أن جارا للنبي ﷺ كان طيب المرق،
فصنع للنبي طعاماً ثم جاء يدعوه فقال وهذه لعائشة قال : لا .

قال النبي ﷺ : لا .

ثم عاد يدعوه فقال وهذه؟ قال : لا . قال النبي ﷺ : لا .

ثم عاد يدعوه الثالثة فقال رسول الله ﷺ نعم في الثالثة .

فقاما يتدافعان حتى أتيا منزله^(١).

ب - كنت مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وكنت جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن فقال رسول الله ﷺ للناس: تقدموا فتقدموا ثم قال: يا عائشة تعالي حتى أسابقك فسابقته فسبقته فسكت. حتى إذا حملت اللحم ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس تقدموا فتقدموا ثم قال تعالي أسابقك فسابقته فسبقني فجعل يضحك ويقول: هذه بتلك^(٢).

ج - عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد بيني وبينه فيبادرني حتى أقول دع لي دع لي (قالت وهما جنبان)^(٣).

د - عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: إني لأعلم إذا كنت علي غضبي قالت فقلت: وبم تعرف ذلك يا رسول الله قال:

إذا كنت عني راضية تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت علي غضبي قلت: لا ورب إبراهيم قلت: أجل ما أهرج إلا اسمك^(٤).

هـ - عن عائشة رضي الله عنها قالت: (خرج رسول الله ﷺ. فلما كنا بالجرف انصرفنا وأنا على جمل. فكان آخر العهد منهم وأنا أسمع صوت النبي ﷺ وهو بين ظهري ذلك السمر وهو يقول:

واعروساه، فقالت: والله إني لعلی ذلك إذ نادى مناد أن ألق الخطام فآلقته فأعلقه الله تعالى بيده^(٥).

(١) أخرجه مسلم.

(٢) السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) متفق عليه.

(٥) أخرجه أحمد.

و- (عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يعطيني العظم فأتعرفه. ثم يأخذه فيديره حتى يضع فاه موضع فمي) (١).

فماذا كان ثمرة هذه التربية؟

عالمة نساء الإسلام

(وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام).
لقد كانت أمة كاملة في العلم والفقه.

قال أبو الضحى عن مسروق: رأيت مشيخة من أصحاب رسول الله ﷺ يسألونها عن الفرائض (٢).

وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأحسن الناس، وأعلم الناس رأياً في العامة (٣).

وقال هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة (٤).

وعن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه قال:
ما رأيت أحداً أروى لشعر من عروة. ف قيل له: ما أرواك يا أبا عبد الله؟! قال: وما روايتي من رواية عائشة؟! ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً (٥).

وقال الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي ﷺ وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل (٦).

وأخرج ابن عبد ربه عن ابن أبي مليكة قال: قالت عائشة: رحم الله لبيداً كان يقول:

(١) مسلم.

(٢) (٤، ٣، ٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ٣٤٨.

(٣) (٦، ٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ٣٤٩.

قَضَّ اللَّبَانَةَ لَا أَبَالَكَ وَادْهَبِ وَالْحَقُّ بِأَسْرَتِكَ الْكَرَامِ الْغَيْبِ
ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ

فكيف لو أدرك زماننا هذا؟!

ثم قالت:

إني لأروى ألف بيت له، وإنه أقل ما أروى لغيره^(١)!!

وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن:

ما رأيت أحداً أعلم بسنن رسول الله ﷺ، ولا أفقه في رأي إن احتيج إليه، ولا أعلم بآية فيما نزلت، ولا فريضة - من عائشة^(٢).

أما علم عائشة بالطب، فنستمع لابن أختها عروة يقول:
إني لأتفكر في أمرِك فأعجب:

أجذك من أفقه الناس، فأقول: ما يمنعها؟ زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر. وأجذك عالمة بأيام العرب وأنسابها وأشعارها، فقلت: وما يمنعها وأبوها علامة قريش؟! ولكن إنما أعجب أن وجدتك عالمة بالطب؛ فأقول: من أين؟!

فتجيبه السيدة عائشة رضي الله عنها:

يا عرِية إن رسول الله ﷺ كثر من أسقامه، فكان أطباء العرب والعجم ينعثون له فتعلمت ذلك^(٣).

وفي رواية ثانية قالت: كنت أمرض فينعت لي الشيء، ويمرض المريض فينعت له، وأسمع الناس ينعت بعضهم لبعض فأحفظه^(٤).

* * *

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣٧٥/٢.

(٣) الإصابة.

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي.

ويكفي أن نعلم أن (مسند عائشة رضي الله عنها يبلغ ألفين ومائتين وعشرة أحاديث اتفق لها البخاري ومسلم على مئة وأربعة وسبعين حديثاً، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين، وانفرد مسلم بتسعة وستين)^(١).

(وكان الشعبي يذكرها، فيتعجب من فقها وعلمها ثم يقول: ما ظنكم بأدب النبوة)^(٢).

* * *

هذا عن علمها أما فصاحتها وبلاغتها فيكفينا شهادتان .

الأولى: لحكيم المسلمين الأحنف بن قيس رضي الله عنه إذ يقول:
(سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء بعدهم، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة)^(٣).

الثانية: لحليم المسلمين وملكهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه إذ يروي القاسم بن محمد (أن معاوية دخل على عائشة فكلما قال: فلما قام معاوية اتكأ على يد مولاها ذكوان فقال:

والله ما سمعت قط أبلغ من عائشة ليس رسول الله ﷺ)^(٤).

* * *

أما كرمها وإنفاقها في سبيل الله، فهذه نماذج عزها نظير في تاريخ الكرماء .

١ - فعن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال: إن معاوية بعث مرة إلى عائشة بمائة ألف درهم فوالله ما أمست حتى فرقتهما. فقالت لها مولاتها:

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي / ١٣٩/٢ .

(٢) المصدر نفسه / ١٩٧/٢ .

(٣) سير الأعلام للذهبي، وقد رواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين .

(٤) المصدر نفسه / ١٨٣/٢ .

لو اشتريت لنا منها بدرهم لحماً. فقالت: ألا قلت لي^(١).

٢ - وتذكر لنا مولاتها أم ذرة صورة أخرى شبيهة بها فقالت: بعث ابن الزبير إلى عائشة بمالٍ في غرارتين يكون مائة ألف، فدعت بطبق فجعلت تقسم بين الناس، فلما أمت قالت: هاتي يا جارية فطوري!

فقال أم ذرة: يا أم المؤمنين أما استطعت أن تشتري لنا لحماً بدرهم؟ قالت: لا تعنيني، لو أذكرتيني لفعلت^(٢).

ذاك أدب النبوة، وهذه تربية النبوة فقد كان رسول الله ﷺ أكرم من الريح المرسلة، ولا تزال تذكر رضي الله عنها يوم اجتمعت مع صويحباتها يطالبن النبي ﷺ في النفقة، ولا تزال تذكر التخيير بين الحياة الدنيا، وبين الله ورسوله والدار الآخرة، فعادت تتصدق كما يتصدق حبسها ونبيها لا تنام وبيات في بيتها درهم واحد.

* * *

ومن نفس الأرومة. يكون الزهد، فالتى تملك مائة ألف درهم، وتنسى أنها صائمة وتنسى أن تبقي درهماً واحداً لفطورها هي التي قال عنها ابن أختها عروة:

إنها تصدقت بسبعين ألفاً، وإنها لترقع جانب درعها^(٣).

لقد علمها الرسول عليه الصلاة والسلام فقال لها:
لا تستخلفي ثوباً حتى ترقيه.

وقال لها: إياك ومجالسة الأغنياء.

فهي تود أن تبقى على عهد رسول الله ﷺ وسلم لها.
وهي التي كانت تقول لابن أختها عروة:

(١) المصدر نفسه وقد رواه الحاكم في المستدرک وأبو نعيم في الحلية.

(٢) المصدر نفسه ورواه ابن سعد وأبو نعيم في الحلية ورجاله ثقات.

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي.

(والله يابن أختي إن كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، قلت: يا خالة، فما كان بعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم مناريح، وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينها^(١)).

إن عظمة الكرم هي أن يتصدق المسلم وهو أحوج ما يكون للمال، وأن يتصدق ويجهز على ماله.

فكيف بها رضي الله عنها، لا تجد عشاء بدرهم، وترقع درعها، ولا تبات إلا وقد تصدقت بمائة ألف درهم.

إن الزهد ليس عجزاً، وليس بخلًا. إن الزهد الحقيقي هو زهد الغني القادر المالك، وإن الكرم ليس من عرض المال، والمال وافر، إن الكرم الحقيقي هو الذي يجهز على المال، وهو أحوج ما يكون إليه، ولا نعلم هذه القمة السامقة في الزهد والكرم إلا في بيت النبوة.

هل لك يا أختاه أن تعيشي هذا الواقع الحي لهذه القمة العملاقة. وأنت مشغوفة بثوبك الجديد، وفستانك الجميل، وأكلتك الشهية. وبين يديك ما تنتعمين به، وتذكرى هذه السيدة المفضالة على نساء العالمين. وتذكرى القيم الحقيقية التي تفخر بها وتتباهى بها وتذكرها على مدار التاريخ. ولا تذكر فيهن أبداً زهدا وكرما، إنما يتحدث الناس عنها بذلك. ويعود عروة رضي الله عنه ليقول لنا:

كانت عائشة لا تمسك شيئا مما جاءها من رزق الله تعالى إلا تصدقت به^(٢).

(١) متفق عليه.

(٢) البخاري.

وعن أبي يمن المكي قال :

دخلت على عائشة رضي الله عنها وعليها درع قطري ثمنه خمسة دراهم فقالت : إرفع بصرك إلى جاريتي فانظر إليها فإنها تزهي^(١) أن تلبسه في البيت .

وقد كان منهن درع على عهد رسول الله ﷺ فما كانت امرأة تقين^(٢) في المدينة إلا أرسلت إليّ تستعيّره^(٣) .

إنه درس تربوي ما أحوج الفتاة المسلمة له .

فالسيدة العظيمة لا تضيّرها أن تلبس الثوب بخمس دراهم تترفع جاريتها من لبسه ، والسيدة العظيمة ، تملك الثوب الذي تستعيّره كل فتيات المدينة ليتزين به .

ولكن الدنيا قد خرجت من قلبها ، فهي صغيرة حقيرة في حسها وفي قلبها .

وهي قادرة على أن تباهي نساء الدنيا بملابسها ، وأثاثها وطعامها ، والأموال تصل إليها بمائة ألف ومائة ألف من كل حذب وصوب ، فلا تبقى في يدها شيئاً .

أختاه المسلمة ، كم تحلمين بأيام زفافك وعقدك وأنت تطلّبين العقد والجوهر والزينة من خاطبك تتحلّين به أمام قريناتك . هلا تنظرين معي إلى هذا الأفق .

(فعن عطاء قال :

بعث معاوية إلى عائشة رضي الله عنها بطبق من ذهب فيه جوهر قوّم

(١) تزهي : أي تترفع عنه ولا ترضاه .

(٢) تقين : أي تزين لزوجها .

(٣) السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين للمحب الطبري / ٦١ .

بمائة ألف فقسمته بين أزواج النبي ﷺ^(١).

وفي رواية (بقلادة بمائة ألف فقسمتها بين أمهات المؤمنين)^(٢) ومع ذلك . فهذا لا يحرم الزينة على فئاتنا المسلمة .

والمربية العظيمة . تعلمنا ذلك فتلبس أنواع الزينة أحياناً حتى تزيل ذلك الإلباس فابن أخيها القاسم بن محمد يقول :

كانت عائشة تلبس الأحمرين الذهب والمعصفر وهي محرمة^(٣) وقال ابن أبي مليكة : رأيت عليها درعاً مضرجاً^(٤) .
وعن معاذة العدوية قالت : رأيت على عائشة ملحفة صفراء^(٥)

وعن عمرو بن أبي عمرو قال : سألت القاسم بن محمد ، قلت : إن ناساً يزعمون أن رسول الله ﷺ نهى عن الأحمرين المعصفر والذهب ، فقال : كذبوا والله لقد رأيت عائشة تلبس المعصفرات ، وتلبس خواتم الذهب^(٦) .

وعندما يكون لفئاتنا المسلمة زوج فالأمر يصبح أكثر أهمية .

قال معلى بن أسد حدثنا المعلى بن زياد ، قال : حدثتنا بكرة بنت عقبة : أنها دخلت على عائشة وهي جالسة في معصرة فسألته عن الحناء ، فقالت : شجرة طيبة ، وماء طهور وسألته عن الحفاف^(٧) فقالت لها :

إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك ، فتصنعيهما أحسن مما هما فافعلي^(٨) وذلك لحرمه الزوج وضرورة التزين له^(٩) .

(١) المصدر نفسه / ٦٢ .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي / ١٨٧ / ٢ .

(٣) و (٤) و (٥) و (٦) المصدر نفسه ١٨٨ / ٢ ، ١٨٩ .

(٧) الحفاف : إزالة الشعر من وجه المرأة .

(٨) سير أعلام النبلاء قال المحقق : إسناده صحيح .

(٩) وهذا الحفاف هو غير تنف الحاجب الذي لعنه رسول الله ﷺ بقوله : لعن الله ... والمتنمصات .

ثم ماذا عن عبادتها .

أما عن صلاتها فنذكر أنها في سن مراقبتها، كانت تنام وهي معترضة
قبلة الرسول ﷺ، وأنها كثيراً ما كانت تمضي ليلها نائمة ورسول الله ﷺ
يمضي ليله قائماً متهجداً .

وقالت :

كان رسول الله ﷺ يصلي ركعتي الفجر فإن كنت مستيقظة تحدث
معي ، وإلا اضطجع حتى يؤذن للصلاة^(١) .

لكن بعد أن تجاوزت هذا السن . فقد ذكر لنا ابن أختها عروة قال :

(كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة رضي الله عنها فأسلم عليها فغدوت
يوماً فإذا هي قاعدة تسبح وتقرأ ﴿فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْنَا وَوَقَّانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ وتدعو
وتبكي وتردها فقممت حتى مللت القيام . فذهبت إلى السوق لحاجتي ثم
رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي)^(٢) .

أما صومها .

فعن عروة (أن عائشة رضي الله عنها كانت تسرد الصوم . وعن القاسم أنها
كانت تصوم الدهر ولا تفطر : لا يوم أضحي أو يوم فطر)^(٣) .

* * *

أما عفافها وحيائها

فعنها رضي الله عنها قالت : (كنت أدخل البيت الذي دفن فيه رسول الله
ﷺ وأبي واضعة ثوبي وأقول إنما هو زوجي وأبي ، فلما دفن عمر ، والله ما

(١) السمط الثمين : وقد أخرجه مسلم .

(٢) السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين / ٦٤ .

(٣) المصدر نفسه / ٦٤ .

دخلته إلا مشدودة عليّ ثيابي حياة من عمر^(١).

* * *

وأخيراً عن توبتها وإنابتها إلى الله عزّ وجلّ، فهي تذكر أمرين جليلين كثيراً ما كانت تندم عليهما.

أما الأول: فخروجها بعد فتنه عثمان رضي الله عنها ومشاركتها في وقعة الجمل، وكل ما كانت تبغيه أن يصلح الله تعالى الناس على يديها، ومع ذلك لم يكن يفارقها الندم لذلك.

(فعن عمارة بن عمير عن سمع عائشة إذا قرأت ﴿وقرن في بيوتكن...﴾ بكّت حتى تبل خمارها)^(٢).

(وعن ابن أبي عتيق قال قالت عائشة إذا مرّ ابن عمر فأرونيّه، فلما مرّ بها. قيل لها: هذا ابن عمر، فقالت: يا أبا عبد الرحمن ما منعك أن تنهاني عن مسيري؟ (أي يوم الجمل) قال: رأيت رجلاً قد غلب عليك)^(٣) (يعني ابن الزبير).

(وعن قيس قال: قالت عائشة وكانت تحدث نفسها أن تدفن في بيتها. فقالت: إني أحدثت بعد رسول الله ﷺ حدثاً، أدفنوني مع أزواجه، فدفنت بالبقيع رضي الله عنها)^(٤).

قلت: تعني بالحدث مسيرها يوم الجمل فإنها ندمت ندامة كلية وتابّت من ذلك على أنها ما فعلت ذلك إلا متأولة قاصدة للخير كما اجتهد طلحة

(١) المصدر نفسه ٦٤.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ١٧٧/٢.

(٣) المصدر نفسه ١٧٧/٢ وقال المحقق: ذكره الزيلعي في نصب الراية ونسبه لابن عبد البر في الاستيعاب.

(٤) المصدر نفسه ١٧٧/٢ قال المحقق: أورده ابن سعد وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

والزبير وجماعة من الكبار رضي الله عن الجميع^(١).

أما الثاني : فتوبتها عن نذرها أن لا تكلم ابن أختها عبد الله بن الزبير :

(فعن عوف بن الطفيل بن الحارث - وهو ابن أخي عائشة لأمها) قال :

(إن عائشة بلغها أن عبد الله بن الزبير كان في دار لها باعتهما،

فتسخط^(٢) عبد الله بن الزبير ببيع تلك الدار فقال : أما والله لنتهين عائشة عن بيع رباعها أو لأحجرن عليها.

قالت عائشة : أو قال ذلك ؟ قالوا : قد كان ذلك ، قالت : لله علي لا

أكلمه حتى يفرق بيني وبينه الموت . فطالت هجرتها إياه ، فنقصه الله بذلك في أمره كله ، فاستشفع بكل أحد يرى أنه يثقل عليها ، فأبى أن تكلمه .

فلما طال ذلك ، كلم المسور بن مخرمة ، وعبد الرحمن بن الأسود أن يشملاه بأرديتهما ثم يسأذنا فإذا أذنت لهما قالوا : كلنا ؟ حتى يدخله على عائشة ، ففعلا ذلك . فقالت : نعم كلكم فليدخل . ولا تشعر . فدخل معهما ابن الزبير . فكشف الستر فاعتنقها . وبكى ، وبكت عائشة بكاء كثيراً وناشدها . ابن الزبير والله والرحم ، ونشدها مسور وعبد الرحمن بالله والرحم . وذكرها لها قول رسول الله ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » . فلما أكثروا عائشة من التذكير والتحريض طفقت تذكرها وتبكي وتقول : إني نذرت والنذر شديد ، فلم يزل بها حتى كلمت ابن الزبير ، ثم بعثت إلى اليمن بمال فابتيع لها أربعون رقبة فأعتقتها وكانت تذكر نذرها بعد ذلك وتبكي حتى تبل خمارها^(٣).

وها نحن نودع الصديقة العظيمة في آخر لحظات حياتها .

(١) المصدر نفسه ١٧٧/٢ .

(٢) تسخط : سخط وانزعج .

(٣) أخرجه البخاري .

(فعن ذكوان - مولى عائشة - قال : جاء ابن عباس رضي الله عنهما يستأذن على عائشة ، وهي في الموت ، قال : فجئت وعند رأسها عبد الله بن أخيها عبد الرحمن ، فقلت : هذا ابن عباس يستأذن . قالت : دعني من ابن عباس - وفي رواية : أخشى أن يشني علي - لا حاجة لي به ولا بتزكيتيه ، فقال عبد الله : يا أمّه إن ابن عباس من صالح بنيك يودعك ويسلم عليك . قالت : فائذن له إن شئت . قال : فجاء ابن عباس ، فلما قعد قال : أبشري . فوالله ما بينك وبين أن تفارقي كل نصب ، وتلقي محمداً والأحبة إلا أن تفارق روحك جسداً .

قالت : أيها يا ابن عباس ! قال : كنت أحب نساء رسول الله ﷺ إليه - ولم يكن يحب إلا طيباً - سقطت قلادتك ليلة الأبناء ، وأصبح رسول الله ﷺ ليلقظها فأصبح الناس ليس معهم ماء فأنزل الله تعالى ﴿ تيمموا صعيداً طيباً . ﴾ فكان ذلك بسببك ، وما أنزل الله بهذه الأمة من الرخصة ، ثم أنزل الله تعالى براءتك من فوق سبع سموات فأصبح ليس مسجد من مساجد يذكر فيها اسم الله إلا براءتك تتلى فيه آناء الليل والنهار .

قالت : دعني منك يا ابن عباس ، فوالله لوددت أني كنت نسياً منسياً^(١) .

* * *

عائشة ومريم :

إنها تريد رضي الله عنها أن تكون نسياً منسياً من خوفها من ربها . كما دعت أختها مريم بنت عمران ذلك ، ولكن أنى لهما ، وهما في ضمير المؤمنين في الأرض ذكراً خالداً لا يبلى . وقد أنزل الله تعالى براءتهما في كتابه المنزل .

(١) إسناده صحيح وأخرجه أحمد وابن سعد .

إنها تخشى الثناء عليها، بل وتكرهه. وأي امرأة في الدنيا لا يستخفها الثناء ويطربها المديح. لكن سيدة النساء العظيمة، ترتجف منه وتود لو أنها نسياً منسياً.

وحتى عندما تذكر مآثرها، تذكرها علماً تقدمه للناس لا فخراً على الأخريات ونيتها. كما تقول رضي الله عنها لعبد الله بن صفوان وقد أتاها:

لي خلال تسع لم تكن لأحد إلا ما أتى الله مريم عليها السلام. والله ما أقول هذا فخراً على صواحباتي: فقال ابن صفوان: وما هن: قالت: جاء الملك بصورتي إلى رسول الله فتزوجني، وتزوجني بكرةً، وكان يأتيه الوحي، وأنا وهو في لحاف! وكنت من أحب الناس إليه. ونزل في آيات كادت الأمة تهلك فيها، ورأيت جبريل، ولم يره أحد من نسائه غيري، وقُبض في بيتي لم يليه أحد غير المَلَك وأنا^(١).

ورضي الله عن عائشة وأرضاها، ربيبة بيت النبوة. وأعلا ذكرها في العالمين.

(١) صححه الحاكم. ووافقه الذهبي.

أم سلمة والتربية بالسُّنة

أم سلمة رضي الله عنها أو هند بنت أبي أمية المخزومي؛ علم من أعلام التربية الإسلامية الخالدة. نفق مع حديث روته لنا ننهل من معينه دروساً رائعة في التربية.

ها هي تفقد أغلى ما في حياتها حين وصلها نبأ استشهاد زوجها أبي سلمة رضي الله عنه، إنها في لحظات الصدمة العنيفة، والخبر المفجع، يرد على بالها ذلك الخاطر الحبيب إلى نفسها وهي تصغي إلى رسول الله ﷺ في موعظته البليغة:

(ما من مسلم مصيبة فقال ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي، وأخلف لي خيراً منها؛ إلا أخلف الله له خيراً منها).

وها هو لسانها يردد: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها - استجابة لأمر الله ورسوله. ثم تقف عند هذه الجملة: إلا أخلف الله له خيراً منها، وتساؤل نفسها: ومن خير من أبي سلمة؟ ما لها وللرجال، إن زوجها العظيم الذي عاشت عمرها معه تفكر في بديل عنه؟! معاذ الله، إنها تطرد الهاجس من فكرها سريعاً.

وكلما بدأت أسماء الرجال تلتمع في ذهنها؛ تستغفر الله. ما لها وللناس، ومن في الناس مثل أبي سلمة؟! أول مهاجر إلى الله ورسوله في دار هجرته.

أَوْ تَنسَى تِلْكَ الْأَيَّامَ الْخَوَالِي الَّتِي قَطَعْتَ بِهَا الصَّحْرَاءَ وَحِيدَةً مَعَ الْوَحْشَةِ وَاللَّيْلِ وَالْغُرْبَةِ؛ حَتَّى تَلْحَقَ بِزَوْجِهَا فِي قَبَاءٍ؟! وَتَرْجِعَ بِهَا الذَّاكِرَةَ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ إِلَى الْوَرَاءِ.

أَوْ تَنسَى ابْنَهَا سَلْمَةَ، وَقَدْ خُلِعَتْ يَدُهُ بَيْنَ أَهْلِهَا وَأَهْلِ زَوْجِهَا ثُمَّ تَسْتَعِيدُ ذَلِكَ الرَّجِيعَ يَوْمَ سَجْنِهَا أَهْلَهَا وَحَالُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْهَجْرَةِ؟!

أَوْ تَنسَى تِلْكَ الْأَيَّامَ السُّودَ وَهِيَ تَخْرُجُ خَائِثًا كُلَّ يَوْمٍ تَبْكِي مَا شَاءَ اللَّهُ لَهَا أَنْ تَبْكِي حُزْنَ عَلَى فِرَاقِ زَوْجِهَا الْحَبِيبِ؟ وَالْحُزْنَ الْأَكْبَرَ عَلَى بَعْدِهَا عَنْ أَخَوَاتِهَا الْمُسْلِمَاتِ رَهِينَةَ بَيْدِ الشُّرْكِ.

إِنْ قَلْبُهَا لِيَتَفَطَّرَ، تَذْكُرُ دَمْعُهَا الْمَدْرَارَ، ثُمَّ تَحْسُ بِدَمْعَاتِ غَزَارِ تَهْطُلُ مِنْهَا تَبَلُّلٌ وَجَتَّتِيهَا. هِيَهَاتَ، لَقَدْ مَضَى زَوْجُهَا الْحَبِيبَ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ، وَبَدَأَ الْأَلَمَ وَالْحُزْنَ يَتَجَدَّدُ؛ فِيهِيجُ النَّفْسَ لِلنَّحِيبِ فَتَسْتَجِيبُ. ثُمَّ تَذْكُرُ مَوْعِظَةَ نَبِيِّهَا لَهَا فَتَرُدُّ:

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أَجْرْنِي فِي مَصِيبَتِي وَأَخْلَفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا).

ثُمَّ تَعْلَمُ وَالْغَصَّةُ فِي حَلْقِهَا: مِنْ خَيْرٍ مِنْ أَبِي سَلْمَةَ؟

وَتَنْظُرُ إِلَى ابْنَتِهَا زَيْنَبَ زَهْرَةَ لَمْ تَتَفَتَّحْ الْأَكْمَامَ عَنْهَا بَعْدَ؛ فَتَضْمُمُهَا إِلَى صَدْرِهَا وَتَوَدِّعُهَا فِي قَبْلَةٍ كُلِّ مَا تَمْلِكُ مِنْ حَنَانٍ، وَتَذْكُرُ أَنَّهَا صَارَتْ يَتِيمَةً بَلَا مَعِيلَ، فَيَشْتَدُّ الْأَلَمُ. وَتَذْكُرُ الدُّعَاءَ، وَتَسْتَجِيبُ الْمُسْلِمَةَ الصَّابِرَةَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ:

(إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، اللَّهُمَّ أَجْرْنِي فِي مَصِيبَتِي وَأَخْلَفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا).

وَتَكْرُرُ الدُّعَاءَ إِذْعَانًا وَاسْتِسْلَامًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ.

وَتَمُرُّ الْأَيَّامَ بِطَيِّئَةٍ ثَقِيلَةٍ، وَيَخْفُفُ وَحَرُّ الصَّدْرِ وَسَعِيرُ الْأَلَمِ، وَتُشَارَفُ عَلَى مَغَادِرَةِ أَيَّامِ الْحَدَادِ - أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا - وَالشَّهِيدِ الْغَالِي فِي قَلْبِهَا قَرِيرَ.

لقد كان يملأ حياتها سعادة وطمأنينة وهناءة، وبدأت تفكر في هدوء:
وأخلفني خيراً منها.

إنها عن الرجال عازفة، ولها في ابتها شغلاً عن الناس، وفي سنّها عزوفاً عن الزواج.

ولكن رسول الله الصادق المصدق يؤكد: (إلا أخلفه الله خيراً منها).

ترى من يقدم لخطبتها وهي المسنة ذات العيال؟

وهي مؤمنة مستسلمة لله تكرر الدعاء استجابة لأمر الله ورسوله.

* * *

انقضت العدة، وبدأ القلق يساورها من الخاطبين، وودت لو تغلق بابها عليها؛ فما لها من أرب بالرجال بعد أبي سلمة.

وتقدم أبو بكر الصديق لخطبتها.

أهو هو، خير من أبي سلمة: ثاني إثنين إذ هما في الغار. وأول الأمة إسلاماً. ومن وصى رسول الله بنفسه وماله.

وعادت صورة أبي سلمة تحتل ذهنها وتملاً عليها حياتها. فاعتذرت في رفق، إنها لا تريد الرجال. ولكن كيف تفعل بحديث رسول الله صلوات الله عليه: (إلا أخلفه الله خيراً منها).

* * *

وما كادت يقر لها قرار حتى خطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أهو هو، خير من أبي سلمة: فاروق الأمة، من أعز الله به الإسلام. إنها لتعرف من عمر، وما مثلها يجهله. ومع ذلك فلا يبي سلمة في قلبها من الحب والإكبار ما لا يطاله عمر، واعتذرت في رفق.

ولا يزال صوت رسول الله ﷺ يرن في أذنها: (إلا أخلف الله له خيراً

منها)، وتخشاه في الوقت نفسه من أعماقها. ولكن أبا سلمة شاخص أمام عينيها في زاوية الغرفة في صحن الدار، في الفراش عندما تأوي إليه، ثم تضم زينب إلى صدرها، وتغيب عن دنياها، فهي دنياها مع بقية أحبابها الصغار: مع سلمة الذي اقترب من الخامسة من عمره.

يدرج كزهر الربيع النضير. والله كفيل بإعالة يتاماها.

* * *

وأشرقت الشمس عليها ذات صباح، وهي تحس في نفسها بخدر غريب من النشوة الحاملة لا تدري مصدرها لها!! ومضت سحابة من النهار لتنتبه على طرق الباب عليها، وعرفت أنه حاطب بن أبي بلتعة؛ ترى يريد الزواج؟! والتي اعتذرت برفق لوزير رسول الله صلوات الله وسلامه عليه؛ أفلا تعتذر لحاطب؟

لكنها فوجئت بالنبا المذهل: إنه يخطبها لرسول الله!!

أم سلمة... لرسول الله؟!

يا لها من أمنية أغلى من قبض القمر عندها، أو ترنو في الدنيا إلى أعظم من سيد الخلق ليكون لها زوجاً وتصبح أماً للمؤمنين في الأرض؟! ماذا تجيب؟

وتتوارد الخواطر العنيفة، فتتلعث ماذا تجيب!!

أبو سلمة المهاجر المجاهد الشهيد، سلمة وزينب ريحانها في الوجود، عائشة وحفصة زوجتان في بيت النبي ﷺ.

من هي حتى يتزوجها رسول الله؟! (إلا أخلف الله له خيراً منها).

وقفز أعنف خاطر وأحبه لتقل: نعم نعم بملء فيها.

ثم يقع بصرها على زينب الحبيبة، ألا يمكن أن تؤذي رسول الله في

بيته، أو ترضى لنفسها أن تكون مصدر إزعاج لنبينا عليه الصلاة والسلام؟! زوجات الرسول في البيت ما دورها بالنسبة لهن؟ ألا يمكن أن تكون العاطفة النبيلة من رسول الله ﷺ لمواساتها في جرحها الغائر، وحنواً عليها للتخفيف من مصيبتها الفاجعة - هو الذي دفعه لطلبها عليه الصلاة والسلام؟!

وكان لا بد من جواب، فحاطب بن أبي بلتعة في الباب .

حزمت أمرها وقالت وهي تعلم أنها تخسر العز العظيم بين الناس، وليكن، فمرضاة رسول الله أهم بكثير من تلبية عواطفها المضطربة - قالت كلمتها الحاسمة :

(إن لي بتاً وأنا غيور) .

أو (إني مسنة، غيري، ذات عيال) .

ومضى حاطب بالخبر، وأغلقت الباب ضارعة في قلبها إلى الله، والصوت يرن في أعماقها: (إلا أخلف الله له خيراً منها) .

وأمسكت رأسها بيدها تحاول أن تدفع التفكير فلا تجد سبيلاً إلى ذلك .

ثم يُطرق الباب ثانية فتفتيق من ذهولها وشرودها مرتاعة، حاطب يعود ثانية فيخفق قلبها بعنف وتسمع الجواب :

(أما أنك مسنة، فأنا أكبر منك . وأما الغيرة، فيذهبها الله عنك . وأما العيال فألى الله ورسوله) .

قالت على مسمع الدنيا بعد أن أعذرت إلى الله ورسوله : نعم .

وندع لها رضي الله عنها أن تحدثنا بهذه القصة الرائعة؛ فتقول: (ما من مسلم تصيبه مصيبة فقال ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها. قالت: فلما مات أبو سلمة رضي الله عنه، قلت: أي المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول

بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها فأخلف الله تعالى لي رسول الله ﷺ. قالت فأرسل إليّ رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة يخطبني له، فقلت: إن لي بنتاً وأنا غيور فقال ﷺ: أما ابتنها فندعو الله يغنيها عنها. وأدعو الله أن يذهب بالغيرة^(١).

* * *

ونقف لتتعلم بعض دروس التربية من خلال هذا النص:

١ - المسلمة العالمية: فأمر سلمة هي التي نقلت لنا هذا الحكم الشرعي، ما يقوله المسلم عند المصيبة إذا ألمت به. وكم من أحكام الإسلام فقهنها من النسوة الخالدات في تاريخنا العظيم.

٢ - المسلمة الداعية: فلقد نقلت لنا الحديث رضي الله عنها بالأسلوب الذي يقربه إلى أذهاننا، بحيث مثلته واقعياً حياً لا كلاماً نظرياً بحتاً، ومن خلال المعاناة الشخصية المباشرة.

٣ - المسلمة المربية: فهي التي أعطتنا في هذا المجال من الدروس ما لا يحصى، ومن خلال نص مقتضب واحد.

٤ - وفاء المرأة لزوجها: إن عليها أن ترى أن زوجها هو مثلها الأعلى، ورسول الله عليه الصلاة والسلام مهما كان هذا الزوج. وأن يحيا هذا في شعورها وتؤمن به الإيمان الذي لا يتزعزع؛ لتستقر حياة الأسرة في عشاها الهانئ الهادئ.

٥ - التقويم من خلال العقيدة: فعظمة أبي سلمة في ذهنها ليس بمقدار ما يقدم لها من لباس وزينة، أو يهوى لها من طعام وشراب؛ بل عظمتها في نفسها أنه أول مهاجر إلى الله ورسوله.

٦ - المسلمة الملتزمة: فليست علاقتنا مع نصوص الشريعة علاقة حفظ

(١) أخرجه مسلم ومالك وأبو داود والترمذي.

وانتهى الأمر، أو علاقة إعجاب على أحسن تقدير، أو علاقة خاطر يرد للذهن ويمضي، بل علاقة عمل وتطبيق. إنها بمثابة الأوامر للجندي في الميدان، ينتظر لحظة الأمر ليستجيب.

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾.

٧ - المسلمة المؤمنة: وليس تطبيق النصوص ناتجاً عن عادة أو إجبار أو تكليف؛ بل عن قناعة وجدانية لا يتطرق إليها الشك أدنى ذرة:
(فقلتها)، فأخلف الله لها خيراً منها.

٨ - المسلمة المخلصة: فلقد صدقت مع الله فصدق الله معها وأثابها سيد الخلق لتكون من زوجاته في الدنيا والآخرة.

٩ - المسلمة العظيمة: وسرّ عظمتها في رأي أنها لم تستجب لعواطفها مع أول وهلة؛ لأنها تعلم مدى خطورة كونها زوجاً لرسول الله ﷺ وما يقتضي ذلك من تكاليف ومسؤولية، خافت أن تؤذي رسول الله في سننها وغيرتها وابتنتها، فاعتذرت عن أشرف كرامة سيقّت لها.

١٠ - المسلمة الصابرة: فلم تقابل المصيبة بالنواح والنحيب وشق الجيب ولطم الخدود، حتى ولا الدعاء بالويل والثبور على نفسها، بل التزمت بالحديث الذي علمها إياه رسول الله، صابرة محتسبة أجرها عند الله.

١١ - المسلمة الأم: فابتنتها الصغيرة تحتاج إلى عناية ورعاية وهي على استعداد أن تعاني شظف العيش، ولأواء المحنة؛ لتتمكن من تربية ابنتها والحنوّ عليها، ورعايتها الرعاية المطلوبة. وتعتذر - كما قالت - عن أشرف كرامة سيقّت إليها في سبيل هذه الطفلة النامية.

١٢ - المسلمة الأنثى: إنها لا تكابر في المحسوس، ولا تنكر الواقع؛ فهي تعلم عنف غيرها وشدتها، فمن الذي يضمن أن لا تخرج عن طورها من

جراء هذه الغيرة، فتقع في سخط الله وغضبه في لحظة من لحظات غيرتها الجامعة؟!!

١٣ - المسلمة الواقعية: فالنساء اللاتي فتنهن الدنيا، وجثمت في صدورهن يعبدنها: يتجاهلن سنهن، ويحسن أنفسهن في ميعة الصبا وشرح الشباب، ويعكفن على دنياهن عابدات مهما امتد بهن الزمن. أما أم سلمة فهي التي تقول لخاطبها رسول الله ﷺ: إنها مسنة.

١٤ - المسلمة اللبية الذكية: فهي تدرك بثاقب نظرها أن رسول الله ﷺ لن يدعها دون توجيه، وهو يراها تعرض بين يديه همومها وواقعها. وكان ما حسبتها، دعا رسول الله ﷺ لغيرتها أن تذهب عنها، ولابتتها أن تكون في رعاية الله ورسوله.

وما أحوجنا في حياتنا إلى أن نستعمل حصافة التفكير وحسن الأسلوب، للوصول إلى الهدف المنشود، خاصة بين المدرسة المربية وطالباتها المتعلمات.

١٥ - المسلمة الأمينة: فهي يوم تنقل واقعها لخاطبها رسول الله ﷺ صلوات الله وسلامه عليه؛ تعلمنا درساً عظيماً في الحياة العملية: أن نتخلص من أسر التزوير المقيت، والمخادعة الكاذبة في التجميل والزينة، وإظهار المحاسن المموهة لدرجة تغيير خلق الله؛ حرصاً على الصيت والثناء والمديح.

١٦ - المسلمة الخالدة: وهكذا دخلت أم سلمة تاريخنا الإسلامي؛ أما للمؤمنين في الأرض كل الأرض، وللمؤمنين كل المؤمنين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها في الدنيا والآخرة. ولم يكن بإمكانها أن تبلغ هذا المرتقى العظيم لولا ماضيها العظيم من جهادها في سبيل الله، وهجرتها إلى الله ورسوله، واستعدادها لأن تخسر حياتها كلها في سبيل الالتحاق بركب الإسلام العظيم.

١٧ - المسلمة الرائدة: فهل لك يا أختاه المسلمة أن تحتذي بخطا أم سلمة في البناء والتربية. وأن تحرصي على أمثال هذه المفآخر لتعيدى لنا ذلك الواقع حياً ينبض فى حياتنا اليوم، وتنهلى من معين السنة النبوية مورد التريبة العظم! «وفى ذلك فليتنافس المتنافسون».

* * *

أم سلمة والتربية بالقدوة

المؤمنون مغتبطون في المدينة، يتبادلون التهاني، وكأنهم في عيد، كل واحد منهم يتأهب للمسير مع رسول الله ﷺ إلى البلد الأمين، فلقد رأى رسول الله في نومه أنه يطوف حول البيت ورؤيا النبي حق، وما رأى رسول الله رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح.

إنهم يحلمون في تلك اللحظة التي تطأ أقدامهم فيها ثرى مكة الطاهر، ويلثمون الحجر الأسود، ويعانقون الملتزم، ويسعون بين الصفا والمروة، ست سنين من الهجرة والغربة والوحشة. وأذن الله أن يعود البيت إلى العصابة المؤمنة في الأرض.

* * *

هبط المسلمون على مشارف مكة، ونزلوا عند الحديبية على بعد أميال من مكة وتجاوزوا وعشاء الطريق المدمي بالطموح الحي في قلوبهم أن ينزلوا إلى مكة ويطوفوا بالبيت العتيق.

لولا أن أصغوا إلى رسول الله وهو يتحدث عن برك ناقة:

(والله ما خلأت وما هولها بخلق، لقد حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعوني قريش اليوم إلى أمر فيه بر أو صلة رحم إلا أجبتهم إليه).

وراحوا يفكرون في هذه المقالة: (حبسها حابس الفيل عن مكة):

﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في

تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول .

ترى هل يمنعون من دخول البيت الحرام؟ هل يمكن أن لا تكتحل عيونهم بمرآه . وطرردوا هذه التساؤلات من أذهانهم ، فرؤيا الأنبياء حق . وما رأى رسول الله رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح .

* * *

وتم توقيع هدنة الحديبية بعدم دخول مكة هذا العام ، ومن شروط هذه الهدنة أن يعود رسول الله ﷺ إلى المدينة عامه هذا ويدخلها معتمراً في العام القادم ، معه فقط سلاح المسافرين - السيوف في القرب - .

وشهدوا ثورة ابن الخطاب العنيفة وهو ينتقل بين رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق : يا رسول الله ألسنا على حق؟

بلى .

أليسوا على الباطل؟

بلى .

ففيم نعطي الدنية في ديننا؟

إني رسول الله ولن يضيعني .

ألم تحدثنا يا رسول الله أننا نطوف بالبيت العتيق؟!

وهل قلت لكم عامي هذا .

لا .

فإنك آتيه ومطوف به .

* * *

وكم كان الفرق هائلاً بين ما يريد الله ورسوله لهذه الأمة، وبين ما يريد المسلمون لأنفسهم من خير.

فلقد منَّ الله على المؤمنين بعدم دخول مكة هذا العام وبتوقيع هدنة الحديبية بما يلي :

١ - الحفاظ على أرواح المؤمنين والمؤمنات الموجودين في مكة من أن يقتلوا في قلب المعمة : ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾^(١).

٢ - انتشار الإسلام في الأرض العربية، حيث دخلت القبائل كلها في الإسلام بعد الهدنة. ويكفي أن نعلم أن الجيش الإسلامي قد ارتفع عدده من ألفين عند هدنة الحديبية إلى عشرة آلاف عند فتح مكة.

٣ - كانت أول اعتراف رسمي من المشركين بقوة المسلمين وكان هذا الدافع الأكبر لدخول الناس في دين الله؛ طالما أن الحرب قد توقفت عشر سنين بين أهل مكة ومحمد رسول الله ﷺ.

٤ - انتشار الإسلام في العالم: فلقد وصلت رسل الإسلام إلى كسرى ملك الفرس، وقيصر أمبراطور الروم، كما وصلت إلى المقوقس في مصر، وقال قيصر كلمته التاريخية المشهورة: ليتني كنت عنده فأغسل عن قدميه.

وصكت هذه الكلمة آذان أبي سفيان فقال: بلغ أمر ابن أبي كبشة أن يهابه ملوك بني الأصفر!!

٥ - تمت تصفية اليهود في الجزيرة العربية، وأفنيت قواتهم في غزوة خيبر، وكما قال الحجاج بن علاط السلمي للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: والله لقد تركت محمداً زوجاً على بنت ملكهم (ملك اليهود).

(١) سورة الفتح: الآية ٢٥.

٦ - استطاع المسلمون المستضعفون في مكة أن يشكّلوا قوة فدائية هددت أمن مكة ونشرت الذعر في صفوف المشركين، حتى بعث المشركون كتاباً إلى النبي ﷺ يرجونه أن يقبل في دولته هؤلاء الفدائيين، بعد أن كانوا ممنوعين بنصّ المعاهدة من دخول المدينة.

٧ - دخلوا مكة بعد عام، ومكثوا فيها ثلاثة أيام، واعتمروا دون أن تجرؤ يد على أن تمتد لهم بسوء. وحقق الله موعود نبيه ورؤياه.

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾^(١).

٨ - ومن أجل هذا كله سمى الله تعالى هدنة الحديبية فتحاً مبيناً فقال: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً. وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾^(٢).

نعود بعد عرض عظمة هدنة الحديبية ونتائجها الخالدة، إلى الجيش الإسلامي هناك وهو يفكر بقصوره البشري.

* * *

في القلوب حرقه، وفي النفوس أسى، وفي الصدور لوعة، وفي المآقي دموع متحجرة، ونفثات حرّى تهزّ كيان المسلمين جميعاً - أيعودون مقهورين دون أن يدخلوا مكة؟!

وسمعوا نداء الرسول ﷺ لهم: قوموا فانحروا ثم احلقوا ها هي عيونهم مسمرة برسول الله صلوات الله وسلامه عليه، هل يعون ما يسمعون؟! ماذا؟ أيعودون ولم يدلفوا إلى مكة؟! إن مكة مقيمة في أفئدتهم، والبيت العتيق قابع

(١) سورة الفتح: الآية ٢٧.

(٢) سورة الفتح: الآيات ١ - ٣.

في كل ذرة من كيانهـم . ونداء آخر من رسول الله ﷺ أن ينحروا من هديهم ويحلّقوا رؤوسهم ، ويحلّوا من إحرامهم ؛ ولم يتغير موقفهم ، إن بينهم وبين مكة أميالاً معدودة ، ورؤيا رسول الله ﷺ مثل فلق الصبح ، ولا يمكن أن تتخلف . ومرة ثالثة أوامر النبي ﷺ تصدر والمسلمون لا يحركون ساكناً ؛ كيف يعودون بلا طواف ولا سعي ولا عمرة ؟ !

إن الأمل الحلّ لا يزال يداعب أفئدتهم في دخول مكة طالما أن رسول الله ﷺ لم يحل من إحرامه بعد .

* * *

ودخل رسول الله ﷺ على أم سلمة ، وذكر لها ما لقي من الناس : (قال لهم قوموا فانحروا وأحلّقوا ، فوالله ما قام منهم أحد) !!

وتفتت ذهنها عن عبقرية نادرة قلّ نظيرها في التاريخ ، ولا بدّع في ذلك فهي تربية النبي ﷺ .

قالت : (يا نبي الله أتحب ذلك ؟ ! أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلّقك) .

الأمر اللفظي لم يحرك ساكن أحد طالما أن رسول الله ﷺ لا يزال في إحرامه ، لكن الأمر العملي هو الذي حسم الأمر ، فلم يعد للمسلمين عذر في التلكؤ بعد أن وجدوا رسول الله ﷺ يحل من إحرامه ، ويحلّق رأسه :

(فخرج فلم يكلم أحداً حتى فعل ذلك ، نحر بُدْنه ، ودعا حالقه فحلّقه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا . وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً) !!

* * *

درس تربوي خالد فقهناء من أم سلمة رضي الله عنها ، خريجة بيت

النبوة؛ عن دور القدوة العملية في التربية. ونتمنى من معلمائنا أن يفقهون خطورته في ذلك.

أختاه يا مربية أطفالنا ويا أمينة فلذات أكبادنا:

إن الكلمة الطيبة التي تتكلمين بها سوف تجدينها على لسان طالباتك منتشرة انتشار النار في الهشيم. وكذلك الكلمة السيئة التي تندّ منك سوف ترسخ في أعماقهن، ولولو جهتهن ألف مرة للتخلي عنها.

والمعلمة التي لا تحضر دروسها إلا خوفاً من الموجهة، وتدخل حصة الدرس فتضطرب في تقديم معلوماتها لطالباتها؛ هي أولى بالعقوبة من الطالبة التي تأتي غير حافظة لدروسها أو متقنة له. إنها قد تكون مدرسة، ولكنها قطعاً ليست مربية.

* * *

● ووقفة عند اللباس والزينة:

إن المعلمة التي تنقيد باللباس الإسلامي المحتشم، سوف تكون طالباتها أشد طوعاً من بنائها في لباسهن. وليس هناك من تعارض أبداً بين أناقة اللباس وجودته من جهة وبين حشمته وستره من جهة أخرى.

وعبئاً نحاول أن نطالب بناتنا باللباس المحتشم الساتر السابغ؛ ونلبس نحن اللباس الرقيق الشفاف الذي يبرز ما تحته من مفاتن. ويمكن القول أكثر وأكثر.

إن البنت سوف تعاني من الصراع المحموم والتعقيد الشديد يوم تجد إدارة المدرسة تلاحقها في تحسين لباسها، وتدع المعلمة في حجابها الظاهري وكشفها الخفي!! إننا نبني عندئذ بنات حاققات إن استجبن لتوجيهات المدرسة، أو بنات متحديات مستهترات إن خرجن على توجيهاتها.

من المسؤول؟! إنها المربية التي توجهه إلى جانب، ويكون مظهرها

صارخاً عكس توجيهها في جانب آخر. وأنتِ يا أختاه المعلمة حاملة الأمانة في ربط القول بالعمل.

● وما يقال في اللباس يقال في الزينة :

فالمعلمة التي تحضر للمدرسة بقلائدها وأساورها وخواتمها وحليها، ثم تهدد طالباتها بمصادرة حليهن إن أتين بها إلى المدرسة تهددن بيدها المثقلة بالحلي لأن هذا مخالف للنظام - هي أول داعية ضد هذا النظام.

إننا إما أن نربي فتياتنا على الجبن والخوف إن استجبن للتهديد أو نربيهن على التمرد والعصيان إن خالفنه، وهما أمران أحلاهما مر.

إن المعلمة التي تحضر للمدرسة بحليها، وغير قادرة على ضبط نفسها في حفظ حليها بينها وبين زوجها ومحارمها؛ لهي داعية للطالبات أن يبرزن حليهن للناس جميعاً ولو أدعت ألف مرة غير ذلك. وسوف تلقى من تحدي مشاعرها، مالا تحمد عقباه.

● ومن زينة الحلي إلى زينة الأصباغ :

فحين نحظر على أية طالبة أن تحضر متزينة إلى المدرسة، والمعلمة تهدد وترعد وترغي وتزبد ضد الزينة، وإطالة الأظافر وطلائها بالمساحيق، والكعب العالي وهذا كله محظور على المعلمة كما هو محظور على الطالبة؛ نكون في حقيقة الأمر عابثين لا مربين.

وحين تأتي المعلمات بزيتتهن، وأظافرهن الطويلة، وطلاء وجوههن - وهذا حق للزوج وحده فيما يباح منه، وليس إلا حراماً فيما يحظر منه - ثم يأتين ليمنعن الطالبات من استعمال هذه المساحيق في المدرسة.

إن لسان حالهن يصرخ: أن هلموا إلى زينة وجوهكن، وها أنذا أمامكن أقدم الصورة المثلي في ذلك.

والطالبة التي ترى معلمتها في باحة المدرسة قد اتجهت إلى المرأة

تصفف شعرها وتركز زينتها، وتخرج أدواتها من حقيبتها لتصلح ما بهت من طلائها؛ سوف تتحدى هذه المعلمة وتمضي لتستعير أدوات الزينة الممنوعة من زميلاتنا، وتفعل ما فعلته معلمتها.

والمعلمة التي تفعل ذلك هي التي تقوم بدرس التربية العملية والتطبيق الحي لكل هذه الانحرافات، وبالتالي فهي أولى بالعقوبة من الطالبة.

إن زينة الأنثى عالم خاص بها في مخدعها، في بيتها، ولكن ليس في الشارع أو الفصل أو المدرسة. هذا إن كان مباحاً، وإلا فهو من إغواء الشيطان الذي يجرها إلى لعنة الله ورسوله، حين تكون واصلة أو مستوصلة، واشمة أو مستوشمة، نامصة أو متنمصة، مفلجة للحسن، مغيرة لخلق الله.

* * *

● ومن الزينة واللباس إلى السلوك:

فالمعلمة التي تتحدث لبناتها عن حرمة الاختلاط وخطئه وعواقبه الوييلة في درس الدين؛ ثم تعود لتقص على طالباتها قصص الاختلاط في بلدها: في المسارح والملاهي ودور العرض - هي معلمة مجرمة وليست مربية، هي معلمة داعية للاختلاط ولو قالت ألف مرة إن الاختلاط حرام.

والمعلمة التي يرمقها طالباتها وقد خرجت من المدرسة كاشفة للمحرم منها، أو مستهترة بلباس قصير باد من تحت عباءتها، أو ذراع مكشوف تحركه لترية للناس، أولى بها أن تسجن وتكف لا أن تأتي مربية أجيال وصانعة طهر وعفاف.

● يا أختاه المعلمة:

يا مربية أطفالنا، ويا حاضنة بناتنا، ويا أمينة فلذات أكبادنا. بك أنيطت المسؤولية، والمرأة راعية ومسؤولة عن رعيتهما، فاذكري يوم تقفين وحدك أمام الله، وقد ذوى الشباب وهوى الجمال، لتحاسبي عن كل كلمة وكل همسة وكل سلوك:

﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ .

في عنقك ألقيت الأمانة ، والله سائلك عما ائتمنتك عليه .

فاذكري يوم تغدين إلى القبر، وقد جحظت العيون، وسالت الأنوف على الخدود، وصارت طعمة للتراب والدود.

فإما أن تجدي بجوارك ذلك العمل الصالح من كل فتاة هديتها لله ؛
كتائب تشهد لك بالطاعة، وهداية فتاة واحدة خير لك مما طلعت عليه الشمس .

وإما أن تجدي - والعياذ بالله - ذلك العمل السيء، فيما اقتدى بك من أرتال سوء! (ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة) فتستحقين - ونعيذك بالله من ذلك - لعنة الأجيال وغضب الرب المتعال . وأنت وحدك في الساحة تقذفك ملائكة العذاب إلى جهنم وبئس المصير .

● يا أختاه المعلمة :

يا مربية أطفالنا، ويا حاضنة بناتنا، ويا أمينة فلذات أكبادنا .

بالسلوك الطيب، والقدوة الحسنة، تنضمين إلى صف الأحبة محمد وصحبه، وبناته وزوجاته، وبالسلوك السيء والافتداء به تجرين أرتال ضلال، ولا عذر لك ولو كان كلامك طيباً حسناً . وحذار حذار يا أختاه من مقت الله .

﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون؟! كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

الإسلام والأغنية العاطفية

الحديث عن موضوع الغناء في الإسلام لابد أن يتم من خلال نقطتين

اثنتين :

أولهما :

النصوص التي وردت في هذا الموضوع، فهي التي تحكم المسلم في كل تصرفاته، إذ لا جدال في النص، والجدال لا يعني إلا فقدان المسلم لهويته الإسلامية: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ .

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ .

وما نشجر فيه اليوم ونختلف على حكمه، فلنرده إلى الله ورسوله ليحكم فيه، وإلا فلسنا مؤمنين .

وثانيهما :

بعد الالتزام بالحكم الإسلامي . فلا بد من الوقوف على حكمته وأسراره ومواطن العظمة فيه .

لأن الإسلام والقرآن - كما علمنا الله - : ﴿هدى للذين آمنوا﴾، وهو: ﴿خير وأحسن تأويلاً﴾، و﴿لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾، و﴿شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ .

ومن خلال هاتين النقطتين يمكن الحديث عن الأغنية والموسيقى اليوم .

من جانب النصوص :

آ - في كتاب الله :

﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب أليم﴾ .

وقد أنصبَّ التفسير المأثور لهذه الآية عن الصحابة والتابعين على أن لهو الحديث هو : الغناء واقتناء قيناته .

﴿... وأنتم سامدون...﴾ : إذ كان تفسيرها في المأثور كذلك : وأنتم لاهون مغنون . وهي في لغة جَمَيْر : الغناء .

﴿واستفز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم ، وما يعدةم الشيطان إلا غروراً﴾ .

وصوت الشيطان هو الموسيقى المصاحبة للغناء ، وبالرجوع إلى أمهات كتب التفسير يتضح هذا الموقف بجلاء .

ب - في سنة رسول الله :

١ - روى الترمذي عن جابر رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف فانطلق به إلى ابنه إبراهيم ، فوجده يجود بنفسه ، فأخذه النبي ﷺ في حجره فبكى ؛ فقال له عبد الرحمن : أتبكي ؟ أو لم تكن نهيتنا عن البكاء ؟ فقال :

(لا ، ولكنني نهيت عن صوتين أحققين فاجرين ؛ صوت عند مصيبة - خمش وجهه وشق جيوب - ورنه شيطان) .

٢ - وأخرج البزار والضياء عن أنس مرفوعاً : صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة : مزمار عند نعمة ، ورنه عند مصيبة .

٣ - وأخرج أبو داود عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع صوت زمارة راعٍ فوضع إصبعيه في أذنيه، وعدل راحلته عن الطريق، وهو يقول: يا نافع أسمع؟ فأقول: نعم، فيمضي حتى قلت: لا. فوضع يديه، وأعاد راحلته إلى الطريق وقال: رأيت رسول الله ﷺ سمع زمارة راعٍ فصنع مثل هذا.

٤ - وروى ابن ماجه وابن حبان عن أبي مالك الأشعري مرفوعاً:

(يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها، يضرب على رؤوسهم بالمعازف والقينات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير).

٥ - وأخرج البخاري أن رسول الله ﷺ قال:

(لا تقوم الساعة حتى تستحل أمتي الحرّ والحرير والخمر والمعازف).

مع حكمة النصوص:

ونتقل من النصوص إلى الوقوف أمام حكمة وأسرارها، وعظمة هذه الأحكام. فالفطرة البشرية تتنازعها عوامل الخير والشر، عوامل الخير تدفعها لتأدية الواجب الملقي عليها، وعوامل الشر تدفعها للاستسلام للدعة والهوى والعاطفة المنحرفة.

ولا بد من الإشارة في بداية الحديث إلى أنه يتناول الأغنية العاطفية، لا الأغنية الدينية التي تتمثل في صورة الحداء والرجز لإثارة المشاعر الإسلامية العظيمة:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
وكل ما في هذه الصور المنمية للحب العظيم للإسلام وشرعته، ولحب الله ورسوله.

ونعود بعد هذه الملاحظة للأغنية العاطفية المثيرة للفرجة الجنسية. والمستمع للغناء يبدأ من نقطة انحراف صغيرة، وتكبر زاوية الانفراج حتى تبعد به نهائياً عن الطريق في مراحل متلاحقة يسلم بعضها رقاب بعض :

● فالخطوة الأولى على الطريق: تكمن فيما يعانيه المستمع للغناء من تضارب بين دافعين :

هاتف الشيطان الذي يدعوه إلى اللذة الناشئة عن تحريك العواطف الناشئة وإيقاظ المشاعر الغافية، واضطراب الأحاسيس المضبوطة بميزان الله. فقد يتصرف أول الأمر مستجيباً للنصوص التي تمنعه من الاستسلام للهوى، ولكن الشيطان لا يدعه يفلت بهذه السهولة، فلا بد أن يردّ عليه من المنافذ جميعاً: ﴿وَلَا تَتَّبِعِهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. والباب الخلفي الذي ينفذ منه الشيطان أن النفوس إذا استمرت على رتابة واحدة ملت وكرهت وسمت فلا بد من الترويح عنها والتخفيف من أعبائها بهذه التسلية القصيرة والبريئة والخفيفة.

فيعود ليستجيب لدافع الشيطان.

والموقع الذي ينطلق منه الشيطان في بداية الأمر موقع سليم بل له ما يسنده من نص، غير أن النص يوضع في غير محله، ويضعه حول الحمى يوشك أن يقع فيه عند الشبهات، ومن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ويصبح المستمع أقرب فأقرب إلى مواقع الشيطان.

● ويمر الزمن لتبدأ الخطوة الثانية، ويبدأ الشيطان جولته من جديد:

إنه يجد في الغناء لذة واضحة، ويسرح فيها مع متعة حالمة، فيضطرب المؤثر الزمني الذي يحدد له الوقت، وتصبح السفينة عرضة لرحمة الرياح. وأعني يصبح المستمع تحت رحمة عاطفته التي خرجت من إطارها المرسوم، ويسير في هذه الهوة، فينتقل من الموقع الأول: موقع اللحظة البسيطة

للتخفيف عن النفس إلى الموقع الثاني: موقع الاستمتاع بالغناء والسماع، يجد بهذه اللذة هرباً من الواجب، ويلتظ بها رعباً من المسؤولية.

● وعندما يصل إلى هذا الحد تبدأ الخطوة الثالثة:

ويعود الشيطان ليمارس جولة أخرى جديدة:

يعود ليشير في نفسه هذه التساؤلات: لم حرم الإسلام السماع؟ لم حظر على الإنسان هذه المتعة؟ أليست هذه العاطفة بحاجة إلى تلبية وتصريف؟ هل يريد الإسلام منا الكبت؟!

ولا يزال مع تساؤلاته هذه حتى يفقد موقعه الثاني، وينتقل إلى موقع ثالث من مواقع الشيطان وهو أن يرى المستمع في الإسلام خطأ هذا الحكم؛ وهذه بداية الانهيار: أن يبدأ ليرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

ولا يقف الشيطان عند هذا الحد، فلا بد أن يقود إلى قاع الانحدار بعد أن وصل إلى الحافة، يأتيه بالتفاف عجيب، ويريد أن يغيّر فكره كله وهي الجولة الأخيرة له.

● والخطوة الرابعة: يقوم ب «غسيل مخ» له على حد التعبير القائل. يعود به إلى الإسلام من جديد، ويؤكد له أن الإسلام لا يكبت النفوس ولا يحارب العواطف، ولا يرفض الغناء. أليست هذه النفوس من عند الله؟ والعواطف قد كونها الله؟ والصوت الجميل هبة من الله؟ ولا يعقل أن يحرم الله شيئاً خلقه بيده. وإذن الإسلام لا يحارب الغناء العاطفي، والذين يدعون ذلك هم متعصبون. وعندئذ يكون قد انتهى به إلى قاع الضلال، فبعد أن يصبح المنكر عنده معروفاً، والمعروف منكراً، يبدأ مهمته الجديدة: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف.

هذا التسلسل في الواقع ليس صورة أدبية، بل هو غرض نفسي قدمه رسول الله صلوات الله عليه، ابتداءً به من مواقع الشيطان يفضحها واحداً بعد الآخر.

(كيف بكم إذا طغي نساؤكم وفجر شبابكم وتركتم جهادكم قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟! قال: نعم، والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون.

كيف بكم إذا تركتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟! قال: نعم، والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون.

كيف بكم إذا رأيتم المنكر معروفاً والمعروف منكراً؟ قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟! قال: نعم، والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون.

كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟! قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟! قال: نعم، والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون...).

ماذا يريد الغناء من الإنسان :

يريد من الفتى والفتاة أن تتحرك عواطفهما المستثارة وتستشاط. لماذا؟! وإلى أين؟ نحو أي اتجاه؟!

ليس أمامهم إلا الاتجاه المحرم للتعبير عن هذه العواطف المتصاعدة، ولكن المحرم ممنوع، والصلة بين الفتاة والفتى محظورة في المجتمع الإسلامي، فلتفكر الفتاة أو الفتى بتجاوز هذا المحذور. قد يكف قليلاً حين تهدأ عاطفته، لكن الأغنية العاطفية تعود لتجدد السعار من جديد، وتشعل اللظى من جديد. ولا بد لهذا اللظى أن ينطفئ، ولا بد لهذه الطاقة من تصريف، فكيف؟! لا تجد السبيل، فتفكر في إيجاد السبيل، وتجاوز منطقة الأمان إلى منطقة الخطر، وتجاوز حرمات الله لتقع في الحرام.

(الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور متشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه)^(١).

(١) متفق عليه.

لقد هيا الإسلام الطريق العفيف والنظيف لتلبية هذه العواطف عن طريق الزواج، وجعل من كل فتاة حمى لله، وغيره الله أن تنتهك محارمه.

أما العواطف التي يريد بها الإسلام أن تنمو والتي يريد بها أن تكون مقوّدة الحركة للمسلم، هي عواطف الارتباط بالله، حب الله، وحب رسوله، ابتغاء مرضاة الله فهي المؤشر الدقيق للسلوك كما يقول رسول الله صلوات الله عليه :

(من أحب الله وأبغض الله، وأعطى الله ومنع الله؛ فقد استكمل الإيمان).

إنهما عاطفتان متصارعتان: الهوى وعلى رأسه عاطفة الاستسلام لمشاعر الجنس التي تلصق الإنسان بالأرض. وعاطفة الانقياد لله والاستسلام له حتى وهو يمارس عاطفته الجنسية عن طريق الزواج. يمارسها بإذن من الله يباشره بإمرة حب الله وطاعته.

إن الإسلام الذي حرم النظرة لأنها سهم من سهام إبليس؛ فلا غرو أن يحرم الأغنية المائعة الماحجة التي تفعل في النفس أشد من فعل النظرة. وكلتاهما - أي النظرة والأغنية - هي السلاح الفعال بيد الشيطان ليصطاد ضحاياه بهما.

أختي المسلمة :

إن الشيطان لك عدو فاتخذه عدواً.

ماذا تريد الأغنية العاطفية المثيرة منك؟ تريد أن تتحركي نحو المحظور أو تعاني الضغط الشديد العنيف على عواطفك. وإن التزمت بشريعة الله فدعي هذه الهوة وسيري على هدى الله.

يريد منك الله أن تكوني عند قواعده، وأن تكوني ضمن حصونه بحمايته وكفنه؛ فلا تسلمي نفسك للعراء حين تحركين عاطفة أراد الله لها طريقاً واحداً وأبأه وهو الزواج. لا تثيري حرباً داخلية عليك من كلمات الأغنية العاطفية المائعة.

إن كنت تريدن الجنة فالجمي هواك، وفري إلى الله . ولا جنة بدون ضبط، ولا نعيم بدون قيد . حتى يغدو القيد بعد ذلك نعمة ورحمة :

﴿فأما من طفئ وأثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هي المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى﴾ .

يريد منك الإسلام أن تكوني قائدة لهواك لا مقودة، وضابطة لعواطفك لا مسلوبة .

لتصبح العواطف بعد ذلك كلها تنهل من معين الله ، من معين الإيمان :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) .

الأغنية هي الباب المفتوح لاضطرام العاطفة، هي المحرك الوحيد لتصرفها في غير ما أحل الله . أو بكتبها ضمن ما شرعه الله .

فلنبتعد عن كل ما يثير في أنفسنا هذا الأوار، هذا التناقض والصراع، هذا التعقد والانھیار .

الأغنية هي الأداة التي يحملها الشيطان ليدفعك بها مطرودة من حظيرة الله ولا وسط بين الطرفين :

إما الهدى وإما الضلال . إما الحق وإما الهوى . وإن لم تستجيب للحق فقد استجبت للضلال .

﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن أتبع هواه بغير هدى من الله؟! إن الله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

مَفْهُومُ الْحُبِّ فِي الْإِسْلَامِ

يحسب كثير من الفتيات المسلمات أن بين الحب وبين الإسلام حجاباً كثيفاً وعداوة مستحكمة، ومن أجل هذا نجد الفتاة المسلمة التي تستجيب لحبها قد يشت من أن تستجيب للإسلام؛ لأنها بتصورها الخاطئ ترى أن الله يحرم هذا الحب وترى أنها لن تدخل حظيرة الإسلام، بما في عاطفتها من تحفز وتوثب وجيشان. فتناى عن الله بعيداً بعيداً وتهرب حتى عندما يذكر الله!!

لا يا أختاه المسلمة .

لا بد من أن تذكر في بداية الطريق أن الحب: ضعيفه وعنيفه، جامحه وعفيفه، مصدره من بارىء النفس وخالقها .

هو - جل شأنه - الذي أركز في الفطرة البشرية هذه العاطفة فلم تفرين من الله، والله خالق الحب؟!!

إن فرارك هذا هو الذي يريده الشيطان منك، أن تياسي من رحمة الله، وتصدقي الشيطان وهو العدو الألد يؤكد لك نصحه كما أكد لأبويك من قبل: ﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾^(١).

لا داعي أبداً للارتقاء عند عدو الله وعدوك، وهلمي إلى الله رغم الخطأ والزلل والعتار، فهو أرحم الراحمين .

(١) سورة الأعراف: الآية ٢١ .

بدلاً من أن تفري من الله فري إليه :

﴿ففرّوا إلى الله إنّي لكم نذير مبين﴾^(١).

هذا رسول الله وصحبه قد هيج مشاعرهم امرأة تحنو على طفل لها في السبي ، فتضمه إلى حضنها وتعطيه لبنها المدرار . إنه ابنها الحبيب .

وفي هذه اللحظات من المشاعر الحادة المتأثرة يسأل رسول الله :

(أترون هذه طارحة ولدها في النار) .

قالوا : لا يا رسول الله .

قال : (الله أرحم بعباده من هذه بولدها) .

* * *

ولنعد بعد هذه الجولة إلى الحب ، ونمثل بين يدي الغفور الودود :

﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ، ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾^(٢) .

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾^(٣) .

لا حرج في الحب ، ويتعبير أدق لا بد من الحب : فالحياة بلا حب صحراء قاحلة ، وجهد قاتل ، أو بيداء متخمة بالشوك . أما الحب فهو بلسم الجراح ، وعطر الحياة وسلسبيل الظامئ الملهورق المنقطع في المفازة المهلكة .

ولكن الحب إن ترك بلا حدود جامح «كاسح» ، ومن أجل هذا جعل الإسلام منه المباح والمحظور في كل ينابيعه وجداوله .

(١) سورة الذاريات : الآية ٥٠ .

(٢) سورة مريم : الآيتان ٨٥ ، ٨٦ .

(٣) سورة مريم : الآية ٩٦ .

والفرعان الرئيسيان للحب هما حب الذات، وحب الآخرين :

فحب الذات ينبثق منه :

● **حب النفس والحياة :**

وَمَنْ فِي هَذَا الوجود لا يحب نفسه، وينطلق في خطواته لبنائها؟! ولقد عبر القرآن الكريم عن تغلغل هذه العاطفة في النفس حين قال :

﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم﴾^(١). وقوله عز وجل: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾^(٢).

هذا هو المباح في الحب، أما محظوره :

أن يثقل بنا حب النفس والحياة عن تكاليف العقيدة :

﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثأقنتم إلى الأرض، أراضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟! فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضره شيئاً والله على كل شيء قدير﴾^(٣).

وهكذا تتجاوز حب الحياة .

● **حب المال :**

حيث تستحكم هذه العاطفة فيه كما قال عنه ربه سبحانه: ﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾^(٤).

(١) سورة النساء : الآية ٦٦ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢١٦ .

(٣) سورة التوبة : الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .

(٤) سورة العاديات : الآية ٨ .

وكما يقول عليه الصلاة والسلام .

(لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب) (١) .

هذا واقع النفس البشرية في جها للمال ، ولكن محظوره أن يتحول إلى غاية الغايات :

﴿ولا يحسبن الذين يدخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير﴾ (٢) .

(تعس عبد الدرهم والدينار) (٣) .

● حب الشهرة والصيت :

وتكاد هذه تطغى على سابقتها ، فيقدم المرء نفسه على مذبح الشهرة ، ويقتل نفسه طمعاً في السمعة والصيت الحسن . وحب الثناء والسمعة مركز في الفطرة الإنسانية .

إنه قائم ولكن محظوره هو أن تتحول الأعمال المقربة إلى الله للناس ؛ فقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يعمل العمل يتغني به وجه الله ويحب الثناء عليه من الناس فنزل قول الله عز وجل :

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ (٤) .

لكن الإسلام لبي هذا الحب حين دعا إلى التنافس في الأعمال لله

(١) رواه الشيخان والترمذي وغيرهم .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٨٠ .

(٣) رواه البخاري وابن ماجه .

(٤) سورة الكهف : الآية ١١٠ .

وحده، فقال جل شأنه: ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾^(١).

● حب الجمال :

وله صلة وثيقة بالشهرة والصيت، وكل أمرئ يحرص على الثوب الأنيق والحذاء المناسب، والعطر الشدي، والمنظر الوسيم والمظهر اللائق.

وقد أقر الإسلام هذا الحب بالنسبة للرجل فكيف به بالنسبة للمرأة؟!

لكن محظوره: أن يقود إلى التعالي على الناس وازدراء الآخرين، والاستهزاء بهم؛ يوضح ذلك قول رسول الله ﷺ:

(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.

فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة! فقال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق، وغمط الناس)^(٢).

● حب الزينة :

وتكاد تنفرد به الفتاة، فحرصها على وسامتها وجمالها وإبراز محاسنها شيء مركوز في فطرتها.

لكن محظوره أن يخرج عن الإطار المأمون، أن تبرز لغير من تحل له.

* * *

حب الآخرين

● حب الأهل :

وذلك من خلال عاطفة الأبوة والبنوة والأخوة والقرابة، وما من أمرئ لا يحس بالحنين إلى أهله. ونجد الإسلام هنا قد حث عليها وشجع تنميتها:

(١) سورة المطففين: الآية ٢٦.

(٢) رواه مسلم.

﴿.. أبأؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا﴾^(١). وقد يضحى الإنسان بكل ما يملك في سبيل بنيه وذويه وأهله.

ولكن محظوره أن يحول هذا الحب دون تكاليف العقيدة ومقتضياتها:

﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم..﴾^(٢).

● حب المتاع والرياش:

ويكاد يكون حلم كل شاب أو فتاة في أيامنا المعاصرة:

الشقة الفاخرة، والسيارة الفارهة، والأرائك الرائعة، والفرش الوثيرة. إنه حب أصيل في الذات الإنسانية.

لكن محظوره هو أن يصبح غاية الغايات للفتى والفتاة، ويصبح الحرص عليه دون تكاليف الجهاد في سبيل الله؛ فهو الفسق والخروج عن الدين:

﴿قل إن كان آبأؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾^(٣).

* * *

الحب الجنسي

ويكاد يكون في طرف، والحب الآخر كله في طرف. إن له جذوراً في الكيان الإنساني تختلف عن جذور الحب الآخر. إنه مرتبط بالتكوين العضوي

(١) سورة النساء: من الآية ١١.

(٢) سورة المجادلة: من الآية ٢٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ٢٤.

للمرأة والرجل، لا يعرف الحدود ولا القيود، يكسر كل ما يجده أمامه، ويلتهب مع أدنى مؤثر، يشتعل بأقل فتيل. يملأ العقل والقلب والوجود الإنساني كله.

وفيم كان على هذه الصورة؟!

كان بهذه القوة، وبهذا العنف، وبهذا الجيشان، لأن له أخطر مهمة في الوجود وهو أن يحقق جمال الوجود وكماله بالجنس البشري، بالتناسل والتكاثر لأشرف مخلوق على وجه الأرض، ليطم حفظ الجنس البشري وتناسله وبقائه.

ومن أجل هذا وجدنا القرآن قد وضعه في ذروة النعم التي من الله بها على خلقه.

نعم هذا الحب الذي تتصور الفتاة أنه رجس من عمل الشيطان، حدثنا الرحمن عنه في كتابه الكريم بمعرض المن والإفضال علينا به :

﴿أفرأيتم ما تمنون . أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون .﴾^(١).

حاجة الإنسان لهذا الحب أعظم من حاجته إلى الطعام، فلقد جاء قبل الحديث عن الطعام في تسلسل الآيات: ﴿أفرأيتم ما تحرثون .﴾، وأعظم من حاجته للشراب: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون .﴾، وأعظم من حاجته للدفء والنار: ﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾.

إن هذه الأمور الثلاثة: والكأ والنار، بها تكون مقومات الحياة، ويأتي الحب الجنسي والعاطفة الجنسية قبل هؤلاء جميعاً، فهو الحياة إن كان بالماء والكأ والنار قوام الحياة إنه أضرم ما في الحياة، وإنه أجمل ما في

(١) سورة الواقعة: الآيات ٥٨ - ٦١ .

الحياة. لخص هذا المعنى رسول الله ﷺ حين قال: (الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة)^(١).

* * *

ونجد العالم اليوم يعج بهذه العاطفة المثيرة الثائرة، هذه العاطفة الهائلة القاتلة: فالمجلات والكتب والقصائد، والأفلام، والمسرحيات، والنثر البليغ، والشعر الرصين؛ كلها ذات أكباد حرى تنفث السعار في الجسم، وتوقد اللهب في الكيان، وتهيج المخدّر من المشاعر، ولا يروي ظمأها إلا أن تحترق ثم تعود لتتلهب من جديد. وتوقد النار لتأكل من جديد.

ولنتحدث عن طرائق البراكين فيها، التي تزلزل وتدمر الكيان الإنساني من جهة، وتزلزل معه آخرته ودنياه.

فمن محظورها الحب لغير الزوج؛ الحب الجنسي الذي يريده كل فتى وفتاة، ويلوح من بعيد على أنه حب عفيف ونظيف ولكنه لا يتم أبداً إلا بالانصهار بين العنصرين. وقد حدد الإسلام القناة لهذا السبيل عن طريق الزواج، وكل محاولة للخروج به عن غير قناته وصراطه، سوف يبتلع الإنسان ودينه وحياته.

يبتلع الإنسان ويقتلعه لأنه يحيل حياته جحيماً، ويراهها في الوقت نفسه جنة الخلد.

فالفتاة التي تهوى، والفتى الذي يهوى، يفقد لذة وجوده إلا في ساعة اللقاء وساعة الأنس، أما ما عدا هذه الساعات، وما عدا هذه اللحظات، فاحترق نفسي، ومرارة دائمة، وبين اللقاء حواجز وحدود.

حواجز من الكرامة، حواجز من العقيدة، وحواجز من السمعة تحول دون اللقاء؛ فتقلب الحياة كلها كارثة: لا لذة بطعام ولا شراب، ولا جلسة ولا

(١) رواه مسلم واحمد والنسائي وابن ماجه وغيرهم.

إغفاءة ولا قراءة إلا مع ذلك المحبوب. هذا حين يكون في غير قناة الزواج.

أما في قناة الزواج: فتغدو الحياة كلها جنات، فالارتواء العاطفي قربي من الله وعنف الحب زلفى من الله، والخلوة واللقاء يتم بستر وصون من الله، وثمرة اللقاء مباركة طيبة ترعاها عين الله وتكلؤها عنايته.

يبتلع الحب دين الإنسان.

فحين تحب لابد أن تقترب، وفي كل اقتراب إثم، لأن الإسلام كان حاسماً في موقفه من الاتصال بين الفتى والفتاة، فهو يمنع حتى النظرة. والإسلام يميز بين العاطفة والسلوك، الإسلام يقر الهوى على أنه واقع، ولكنه يطالب في الوقت نفسه بمنع النفس عن الهوى.

﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى. فإن الجنة هي المأوى﴾^(١).

* * *

ويرد تساؤل كبير: لم هذه الحواجز دون الحب؟ لم هذه القيود دون الصلة واللقاء وتلبية دواعي القلب؟

ويرد الجواب:

لأن الهوى مجنون (فالشباب شعبة من الجنون) و(الحب يعمي ويصم)، هذا واقعه (أحب حبيبك هوناً ما فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما). ولو ترك الهوى بغير زمام سوف يقود إلى الضياع والإثم.

وذلك المجتمع الغربي ما هو عنا ببعيد، لقد نقل الفتاة من حضن إلى حضن؛ لأن الهوى متقلب سرعان ما يهوى وسرعان ما يمل

(١) سورة النازعات: الآيتان ٤٠، ٤١.

بالاتصال الدؤوب. إنه مجتمع فقد زمام وجوده، وانتهت الأسرة فيه، وانتهت الحياة الأصلية فيه، اختلطت أنسابه، وضاعت قيمه، وانهارت كرامته، إنه الفرق بين النظافة والتلوث، الفرق بين الفوضى والنظام، الفرق بين حياة البهائم وحياة الإنسان والفرق بين الإرادة والانقياد.

● والمجلة العارية التي تعرض الأجسام عارية. وتلتهمها الفتاة صفحة صفحة، وكلمة كلمة، وصورة صورة، ومنظراً منظراً - إنما تلتهم حرقاً قلب، وإثارة حب، والطريق مسدود من الله العليم الخبير لخائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ الذي يريد لعباده الطريق المأمونة.

● والقصة العاطفية: تستهلك وقت وفكر الفتاة، فكيف يكون الإرواء عن طريق الحرام؟ تبقى الحرق والإثارة، والشيطان يدفع ويدفع للعار والنار.

● والفيلم العاطفي: الذي يسحر العيون، ويهر الأنظار ويفتك بالفؤاد. وتريد الفتاة التي استشاطت أن تطفئ حرقها، وأين؟ في العار والنار، أو تبقى في الأتون ملتهبة، فلا تعي على بيت ولا تعي على مسؤولية، ولا تعي على أهل، بل تبقى هائمة على وجهها، والشيطان يدفع إلى العار والنار.

● وأولئك كتبة المجلة الخليعة، وصانعو القصة العاطفية والفيلم الجنسي، أولئك يكفي وصف الله لهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١). فلو وثقنا بهم لكذبنا الله. ولو قرأنا لهم، وعشنا في عالمهم، واستمتعنا بفيلمهم وهمنا بقصتهم، لكننا الجنود المخلصين لهم.

* * *

يا أختاه:

إرادة الله: التوبة عليك. وإرادتهم: إحراقك في الدارين! ﴿وَاللَّهُ يَرِيدُ

(١) سورة النور: الآية ١٩.

أن يتوب عليكم، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً^(١).

وما حواجز الله دون الإفلات العاطفي، والضياع والإثم؛ إلا رحمة بك وبضعفك وعجزك وتخفيف عنك.

﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾^(٢).

والثمرة المرة لهذا اللهيـب يا أختاه:

الوقوع في غضب الله، والعار والنار، والهم والحسرة، أو الشذوذ الجنسي!! الشذوذ الجنسي الذي حدا ببعض الفتيات الهائـمات بين المجلة المبتذلة، والقصة المثيرة والفيلم التافه - أن يمارسن الشذوذ بينهن، يخففن هذه الحرقـة، ويطفئن هذه اللوعة. فتحب الفتاة أختها جنسياً عناقاً وقبلـة وضماً، وما بعد ذلك، وتحسب أنها تمارس حلالاً، وما تدري أنها تزني كما في الحديث: (سحاق النساء زنى بينهن)!!

وكل ما سمح به الإسلام بين الفتاتين عند اللقاء هو المصافحة كما روي عن رسول الله ﷺ حين سئل: الرجل يلقي أخاه يعتنقه قال: لا. قال: يقبل يده؟ قال: لا. قال: يصافحه؟ قال: نعم. ولم تجز القبلة على الرأس أو العناق إلا بعد غياب طويل.

إن الفتاة عندما تروي غريزتها بنظراتها لأختها فتصبح النظرة واللمس والضم والعناق حرام لأنه يقود إلى الحرام، لأنه يقود إلى السحاق الذي تلامس فيه المرأة قبلها بقبل المرأة الأخرى.

فحين يناديك الشيطان يا أختاه للقصة المبتذلة، والفيلم الخليع، والمجلة المثيرة، ويوسوس لك أن الإسلام قيود؛ فصديه بقول الله عز وجل:

﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾.

(١) سورة النساء: الآية ٢٧.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٨.

وحين يناديك لاتباع الشهوات، حباً لك ورحمة بعواطفك المشارة؛
فأجيبه :

﴿يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً﴾.

وحين يريدك أن تمارسي عاطفتك من خلال علاقتك بأختك، فاذكري
حديث رسول الله صلوات الله عليه :

(سحاق النساء زنى بينهن).

واحفظي عواطفك من أن تصرف في غير طريق الحلال :

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم
مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾^(١).

* * *

(١) سورة الروم : الآية ٢١ .

بدعة أعياد الميلاد

أعياد الميلاد ذلك الوافد الجديد من الغرب، واحد من جملة الضيوف الثقلاء الذين نزلوا عندنا، ومهمتهم أن يحتلوا بيتنا أو يحولونا إلى جزء من هذه الحضارة الجاهلية.

وقد يتساءل كثير من الأخوات: وأي مانع يمنع من الاحتفال بعيد الميلاد؟! وما علاقة هذه العادة بالدين الإسلامي؟ بالعقيدة أو العبادة أو الشريعة؟!

وقد يتساءلن كذلك في ضيق: حتى هذا الاحتفال يمنعنا منه الإسلام، ونحن لا نكفر بالله ولا نشرك به شيئاً، ولا نخالف أمراً من أوامر الله تعالى؟! لماذا هذا التشدد؟

رويداً، كلمة «العيد» أولاً هي أكبر بكثير من أن تحشر بمناسبة الميلاد. العيد في المفهوم الإسلامي يرتبط بمناسبتين فقط: عيد الأضحى، وعيد الفطر. هذا بالنسبة للعام. ويوم الجمعة هو العيد الأسبوعي للمسلم.

● والعيد: قد حدد بنص شرعي من رسول الله ﷺ؛ المأذون بالتشريع من الله.

فمن يعتقد أنه له الحق في إضافة أعياد لم يشرعها الله ورسوله؟!

● والعيد ثانياً: عبادة وليس تقليداً أو عادة. إن عيد الأضحى مرتبط بالحج الأكبر، وعيد الفطر مرتبط بموسم الصوم العظيم، والجمعة مرتبطة

بصلاة الجمعة . وهذه جميعها أجزاء من أركان الإسلام العظيم : الصوم والصلاة الحج .

فالعيد إذن عبادة يحرم فيها أشياء ويحل فيها أشياء أخرى ، كما نص على ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام ، وليس عادة متروكة إلى الناس ، بل شريعة مقررة من الله سبحانه .

وحين نضيف من عندنا عبادات - طالما أن العيد جزء من العبادة - نكون قد شرعنا ما لم يأذن به الله .

إن الأكل عادة ، وضرورة ، لكن الإسلام جاء وحدد له صورة معينة لو فعل الإنسان غيرها فقد أشرك .

ومن أجزاء هذه الصورة الأكل مما ذكر اسم الله عليه فإذا أكل مما لم يذكر اسم الله عليه - حسب العادة - فقد أشرك .

﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾^(١) .

فأيهما أهم وأكثر حساسية : الأكل على أساس العادة من كل ما يقع بين يدي الناس ؟ أم إضافة أعياد لم يشرع الإسلام منها إلا الجمعة والفطر والأضحى ؟ !

● والاحتفال ثالثاً بعيد الميلاد - كما يسمونه - مرتبط بنفس العادات التي يقوم بها النصارى باحتفالاتهم : توقد الشموع بعدد السنين التي مرت على المحقق بميلاده . إنه إتباع كامل لما شرع لنا النصارى أو اليهود في هذا المجال ، إنه تول لهم واتباع لتشريعهم : ﴿وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ !! وإذا تجاوزنا المسميات والشكليات ، وانتقلنا إلى الجوهر وصلنا إلى ما هو أدهى وأخطر .

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢١ .

لماذا الاحتفال بالميلاد؟ وما هي الدوافع النفسية إليه؟

إن غير المسلم يريد أن يربط جذوره بهذه الأرض، لأنه يعلم أن الحياة بالنسبة له نهاية المطاف. كل سنة تفوته قد مضت ولن تعود، ومن أجل هذا توقد الشموع وتطفأ بمقدار ما له من سنين، إنه يحس أن كل عام له يمر؛ إيزان برحيله من هذا الوجود ولن يعود، إنه لا يؤمن بالبعث أو القيامة أو الآخرة، إنه معذور بأن يجبل دمه بالأرض أو الدنيا.

أما المسلم: فماذا يريد أن يقول؟

هل يريد أن يؤكد أن الحياة نهاية المطاف بالنسبة إليه؟ وبتعبير أدق: هل يريد أن يكفر بالبعث والجزاء؟! إن كان لا يريد ذلك فما معنى إيقاد الشموع وإطفائها والاحتفال بالميلاد الجديد.

إن المسلم مرتبط بالعمل الصالح لا بالزمن طال أو قصر، وتقويمه وتقديره من الله لا من العبيد.

والاحتفال بالميلاد^(١) يعني التثبث بالوجود، والتشاقل إلى الأرض، والالتحام بالدنيا، والذعر من الموت، والخوف من لقاء الله.

أما المؤمن الصادق، فالقضية برمتها عنده تختلف عن هذا المفهوم. إنه متشاقل من الدنيا، ملجوم بالأرض، يريد أن يفر إلى الله ويطير إليه: ﴿ففرُوا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾.

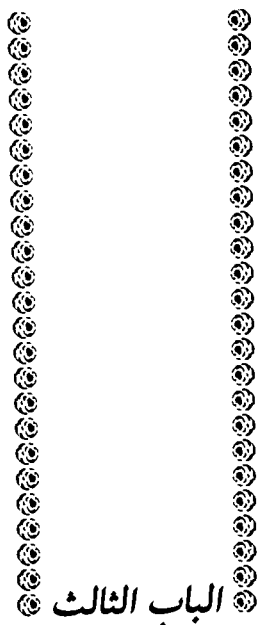
(١) من الأمانة أن نقول عن المسلم أو المسلمة لو أحب أن يفرح بنعمة الله تعالى عليه بمناسبة ميلاده، أو ميلاد ولده. فهذا أمر مباح شرعاً. وأحب أن يعبر عن هذا الفرح بإقامة وليمة أو دعوة يطعم فيها أصدقاءه وأحبابه أو يتصدق بمثلها على الفقراء. شكراً لأنعم الله تعالى عليه. فلا ضير في هذا الأمر إنما الضير والمحذور. في التمسك بتقاليد اليهود والنصارى وإطفاء الشموع وما تعنيه هذه العملية. وتسمية هذا الاحتفال بالاحتفال بعيد الميلاد. ونحن نعلم أن من السنة الولىمة بمناسبة المولود. وهو الذي يسمى في الإسلام بالعقيقة. ولا بد من التفرقة الكبيرة بين الصورتين المذكورتين.

يريد أن يسعد بقاء الله ، ويتخلص من أوهام الدنيا وجواذب الحياة :
(ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه).

ونحن نربأ بالمعلمات المربيات أن ينزلن الى مستوى المشركين ويكفرن
من حيث لا يشعرون . وعليهن أن يكن الحارسات الأمينات على شريعتنا
وتقاليدنا وأصالتنا ، حتى لا تزعزعنا رياح التقليد فتقتلعنا من الجذور .

﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ .

* * *



الباب الثالث

جهاد المرأة المسلمة

دور المرأة المسلمة في الجهاد

الجهاد بالمعنى العام:

وهو قريب من المعنى اللغوي إذ هو مصدر من الفعل جَهَدَ ومعناه: بذل الجهد والوسع في سبيل الله - وهذا ما أوضحه العلامة المودودي رحمه الله بقوله: «فالجهاد كلمة جامعة تشمل جميع أنواع السعي وبذل الجهد، وإذا عرفت هذا فلا تعجب إذا قلت: إن تغيير وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم ونزعاتهم، وإحداث انقلاب فكري وعقلي بوساطة مرهفات الأفلام نوع من أنواع الجهاد، كما أن القضاء على نظم الحياة التعسفية الجائرة، بحد السيف، وتأسيس نظام جديد على قواعد العدل والنصفة أيضاً صنف من أصناف الجهاد، وكذلك بذل الأموال، وتحمل المشاق، ومكابدة الشدائد أيضاً فصول وأبواب مهمة من كتاب الجهاد العظيم.

وعندما يطلق الجهاد في الإسلام لا ينفك عنه أن يكون في سبيل الله، وهو أمر من البديهيات الإسلامية حيث يكون من المعلوم بالدين بالضرورة، وعندما لا يكون الجهاد في سبيل الله فليس للمجاهد إلا النار لأن كل عمل لغير الله مردود...».

(من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه وهو للذي أشرك)^(١).

دور المرأة المسلمة في هذا الجهاد:

فالجهاد على هذا الأساس فرض كفاية على المرأة والرجل على

(١) رواه الامام أحمد.

السواء، لأن المرأة المسلمة جزء من المجتمع المسلم، وما تملك أن تؤديه في مجتمعها النسوي فعليها أن تؤديه، وخاصة عندما لا يكون إلا المرأة قادراً على تأدية هذا الواجب.

ولعل أضخم عمل جهادي بعد القتال هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا الأمر منوط بالرجال والنساء على السواء كما يقول جل شأنه:

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾^(١).

فقد نصت الآية القرآنية على هذا الواجب على المرأة والرجل بشكل واضح وليس استنتاجاً من النص، وقد يصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى حد بذل الروح كما يقول عليه الصلاة والسلام:

(سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر أمره فنهاه فقتله)^(٢).

وحديث رسول الله ﷺ الآخر:

(أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)^(٣).

ولا ننسى أن أول شهيد في الإسلام كانت سمية بنت خياط - رضي الله عنها لأنها قالت كلمة الحق في وجه فرعون هذه الأمة - أبي جهل.

ولا شك أن أعلى مراتب الجهاد قبل حمل السلاح هو الدخول في الإسلام الذي كان يعرض حياة المسلم للخطر والتعذيب الجسدي والنفسي والسجن والإيذاء والموت.

(١) التوبة / ٧١.

(٢) رواه الحاكم والضياء عن جابر.

(٣) رواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري.

ولا ننسى أبداً أن أول من دخل في دين الله امرأة هي خديجة رضي الله عنها.

ولعل العنصرين الأساسيين اللذين حض الإسلام المسلم على الجهاد بهما هما الجهاد بالمال والأنفس، بل تقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في قوله جل شأنه:

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله لعلكم تفلحون﴾^(١).

والجهاد بالمال مرتبط بالقدرة المالية للمسلم سيان كان رجلاً أو امرأة، وقد رأينا نساء الصحابة في الجيل الأول يوم ذُكرهن رسول الله ﷺ ووعظهن يجمعن حليهن ويقدمنها للجهاد في سبيل الله، ولا ننسى أبداً أن خديجة بنت خويلد وضعت كل ثروتها بين يدي رسول الله ﷺ كما يقول عليه الصلاة والسلام:

(وواستني بمالها إذ حرمني الناس...) (٢).

فأنفق في سبيل الله، وما هو الجهاد بالمال إن لم يكن هذا الجهاد؟

ومن أنواع الجهاد في سبيل الله؟؟

الجهاد بالكلمة:

فالمرأة المسلمة صاحبة القلم الموهوب مفروض عليها أن تجاهد بالكلمة في التأليف بكل أنواعه، لأن هذا عنصر أساسي من عناصر المعركة، ولعله لا يدرك طبيعة المرأة مثل المرأة، ولا يستطيع أن يثير مشاعر النسوة للجهاد في سبيل الله مثل ما تستطيع المرأة إذن: فقد يتعين الفرض على بعض الأخوات القادرات على الجهاد بالمال أو الجهاد بالكلمة أو الجهاد

(١) التوبة / ٤١.

(٢) متفق عليه.

بالدعوة، والمجتمع النسوي المسلم أمانة في أعناق المسلمات القادرات على هذا الجهاد، وتخليهن عن هذا الأمر يوقع النسوة جميعاً في الإثم، ولا يسقط هذا الواجب إلا عندما يوجد في الساحة من تحمله عن أخواتها في هذا المجال.

الجهاد بمعناه الخاص:

ويطلق الجهاد بمعناه الخاص على القتال وهو الذي فرضه الله تعالى بقوله:

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾^(١).

علماً بأن القتال هو الذي انتهى إليه الحكم الإسلامي واستقر عليه كما يقول عليه الصلاة والسلام: (الجهاد ماض إلى يوم القيامة).

ولكنه قد يمر على المسلمين وضع يكونون عاجزين فيه عن قتال العدو، فتكون أساليب الجهاد الأخرى هي الممكنة، والمفهوم من النص المذكور أنه لا تمر مرحلة على المسلمين يعيشون فيها سيادة الكفر على الأرض الإسلامية.

ولا بد من الإشارة إلى المراحل التي مر بها القتال كما ذكرها ابن قيم الجوزية - رحمه الله تعالى - وأوضحها الشهيد سيد قطب - رحمه الله - في (الظلال) و(المعالم). وخلاصة هذه المراحل أن القتال كان ممنوعاً، ثم مأذوناً به، ثم مأموراً به بقتال من قاتل ثم انتهى إلى قتال المشركين كافة:

﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾^(٢).

(١) البقرة / ٢١٦.

(٢) التوبة من الآية ٣٦.

والجهاد بهذا المفهوم - أي القتال - غير مفروض على المرأة إنما اختص به الرجال البالغون، وبعض منه الصبيان والنساء والعبيد.

وهو في الأصل فرض كفاية على الرجال إذا قام به البعض سقط عن الآخرين. وتذكر كتب الفقه للتأكيد على هذا الموضوع أن شروط الجهاد سبعة هي:

الإسلام، والبلوغ، والعقل، والحرية، والذكورة، والصحة، والطاقة على القتال.

ويستدل الشافعي رضي الله عنه على ذلك بدليل من القرآن الكريم إذ يقول الله تعالى مخاطباً نبيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾^(١).

وإطلاق المؤمنين لا يدخل فيه النساء عند الشافعي إلا بدليل.

وسئلت عائشة رضي الله عنها عن الجهاد، فقالت: جهادهن الحج، ويدخل إعفاء المرأة من واجب الحج من باب الاستطاعة، فالأصل في المرأة ضعف بنيتها الذي يحول بينها وبين جهاد العدو.

الحج جهاد المرأة:

لقد شغل هذا الموضوع بال النساء المسلمات من جانبين:

الجانب الأول: رأي في ذلك ميزة للرجال عليهن فيه إذ حُصِّصوا بالجمعة والجماعة والجهاد وحرمت منه النساء.

الجانب الثاني: حرصهن على المشاركة في قتال العدو، وقد عبرن عن هذه المشاعر أكثر من مرة نذكر منها فيما روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟

(١) الأنفال: من الآية ٦٥.

ونلاحظ من النص أن الدافع الأول لأم المؤمنين - رضي الله عنها - في هذا السؤال: أن الجهاد هو أفضل العمل فكيف تحرم منه المرأة وهي الحريصة على أن تسابق الرجال في القربى والطاعة لله سبحانه وتعالى؟ فجاء الجواب النبوي الواضح له عليه الصلاة والسلام:

(لكن أفضل الجهاد حج مبرور)^(١).

ويتشابه الحج مع الجهاد في المشقة والسفر والجهد المبذول والتعب، لكنه يختلف عنه في أنه لا يحمل سيماء القتال للعدو، ولا يضارب به المسلمون أعداءهم، فكان هذا هو الحد الأعلى المفروض على المرأة.

ولعل من أهم الحكم في عدم فرض الجهاد - بمعنى القتال - على المرأة هو ما يحتمل أن ينتج عن المعركة بعد الهزيمة فيما لو كانت المعركة لغير صالح المسلمين.

فنظام القتال يقتضي السبي، فكيف يكون الوضع لو هزم المسلمون في المعركة، وصارت نساؤهم سبايا بيد المشركين.

لقد رأينا رسول الله ﷺ يخوض معركة بني قينقاع ضد اليهود من أجل امرأة راودها اليهود عن كشف وجهها فأبت. فقام أحد اليهود بربط طرف ثوبها بحجر. فقامت فانكشفت سواتها، فاستغاثت، فجاء مسلم فقتل اليهودي، فقتل اليهود المسلم فنشبت المعركة.

من أجل سواة أشعل المسلمون معركة، فكيف يُعرضون نساءهم للسبي جميعاً فيما لو كن مقاتلات؟!

لقد أدرك هذا المعنى الجاهليون قبل الإسلام. ورأينا دريد بن الصمة يحذر مالك بن عوف في «حنين» من إرداف النساء خلفه لأن انتهاء المعركة بالهزيمة يعني الذل والعار لنساء هوازن جميعاً.

(١) متفق عليه.

لقد أكرم الإسلام المرأة، وصان عفافها، وحصّن عرضها حيث يقتل الرجال جميعاً دونها: ﴿ومن قتل دون أهله فهو شهيد﴾^(١).

فلا غرو إذن ألا يفترض القتال على النساء، بينما لو سقط الرجال المسلمون جميعاً صرعى دون عرض امرأة فلا غرابة في ذلك.

فليست المشقة فقط هي الأصل في عدم فرض القتال على المرأة المسلمة، بل ما ذكرناه آنفاً من الحرص على أعراض المسلمين أن تنتهك.

ونجد حكمة أخرى تتناسب مع هذا التوجيه الرباني هي أن المرأة كلها عورة فخروجها إلى الجهاد والمشاركة فيه يقتضي منها أن تظهر وجهها على الأقل وهي تقاتل، وقد تبرز بعض عورتها في أثناء التلاحم فتعرض للكشف في كل لحظة.

لقد جعل الإسلام القتال فرضاً على الرجال، ولا شك أن هناك حكماً أخرى وراء ذلك جعلت هذا الأمر بهذه الصورة حيث يتناسب مع الفطرة البشرية التي خلق الله فيها الرجل والمرأة.

جواز القتال للمرأة :

ولا يعني عدم فرض القتال على المرأة أنه غير جائز لها، أو محرم عليها، فقد رأينا أحياناً كثيرة أن بعض النساء المسلمات خرجن مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته، ومجرد السماح لهن إقرار بجوازه، خاصة، وأن بعضهن باشرن القتال بين يديه عليه الصلاة والسلام، وأثنى على جهادهن ومواقفهن.

ورأينا كذلك أن أم عمارة رضي الله عنها وأم سليم وبعض نساء الصحابة رضي الله عنهن شاركن في الجهاد عند الضرورة القاهرة في بعض المعارك الإسلامية المشهورة كاليرموك لكننا لو تتبعنا كل المواطن التي اشتركت المرأة فيه بالقتال لوجدناها لا تخرج عن مواطن الضرورة مواطن

(١) أبو داود والترمذي .

تعرض فيها المسلمون للخطر، أو تراجع المسلمون واقترب العدو منهم، فهو أقرب ما يكون للدفاع عن النفس منه إلى خوض المعركة حتى تحقيق النصر.

وليس الدفاع عن النفس بالضرورة يعني المقاتل نفسه، بل المرأة المسلمة ومن حولها من المسلمين، والدود عن حياض دار الإسلام أن تمس، واشتراك أم عمارة رضي الله عنها في الدفاع عن رسول الله ﷺ له معنى خاص نفهم منه أن للمرأة المسلمة أن تدود عن الأمير والقائد عندما يتعرض للخطر من العدو، فحماية قائد الجيش وأميره حماية للجيش كله.

ولا ننسى كذلك أن أم عمارة رضي الله عنها حضرت بيعة العقبة الثانية، وبايعت بيعة الحرب فقلما وقعت معركة أو غزوة إلا حرصت على المشاركة فيها مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه.

الدور الطبيعي للمرأة في المعركة :

هو دور رئيسي من جهة، وثنائي من جهة أخرى.

- رئيسي يمكن أن يطلق عليه خدمات المقاتلين بحيث لا يستطيع المقاتل المسلم أن يؤدي دوره القتالي بدونه، ولو شغل به لأعاقه عن القتال والمواجهة.

- وثنائي من جهة ثانية إذ أن المرأة لا تباشر القتال بنفسها كما تقول أم عطية رضي الله عنها:

(كنا نغزو مع رسول الله ﷺ نداوي الجرحى ونسقي العطشى).

وحتى نفهم طبيعة هذا الدور لا بد من الإشارة إلى أن الرجال المسلمين معبؤون كلهم للمعركة، فلا يرضى الإسلام أن ينصرف واحد من المسلمين عنها لتأدية الخدمات القتالية طالما كان بالامكان العوض عنه من غيره.

الدور الطبيعي للمرأة في المعركة اليوم:

وأي جهاد ضد العدو أو الطاغوت في أيامنا هذه تستطيع المرأة أن تقوم بدورها الطبيعي فيه، ولنا في أخواتنا المسلمات اللاتي عاصرن أحداث بعض المعارك الأسوة الحسنة.

فكم من مسلمة تولت مهمة المراسلة بين المجموعات الفدائية في الوقت الذي كانت تتوقف عليها حركة العمل الجهادي، والذي لا يمكن أن تسد ثغره إلا امرأة وبعض هؤلاء الأخوات أسهمن في الجانب العسكري، ونقل العتاد والسلاح بثبات الجبال وصمود الصناديد، وأجذن استعمال مختلف أنواع الأسلحة الفردية، ولا زلنا نذكر كيف كانت تضع روحها، وروح فلذات أكبادها تحت تصرف العمل الجهادي لتكون سداً منيعاً في وجه الطغاة، وتخيم على مجموعة مباركة من المجاهدين، تشكل غطاء لتحركهم الجهادي، وفي غمرة هذه الأعمال وتحت أزيز الرصاص لا تنسى أن تدعو إلى الله، وتبث الحماس في النفوس للثأر لدين الله عز وجل.

متى يفرض الجهاد على المرأة المسلمة:

(هذا كله إذا لم يطمأ الكفار بلد المسلمين، فإن وطؤوها، وغشوا المسلمين، وعلم كل واقف عليه من الكفار أنه إذا أخذه قتله، فعليه أن يتحرك ويدفع عن نفسه بما أمكن.

يستوي في ذلك الحر والعبد والمرأة والأعمى والأعرج والمريض، ولأنه قتال ودفاع عن الدين لا قتال غزو فلزم كل مطيق والله أعلم^(١).

ويقول ابن عبد البر:

(الغزو غزوان: غزو فرض، وغزو نافلة، والفرض في الجهاد ينقسم أيضاً قسمين أحدهما فرض عام متعين على كل أحد ممن يستطيع المدافعة

(١) كفاية الاخيار ٢/ ١٢٨.

والقتال وحمل السلاح من البالغين الأحرار، وذلك أن يحل العدو بدار الإسلام محارباً لهم، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً وشباباً وشيوخاً ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مكش^(١).

الغيرة . . . والجهاد

لعل هذا الموضوع يبدو غريباً من جهة، وبعيداً عن الجهاد من جهة أخرى، لكن يكفينا أن رسول الله ﷺ ربط بينهما في الحديث القائل:

(إن الله تعالى كتب الغيرة على النساء، والجهاد على الرجال. فمن صبر منهن إيماناً واحتساباً كان لها مثل أجر الشهيد)^(٢).

شرح الحديث من كتاب فيض القدير:

(إن الله كتب الغيرة) بفتح الغين - أي الحمية والأنفة (على النساء) أي حكم بوجود الغيرة فيهن على رجالهن ومن ضرائرهن فليصبرن على جهاد أنفسهن عند ثورانها كما يصبر الرجال على جهاد الأعداء. فإن لم تجاهد إحداهن نفسها وشيطانها ذهب كمال دينها وظفر بها شيطانها بتسخطها وظلمها زوجها وضررتها. وربما جنت أو أهلكت نفسها، فقد قالت امرأة لعمر: زنيْتُ فحُدْنِي، فقال زوجها: بل حملتها الغيرة.

(والجهاد على الرجال فمن صبر): بالقياس صبرت لكن ذكره رعاية للفظ من (منهن إيماناً واحتساباً): أي لوجه الله تعالى وطلباً للثواب.

(كان لها مثل أجر الشهيد): أي إنسان قتل في معركة الكفار بسبب

(١) الكافي في الفقه المالكي لابن عبد البر ١/ ٣٩٨.

(٢) حديث حسن رواه الطبراني عن ابن مسعود.

القتال فهذه تقابل وتجبر تلك النقيضة وهي عدم قيامهن بالجهاد الذي كتب على الرجال .

وفيه إشارة إلى عدم مؤاخذه الغيرى بما يصدر عنها لأنها في تلك الحالة يكون عقلها محجوباً بشدة الغضب الذي أثارته الغيرة .

وقد أخرج أبو يعلى بسندٍ قال ابن حجر لا بأس به عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً :

(إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه) .

وخرج بقوله (من صبر) من لم يصبر ، فإن أظهرت الضجر والسخط فلا أجر لها أصلاً ، وبقوله (إيماناً واحتساباً) من صبرت ولم تحتسب صبرها فلا يكون لها أجر الشهيد لكن لها أجر في الجملة .

والطبراني والبخاري كلاهما من حديث عبيد بن الصباح عن كامل عن أبي العلاء عن الحكم عن إبراهيم بن علقمة عن ابن مسعود قال :

كنت جالساً مع رسول الله ﷺ إذ أقبلت امرأة عريانة . فقام إليها رجل فألقى عليها ثوباً وضمها إليه ، فتغير وجه رسول الله ﷺ وقال :
(أحسبها غيرى) ثم ذكره .

الكتابة والفرض :

١ - فلفظ كتب هو المصطلح الإسلامي الذي ورد في القرآن الكريم للدلالة على الفرضية :

﴿ .. كتب عليكم الصيام .. ﴾ البقرة ن الآية ٢١٦ .

﴿ .. كتب عليكم القتال .. ﴾ البقرة من الآية ١٨٣ .

﴿ .. كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية ﴾ البقرة من الآية ١٨٠ .

﴿... كتب عليكم القصاص في القتل﴾ البقرة من الآية ١٧٨ .
 ﴿... إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾ النساء من الآية ١٠٣ .

ونلاحظ أن أغلب هذه الآيات من سورة البقرة التي كانت أغزر السور تشريعاً في المدينة، وما كتبه الله تعالى هو من باب الأمر والوجوب على المؤمنين.

وتأتي كتب بمعنى قَدَّر، كقوله تعالى :

﴿... قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ التوبة من الآية ٥١ .
 ﴿... يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾ المائدة من الآية ٢١ .

وضمن هذين المعنيين نلاحظ مدلول هذا اللفظ الكريم .

٢ - ونلاحظ في هذا الفرض وهذا الأمر تقابلاً واضحاً بين قضيتين :

(الجهاد على الرجال) (والغيرة على النساء) .

فإذا كان الجهاد بالنسبة للرجال هو قتال العدو والنكاية فيه كما أسلفنا من قبل . فما موضوع التقابل بين الجهاد والغيرة :

أ - أول التقابل بينهما هو الصعوبة والمشقة والعسرة .

فإذا كان أشق شيء على نفس الرجال هو الجهاد - بمعنى القتال - بتقرير القرآن الكريم : ﴿وهو كره لكم﴾ فمن باب أولى أن يكون أشق شيء على النساء الغيرة . فأكره شيء على المرأة أن تشاركها في حياتها امرأة ثانية على رجل تحبه .

ب - وإذا كانت الغيرة تقع بشكل عام خارج هذا الإطار، إطار تعدد الزوجات كأن تقع بين امرأتين في عمل واحد؛ دراسة أو وظيفة أو تعليم، فهي

ليست المقصودة في هذا الحديث لأن الغيرة هذه مشتركة بين الرجال والنساء .

فالمعنى الخاص الوارد في هذا الحديث ينصب على تعدد الزوجات .

جـ - ومفهوم المدافعة واضح ومشارك بين الجهاد والغيرة .

إن القتال هو صد العدوان عن النفس والأهل ، وتحمل كل عقابيله من الآلام والخسائر والنكبات . والغيرة هي صد سيطرة الزوجة الثانية ومحاولة تحطيمها دون أن تنال من قلب زوجها شيئاً .

إن شعور الغيرة حيث يسود يعني أن لا تقبل المرأة شريكة لها في حياتها أو أية جزئية من جزئيات هذه الحياة .

د - والتقابل بين الجهاد والغيرة قائم كذلك في موضوع القدر المكتوب ، فالله تعالى قد جعل القتال سنة من سنن الكون ، وجعل القتال في سبيل الله أصلاً لا محيد عنه .

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾^(١) .

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾^(٢) .

وكذلك الغيرة فهي فطرة أصيلة في المرأة كامنة في أعماقها قابضة في كل ذرة من ذرات كيائها . فقد تختلف درجة الغيرة من امرأة لامرأة ، لكن الأصل الأصل أنه خلق أساسي في الأنثى . وطالما أن موضوعنا هو - جهاد المرأة المسلمة - فلا مندوحة من التوسع في هذا المجال ، لا مندوحة من التوسع في الحديث عن الغيرة التي تقود أحياناً إلى الجنة ، وتقود أحياناً إلى النار ، وما أحرصنا أن نتعرف على الغيرة التي ترفع المرأة المسلمة إلى مصاف

(١) الحج / ٤٠ .

(٢) البقرة من الآية ٢٥١ .

الشهداء كيف تكون؟ وما هي طرائقها خلال الحديث النبوي المذكور.

الغيرة والشیطان :

كما ذكرنا أن الغيرة خلق أصيل في المرأة، وادعاء المرأة أنها لا تغار ادعاء مخطىء أو واهم أو كاذب . لكن لهذه الغيرة حدوداً إذا تم تجاوزها يعني أنها تقود إلى النار .

فعندما خرج رسول الله ﷺ ليلة من عند عائشة ثم عاد إليها قالت له :

(بأبي أنت وأمي يا رسول الله أتيتني فوضعت ثوبيك ثم لم تلبث أن قمت فلبستهما فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع .

قال : يا عائشة أغرت؟

قالت : ومالي لا يغار مثلي على مثلك .

قال : أجهلك شيطانك؟ قالت : ألي شيطان؟ قال : نعم . قالت : ولك شيطان ، قال : نعم إلا أن الله أعانني عليه فأسلم)^(١) .

فنص الحديث يدل على أن البناء على الظن في موضوع الغيرة هو طريق الشيطان . والاستجابة لهذا الظن وتهيج الغيرة هو استجابة لحوافز الشيطان الذي يريد أن تقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين المتحابين . وخاصة أن يفرق بين الزوجين .

إن الغيرة مثل الهوى تماماً . فإما أن تضبط بحدود الله وشرعه وتكبح ، وإما أن يطلق لها العنان فتكون بعدها الطامة .

ولعل الحادثتين اللتين ذكرهما شارح الحديث توضحان العجب العجيب الذي تقود إليها الغيرة . فهذه امرأة تأتي وتعترف أمام عمر رضي الله عنه أمير

(١) رواه مسلم .

المؤمنين، أنها زنت وتطلب من أمير المؤمنين أن يحدها، ثم يسارع زوجها ليقول: بل حملتها الغيرة.

إنها تعرّض نفسها للرجم حتى الموت من حنقها وغيظها، وترى أنه لا سبيل لها للخلاص إلا بذلك والمرأة الثانية التي جاءت عريانة ولفها رجل بثوبه وقال عليه الصلاة والسلام عنها إنها امرأة غیری.

إن هاتين الحادثتين لتوضحان إلى أي مدى يمكن أن يقود الشيطان المرأة تحت ستار الغيرة. فكل دفع للغيرة في غير طريقها الصحيح أو سير بها في غير كايح ولا ضابط هو انتحار سريع على مذبج الشيطان الذي يدفع المرأة الغیری، إلى الهاوية.

الغيرة والانحراف:

وقد تندفع المرأة المسلمة لتقول: مالي وللغيرة فالزواج الأفضل هو عدم التعدد.. وتحمد الله عز وجل أن زوجها لم يشرك معها زوجة ثانية حتى لا تدفعها الغيرة إلى مهاوي الشيطان، وتقودها إلى الانحراف.

ويكاد يكون هذا القول لسان كل فتاة مسلمة في وقتنا الحاضر لم يكتب عليها التعدد بعد.

ويزين الشيطان لها هذه الصورة كذلك، بل تهدد زوجها إن أقدم على التعدد أنها ستجاوز الحدود المشروعة، سوف تتحر، سوف تنحر ضررتها وزوجها، سوف تتركه وتمضي إلى أهلها إلى آخر هذه الدعاوى العريضة. ويعجز الزوج ويتوهم الخطر ويهرب من التعدد، ويرضى بالوضع القائم رغم قناعته أحياناً بضرورة التعدد الذي أباحه الله تعالى له، ورغم إلحاح حاجته الجسدية أو النفسية أو المعنوية.

إننا نقول للمرأة المسلمة: إن هذا الموقف مرفوض في ميزان الله عز وجل، ومرفوض في منطق العقيدة، إنه مثل تهديد أي مسلم بالمعصية لآخر

إذا فعل مباحاً، أو فعل واجباً في بعض الأحيان .

فلتلق الله تعالى نساؤنا، ونخص بالذكر الداعيات إلى الله عز وجل، واستعمال هذا الأسلوب منهن هو حرب على سنة الله تعالى في هذا الوجود، وهو حظر لمباح أباحه الله تعالى للرجال بضوابطه وشروطه، وليكن الرجال المسلمون كذلك عند موقعهم، ونخص بالذكر الدعاة منهم، وليذكروا جميعاً ذلك العتاب الرباني لرسول الله ﷺ في جزئية من الجزئيات راعى بها عاطفة زوجة من زوجاته .

﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم﴾^(١) .

وأن يصل التعدد في حس المسلم، وفي الواقع العملي للمسلم الداعية إلى حالة حرمة المباح وحظر المندوب هو أمر خطير ولا شك في الواقع الفردي، وفي الصف الإسلامي كذلك .

الغيرة المحتذاة :

ولا بد أن نقف على الموطن الذي يحدد المنعطفات بالنسبة للغيرة، وحديثنا إلى الأخت المسلمة التي تحلم بالجهاد، وترغب فيه، وترجوها أن تكتب مع المجاهدات .

نعم، إذا كانت الغيرة المنطلقة بلا حدود ولا قيود هي طريق النار فإن الغيرة المنضبطة بشرع الله هي طريق الجنة، وهي طريق الشهادة، وهي موضوع الحديث الأصلي للغيرة والجهاد .

يجب أن نعيد إلى أذهان أخواتنا المؤمنات أن المجتمع الإسلامي الأول وما تلاه من قرون وهي خير قرون أهل الأرض .

(١) سورة التحريم / ١ .

«خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(١).

هذه القرون الثلاثة كان الأصل فيها التعدد، وإن أي عودة إلى أي كتاب من كتب التراجم والسير عن الصحابة والتابعين. واختيار البحث عن أي صحابي وتابعي بدون تعيين. نلاحظ فقرة خاصة بزواجه، وهذا يجعل مفهوم (... كتب الله الغيرة على النساء...) مفهوماً واقعياً، فإن كنا لا نراه في واقعنا اليوم، ونرى أن الشذوذ هو التعدد فهو خروج على الصورة البشرية الأصلية بالنسبة للرجل، وإذا كان الإسلام هو التطبيق الواقعي المثالي على الأرض، فنحن بحاجة إلى أن نعيد النظر في مفاهيمنا اليوم من الجذور، ونوطن أنفسنا دعاء وداعيات إلى الاستجابة لهذه الفطرة الأصلية. ونحن المسؤولون عن تقديم هذه القدوات، وأن نهني ظاهرة التأييم أو العنوسة التي تغزو مجتمعنا الإسلامي اليوم.

ونحن المسؤولون عن تقديم هذه القدوات، ونحن المسؤولون عن تغيير هذا المجتمع بسلوكنا وواقعنا لا بكلامنا وادعاءاتنا.

فما هو المطلوب منا إذاً في هذا المجال؟

المطلوب من الأخت المؤمنة الداعية أن توطن نفسها من الأصل على فكرة الشركة في حياتها من أخت أخرى لها لا أن تعد هذا الأمر نشازاً. أو تستهجنه وتستنكره، بل تقف عند حدود الله تعالى قانعة راضية خاضعة لما كتب الله عليها من التعدد. محتسبة غيرتها عند الله عز وجل، كما يحاسب الرجل المجاهد ما كتب الله عليه من القتال راضياً خاضعاً محتسباً ذلك عنده.

والمطلوب من الأخت المؤمنة الداعية. أن لا تكون عائقاً دون هذا الأمر، وأن لا تقاوم مقاومة المرأة الجاهلية للتعدد، بل تدع الأمر لزوجها وشأنه في هذا الأمر. كما كانت نساء رسول الله ﷺ أو نساء الصحابة والتابعين يفعلن، يقبلن هذا الأمر الواقع دون عناد أو مكابرة أو محاربة.

(١) متفق عليه.

والمطلوب من المرأة المؤمنة الداعية كذلك أن تدافع عن هذه الفكرة حين تطرح في المجتمعات الجاهلية الآسنة . وأن تتبناها ديناً وعقيدة، كما تتبناها سلوكاً. فلا تنجرف وراء الهوى وتسمح للسانها أن ينال عرض أخ أقدم على هذا الأمر استجابة لفطرته أو ضرورته .

وهنا بيت القصيد بالنسبة للغيرة . . . وجهاد المرأة المسلمة، ويتم ذلك عن طريقين اثنتين :

الطريقة الأولى : أن تقبل التعدد في حياتها، وتصبر على أن تدفع غيرتها وتكبحها، وتصبر وتعرف أن هذا الأجر الذي تناله، والثواب الذي تحصل عليه من جراء الصبر على نوازغ غيرتها يعادل آلام طلقات الرصاص في المعركة، يعادل الصبر على نزيف الجراح فيها، يعادل التلقي لقذائف القنابل في أتون الحرب الدائرة، فحذار من أن تتلقى هذه الأمور ساخطة رافضة مدبرة .

إن رسول الله ﷺ وعد بالجنة من قاتل العدو مقبلاً غير مدبر، بينما وعد الله تعالى من ولي العدو دبره بالنار .

إن صبر المرأة المسلمة على لأواء التعدد، وفجائع الغيرة مع شريكة حياتها . . هو جهاد بالتعبير النبوي الرائد، لكن تجاوزها وحقدتها وكراهيتها وعملها على هدم هذا الواقع هو إدبار من هذه المعركة، وهذا هو مفهوم قول رسول الله ﷺ . فمن صبر منهن على ذلك فله أجر شهيد .

إن الصبر والتقيد بحدود الله عز وجل، وقبول العدل من الزوج المسلم، وعظمة معاناة هذه المشاعر، والتي أقرها رب السموات والأرض، وكتب أجرها في الوقت نفسه هو ذخر المرأة المسلمة ورصيدها في هذه الحياة .

الطريق الثانية : هي أن تقدم المرأة على اختيار زوجها من حيث الكفاءة فقط، من حيث رضا دينه وخلقه، وأن لا تجعل في ميزان الكفاءة شيئاً يعدلها على الإطلاق .

وكما طلب الإسلام من الرجل أن يختار المرأة لدينها ولدينها فقط .
فقد طلب الإسلام من أولياء المرأة كذلك أن يقبلوا من يرضون دينه
وخلقه .

(إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في
الأرض وفساد عريض) .

هكذا بهذا الإطلاق . فلا تدع المرأة مع عامل الدين والخلق عاملاً آخر
يطغى عليه ويحول دونه، ويتحدد أكثر، لا نجد في مجتمعنا امرأة تفكر إلا
في الزواج من رجل بكر يناسبها سناً وجمالاً ومالاً . ثم تبحث بعد هذا عن
الدين والخلق . وليس الرجال بأحسن حظاً من النساء في هذا الضياع فالرجل
يبحث ابتداء عن البكر والثقافة والجمال، ثم يبحث بعدها عن الدين والخلق
لقد أصبح الشذوذ في مجتمعنا اليوم . أن تقبل الفتاة المسلمة من الزواج من
رجل مسلم تزوج ولو كان عالماً خلوقاً كريماً . إلا إذا عجزت عن غيره،
وتجاوزت سن الزواج وأصبحت على خطر أن يفوتها الركب . وكذلك الأمر
بالنسبة للرجل . فلا يفكر في الزواج من أرملة أو مطلقة . ولو كانت من خيرة
نساء الأرض ديناً وخلقاً، ولو كان ترملها لشهادة زوجها أو كان طلاقها لأنها
حافظت على دينها وتمسكت به، ولا يقدم على هذا الزواج إلا إذا كان عاجزاً
مالياً أو جسدياً أو به عاهة معينة .

إنه الانحراف كله، والشذوذ كله .

بل لو رحت تعرض مثل هذا الزواج دون عذر، لعد الأمر إهانة للرجل
أو إهانة للمرأة، إنها لوثة الجاهلية الغربية تعصف بنا، لتبقي الكثيرات من
نسائنا عوانس، أو مهددات بالانحراف . أمام هذه القيم الزائفة .

إننا ندعو إلى تصحيح هذا الانحراف الخطير .

ليكن الميزان الذي نزن به أمورنا وحياتنا ومشاعرنا ميزان الله تعالى

ورسوله . ، فلا يكون العائق مثلاً دون الكفاءة اختلاف السن أو نقص في المال أو اختلاف في المركز الاجتماعي أو شركة لامرأة أخرى معها في حياة هذا الرجل .

إنها وهي تقدم على ذلك غير عابئة بهذه العوامل جميعاً ، واضعة نصب عينيها حديث رسول الله ﷺ من ترضى دينه وخلقه ، وموطنة نفسها على الصبر في هذه النواقص جميعاً - مالاً و ثراءً أو جاهاً ، أو زوجة أخرى ، أو سناً ، فهي بذلك تدخل معترك الجهاد مدعنة لما كتب الله عليها ، راضية بما قسم الله تعالى لها ، ولا قسمة في هذا الوجود أعظم من الرجل الصالح الذي بقي أهله النار ، ويقودها إلى الجنة .

إنما هو جنتك أو نارك .

أما الغيرة فمعاناتها والصبر عليها هو الجهاد وهو الشهادة .

وكلمة واضحة إلى الرجل :

وإن كان حديثنا في هذا الكتاب للأخت المسلمة ، لكن ومن أجلها لا بد من كلمة إلى الأخ المسلم .

فالذي يتصور التعدد أمراً حلو المذاق ، لا شيء فيه سوى المتعة الخالصة هو مخطيء خطأ فاحشاً . إن التعدد في حقيقته متعة ومسؤولية . كما يقول القرآن الكريم .

﴿وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا﴾^(١) .

إن التعدد الطيب المذاق ، والذي جاء التعبير عنه (ما طاب لكم) قد جاء محصوراً بين خوفين ابتداءً وانتهاءً .

(١) النساء / ٣ .

﴿فإن خفتهم ألا تقسطوا...﴾ ﴿... فإن خفتهم ألا تعدلوا...﴾

فالتعدد هو الذي يزيل الظلم ابتداءً حتى لا يقع الحيف على أموال اليتيمات والربائب في الحجور. وبالتالي فلا يعالج الظلم بظلم. ولا يلجأ إلى التعدد خوفاً من ظلم اليتامى بظلم إحدى الزوجتين، فيقع المرء المسلم في الإثم والحرام.

والتعبير القرآني من الدقة، بحيث أنه لم يكن - فإن لم تعدلوا - إنما كان - فإن خفتهم ألا تعدلوا - فمجرد الخوف من هذا الأمر، يصرف عن التعدد إلى الواحدة.

هذه واحدة: والعدل ليس من السهولة التي يتصورها المسلم، إنه أمر يغير حياة الزوج تغييراً كاملاً، وينطلق من الحرية الكاملة إلى القيد الكامل.

فالمتزوج من واحدة، نفقته في البيت، وإقامته فيه، وتعامله مع زوجه، وخروجه منه لعمل ليس فيه حساب آخر، أما عند التعدد، فلا بد أن يراعي كل تصرف، النفقة، المواعيد، والحضور إلى البيت، والضيوف، والنوم، والحديث، والهدية، والخلاف، والنقد، والصبر لا بد أن يتحرى العدل في هذا كله.

ولا بد كذلك أن يدخل في حسابه آثار الغيرة الضخمة التي تنعكس على كل تصرفاته لا بد أن يحسب حساب المفاجأة في كل لحظة بظنٍ سيء، واتهام باطل، وكيد واقع ولا بد من معالجة كل هذه الأمور وإزالة سوء الظن، ونفي الاتهام، وإيضاح الافتراء، وترضية الخواطر، ومراعاة الخلق، وتخفيف التوتر.

إن العدل ذاته لا يرضي أياً من الزوجتين، خاصة في موضوع العواطف، بل تود كل زوجة أن تكون المحظية عنده، والأولى على قلبه، والأولى في تعامله.

وهو بين موقفين :

إما أن يكبت الزوجتين معاً، ويستعمل سلطته وقوته، ويتعامل بذلك مع جسد لا مع روح، ويقتل المشاعر والأحاسيس، ويقبل بسلطة الحاكم العادل بقناعته لا بقناعة رعيته، وإما أن يفتح صدره وقلبه لكل ظن، وانفعال، وغيره، وغضب، وحقد أحياناً، فيمسح الجراح، ويهدئ الغضب، ويزيل التوتر، ويتغاضى عن الخطأ، ويتعامى عن الغيرة الظالمة. ويتكلف المجاملة الطيبة، ويكون هذا كله على حساب وقته، وعلى حساب أعصابه، وعلى حساب راحته في كثير من الأحيان.

لا بد أن يوطن الرجل نفسه على هذا الواقع الجديد كل الجدة، وأنه يكتشف خلقاً في المرأة كامناً لم يعرفه ولو عاش معها الأعوام الطوال، ولا يبرز إلا عند التنافس على القلب، والتنافس على الحب، وإن كان ولا شك، يلقي كذلك حباً غافياً يتحرك عند التنافس، ووداً مهماً يتأجج عند الغيرة، فهو كذلك يلقي غضباً، وقهراً، وغيظاً لم يكن يعرفه من قبل.

والذين يتصورون التعدد هو المتعة الخالصة، ويقومون عليه استجابة لنزوة عارضة دون أن يقدروا آثار العدل، وضروراته وشرائطه وتكاليفه هم واهمون. وقد تكون النهاية الخراب في أحد البيتين مادياً أو معنوياً، وقد يكون الطلاق، وقد يكون فقدان عواطف الأولاد، كل هذه الأمور لا بد أن تدخل في حساب الرجل المقدم على التعدد.

﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾^(١).

إنه الإسلام يدعو إلى ممارسة المسؤولية لا إلى الهرب منها، والذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويريدون أن يحرموا التعدد بهذا التقابل العجيب..

﴿وإن خفتم ألا تعدلوا﴾...﴿ولن تعدلوا﴾.

(١) النساء / ١٢٩.

هم يشرعون من عند أنفسهم، فبارئ السموات والأرض نهى عن الإجحاف، ولم ينه عن التعدد نهى عن الميل كل الميل، ودعا إلى الإصلاح والتقوى وممارسة المسؤولية.

وشبخان آخران لا بد أن يكونا في حس الأخ المسلم وهو يقدم على التعدد.

الأول: هو أن مجتمعنا المعاصر ينذر فيه التعدد، فلا بد أن يكون في حسابه مضاعفة الام المرأة التي صار لها ضرة، وذلك حين تنظر حوالها، فلا تلقى إلا القليل مثلها، وبذلك تعمق جراحها، وتنزى آلامها، لماذا هي من دون أخواتها كتب عليها هذا الابتلاء؟

الثاني: أن أسرنا ونساءنا لم نترب أبداً على التعدد، ولم تنهياً نفسياً له، ومن أجل هذا سيواجه بحرب عنيفة من زوجه وأحمائه، وأصدقائه وزوجات أصدقائه وأقاربه. وأصبح مفهوم التعدد مرتبطاً، بالنزوة العارضة والرغبة الجامحة، والميلان كل الميل حتى يذر الأخرى كالمعلقة، فصار الانطباع سيئاً عنه، إلى أبعد الحدود.

ولا بد من الإشارة كذلك إلى تعقد الحياة، وتكاليفها المادية الباهظة، وتحول كثير مما كان يعتبر من باب الكماليات إلى باب الحاجيات، وهذا كله يحتاج إلى عدل شامل وإمكانيات مادية متاحة.

ويكفي أن نعلم أن الآية التي تلت قول الله تعالى: ﴿لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا﴾ هي قول الله عز وجل:

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً﴾^(١).

وأخيراً:

نحن في مجتمع مجاهد نحن في مجتمع فيه أرامل الشهداء وهن

(١) النساء / ١٣٠.

كالورود عمراً وجمالاً ونضارة فقدن أزواجهن في سبيل الله، بل نرى أكثر من ذلك أن بعض فتياتنا صرن جزءاً من المعركة، وصرن أسرى بيد العدو، فلا بد من أن تكسر قيود هذا المجتمع الجاهلي :

لا بد أن نصبح أسرة واحدة لا تبقى فيه امرأة إلا وهي في عصمة رجل يصونها ويدود عنها. لا بد أن نصبح مجتمعاً مسلماً بما في الكلمة من معنى فتكافل فيه رجاله ونساؤه.

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض..﴾

لا بد أن تقوم الولاية، ويقوم الترابط، ويقوم التفاعل والالتحام في هذا المجتمع، فتفسح الأخوات المؤمنات الداعيات صدورهن لشريكات لهن في حياتهن، ويتغلغل الجهاد من ساحة العدو إلى الجهاد في قلب البيت، إلى الصبر على نوازع الغيرة، إلى الوصول إلى الأجر المطلوب.

ومن أجل هذا ربط رسول الله ﷺ بين الغيرة والجهاد.

إن الجهاد يفرض بنتائج التعدد، من ثم فالتعدد يقود إلى الغيرة، فلا بد من متابعة المعركة رجالاً ونساءً. ولا بد من التحام المجتمع كله، حتى لا يخشى مجاهد على أهله بعده. حتى لا يجبن مجاهد عن اندفاعه إلى الجهاد خوفاً من تشرذم زوجه ولده؛ حتى يبقى الجيل الإسلامي الواحد يمد المجتمع بالشهداء، بالشهداء من الفريقين، بالشهداء من الرجال الذين يقدمون أرواحهم رخيصة في سبيل الله.

وبالشهداء من النساء اللواتي يقدمن عواطفهن رخيصة في سبيل الله.

وبالشهداء يزكو المجتمع، وبالشهداء يثمر، وبالشهداء يتم الاصطفاء والتمحيص.

فيا إخوة الجهاد لا تبخلوا بالبذل في أغلى ما تملكون في سبيل الله.

ويا أخوات الجهاد لا تبخلن بالبذل في أغلى ما تملكن في سبيل الله .

إن الله كتب الغيرة على النساء والجهاد على الرجال فمن صبر منهن إيماناً واحتساباً كان لها مثل أجر شهيد .

عمليات فدائية لنساء مسلمات

- ١ -

إنها أم الفضل بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب رأى أبو لهب غباراً من بعيد مالبث أن تكشف عن ابن أخيه أبي سفيان بن الحارث، وعلى وجهه علائم الذعر والخوف. فأسرع كمن وقع على بغيته يقول لابن أخيه :

يا ابن أخي هلم إليّ فعندي لعمرك الخبر.

سمعت أم الفضل صوت حميها أبي لهب، وصوت حميها أبي سفيان بن الحارث، فخرجت مهرولة تستمع للخبر، وخرج وراءها مولاها أبو رافع، وجلسا في زاوية بحيث يستمعان للحديث.

وكان أبو لهب لا تغادره عنجهية، فجلس في الأرض يستمع لابن أخيه والناس قيام حوله.

أبو لهب: أخبرني كيف كان أمر الناس؟

أبو سفيان: والله ما هو أن لقينا الناس حتى منحناهم أكتافنا يقتلون منا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا (وكان ذلك في غزوة بدر الكبرى)

ونظرت أم الفضل إلى مولاها أبي رافع والسرور يسرق في وجهها. وتابعت مع مولاها بشغف واهتمام حديث أبي سفيان بينما كان أبو لهب يتجههم وجهه ويربد.

وتابع أبو سفيان قوله: وأيم الله ما لمت الناس .
لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض لا يقوم لها شيء .
والتفتت أم الفضل مرة ثانية إلى أبي رافع لتظهر له سعادتها بالخبر .
فإذا به يصرخ وقد فقد أعصابه من الفرح . بغير وعي !
تلك والله الملائكة .

وقام أبو لهب والشرر يتطاير من عينيه . وضرب أبا رافع ضربة شديدة ،
أودعها كل غلظته وحقدته وقسوته . ومضى يفرغ جام غضبه على المولى
المسكين المسلم أبي رافع .

إيه يا أم الفضل . هذا مولاك المسلم يضربه عدو الله أبو لهب .
ونسيت أم الفضل في لحظة انفعالها هذه خطة إخفاء الإسلام لهذا
البيت على أهل مكة ، ونسيت أنها امرأة .

تحولت إلى لبوة كاسرة ، وقد اقتحم أبو لهب عرينها يريد إهانتها .
وقامت إلى عمود من عمد البيت ، وجمعت كل قوتها ، وأفرغتها في
ضربة هائلة على رأس أبي لهب ، فشجته أعنف شج حتى غمر وجهه الدم
وصاحت فيه :
استضعفتُ إن غاب عنه سيده .

أين رجولتك وبطولتك يا أبا لهب ؟ هذه زوجة أخيك تدوس كبرياءك
وتمرغ كرامتك بالتراب والوحل على ملا من الناس .

وماذا يفعل عدو الله ؟
خاف أن يسقط عياء وينتابه الدوار ، فتخور رجلاه ولا تحمله ، فتماسك
وتمالك ومضى إلى بيته مولياً ذليلاً وقد تسربل بالدم .

ويا للعار !

أيقول للناس إن أم الفضل شذخته ؟ !
إنها الفضيحة الكبرى .

وما هي إلا أيام حتى التهب جرحه ، ووصل أثر الضربة إلى دماغه .
فابتلي بمرض معدٍ اسمه - العدسة .

تحاشاه الناس ، وارضضوا من حوله ، خوفاً من أن تصيبهم العدوى ، حتى
حمالة الحطب تركته يئن وحده ، وينازع سكرات الموت ، وحتى ولده ، ابتعدوا
عنه إلى أن صرعه الموت فأضحى جثة هامدة .
يقول أبو رافع :

فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة - وهي قرحة تتشاءم
بها العرب - فتباعد عنه بنوه حتى قتله الله وبقي ثلاثة أيام لا تقرب جنازته ، ولا
يحاول دفنه ، فلما خافوا السبة في تركه حفروا له .

ثم دفعوه بعود في حفرتة ، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه .
وانتهى أبو لهب عدو الله ، جيفة قذرة يعافها الناس وترجم ، كما ترجم
جث الكلاب المنتنة ، ويتقززه الناس حتى بنوه .

﴿أولئك لهم خزي في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ .

ومضى مع رفاقه أبي جهل ، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة .
أولئك يقذفون في القليب في بدر . وهو يقذف في حفرتة في مكة .
لك الله يا أم الفضل .

فلئن ذكر التاريخ أبطال الحروب فلست أدنى منهم . بل أنت واسطة
العقد فيهم ولئن ذكر التاريخ ابني عفراء وابن مسعود قتلة أبي جهل ، وعلي
وحمزة وعبيدة قاتلي عتبة وشيبة والوليد ، فما أحراه أن يذكر كدرة في جبينه .
وقد أوديت بحياة أبي لهب عدو الله .

ونلت تارك بيدك من عدو الله .

ورضي الله عنك مع الخالدين .

الخوف يفتك في النفوس فتكاً ذريعاً، والرعب بلغ من القلوب مبلغه وكما تقول أم سلمة رضي الله عنها، شهدت معه مشاهد فيها قتال وخوف، المريسيع وخيبر، وكنا بالحديبية وفي الفتح وحنين، لم يكن من ذلك أتعب لرسول الله ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحرجة، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري فالمدينة تحرس حتى الصباح، نسمع تكبير المسلمين فيها حتى يصبحوا خوفاً . . .

وحتى لا يتبادر إلى ذهننا أنها مشاعر امرأة. فلنستمع إلى مشاعر الرجال. يقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما وهو يخاطب أحد الشباب من التابعين:

«والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ هُويًا^(١) من الليل ثم التفت إلينا فقال:

من رجل يقوم فينظر ما فعل القوم ثم يرجع - يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟

فما قام رجل من القوم من شدة الخوف، وشدة الجوع وشدة البرد^(٢) ويكفيننا في ذلك وصف الله سبحانه.

﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾^(٣).

في هذا الجو الرعيب المخيف، وحيث زاغت أبصار صناديد الأبطال،

(١) هُويًا من الليل: قطعة منه.

(٢) تهذيب السيرة: ١٩٧/.

(٣) الأحزاب / ١٠ - ١١.

كانت هناك عين تسهر يقظى في حصن النساء هي عين صفية بنت عبد المطلب^(١)، وتحشى أن يباغت يهود بني قريظة الحصن، ولم يكن المسلمون قد أعدوا حراساً للحصن لأن بني قريظة مسالمون موادعون.

أما الموقف المتوتر الآن. فقد نقض بنو قريظة العهد، وأعلنوا حربهم على المسلمين، كان قلب صفية يخفق خوفاً على الذراري والنساء، وصح ما توقعته

ها هو شبح يلوح من بعيد، فتحدق فيه النظر، فيقترب ويقترب، وتمسك قلبها بيدها من هول المفاجأة، إنه يدنو حتى يغدو عند أسوار الحصن، وتتفحصه في الظلام الحالك، إنه فارس يهودي مدرع، يتلمظ شوقاً للفتك بأعراض المسلمين وهذه هي فرصته السانحة، فالليل مد لهم. وأبطال المسلمين بعيدون عن الخندق والفرصة مؤاتية، ووراء مجموعة كبيرة هو قائدهم وفارسهم وفدائهم. فلئن نجحت خطته، وتمكن من اقتحام الحصن، فسيكونون رهن إشارته، ويقتسمون جميعاً نساء المسلمين وذراريهم. ولكنهم اختاروا البطل المغوار، خوفاً من أن يكون هناك حراس يفتكون بالمغامر، إنها عملية فداية جسورة يقوم بها بطل يهود.

وتتشال هذه الأفكار دفعة واحدة على رأس صفية حول هذا المغامر الفاتك العنيد!!

هل تولول ذعراً، لعل المسلمين ينجدونها من بعيد؟ أم يغمى عليها من الرعب؟ أم تختبئ في حجر ريشما تسمع بانصرافه!!!

إنها لتعلم أن المسلمين ورجالهم بعيدون عن الحصن فهي التي تحدثنا بالأمر:

(فمر بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة، وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بينها وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون في غور عدوهم . .)

(١) كان عمر صفية رضي الله عنها يقارب الستين عام هذه الغزوة.

ماذا تفعل لبؤة بني عبد المطلب العجوز. فالزبير ابنها البطل الحواري
قد ناف على الخامسة والثلاثين يقارع العدو في الصفوف؟!

ماذا تفعل صفية، والعدو جائم حول الحصن يود اقتحامه؟!

ونظرت إلى السيف، فلم يقرعينها السيف وها هي تشده في وسطها؛ ثم
تقوم إلى عمود من عمد البيت فتنتزعه وتمضي هابطة من الحصن.

إلى أين يا أم الزبير؟ والرجال يرجفون من الخوف، والمنافقون يقولون:
إن محمداً يعدنا بكنوز كسرى وقيصر، ولا يأمن أحدنا أن يخرج إلى حاجته
من الغائط إلى أين؟

إلى ذلك المجرم الفاتك، فإما روحها وإما روحه.
وانتهت عند باب الحصن.

هل تخرجين يا صفية من الباب؟ حذار! لو فعلت فقد تكون كوكبة من
الفرسان مختبئة تنتظرك لتختطفك عند باب الحصن.

ولم تعر لهذا الخاطر التفاتاً، فالأمر عندها أكبر من روحها، وأكبر من
حمايتها. الأمر إنقاذ نساء محمد بن عبد الله ﷺ من السبي، الأمر هو الحفاظ
على أعراض نساء المسلمين، إنها المسؤولة عنهن. ولا تعادل روحها في هذه
الحالة عندها جناح بعوضة.

التفتت في حذر حتى اطمأنت إلى أن الأشباح قابسون ينتظرون مصير
بطلهم المغامر فهو الذي يتحدى
ثم ماذا؟

ثم مضت بعزيمة أشد من عزيمة الأسود، وانقضت كاللبؤة الكاسرة عليه
من الخلف وأهوت بالعمود على رأسه بضربة هاشمية نجلاء، جعلته يقع
كالكلب من هول الضربة، وتشدخ رأسه، ويقع خائراً كالثور في النزاع الأخير،
ولم تغادره حتى اطمأنت أنها أرسلت بروحه إلى جهنم وبئس المصير. فقد

لفظ أنفاسه الأخيرة النجسة عند رجليها دون أن يتمكن من الحراك .

أنهت اللبوة مهمتها، ونظرت حواليتها يمنة ويسرة، تتحدى من الذي يجرو على الاقتحام، فقد استعدت لمواجهة العدو، ومواجهة الخوف، ومواجهة الرعب. فتتك بأي جيش من هذه الجيوش يود الاقتراب أو الاقتحام .

وذعرت كل الجيوش من هول الضربة الهاشمية المسلمة، ولم تجرؤ يهود بعد على الاقتراب منهم يحسبون أن حمزة بن عبد المطلب، قد شق عنه القبر، وجاء ليزيقهم حتوفهم جميعاً.

ولا بدع: فهي أخت أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب وصنوه اطمأنت إلى أن كل الأشباح قد لاذوا بالفرار، وعادت مكبرة إلى الحصن. ثم راحت تسائل نفسها بعد أن مس جسدها الأرض قليلاً:

أو يترك يهودي دون سلب أليس هذا حقاً للمسلمين؟

أو ما كفاك يا بنت عبد المطلب أن قتلت المغامر الفاتك؟! لا، إن رسول الله ﷺ يقول: من قتل قتيلاً فله سلبه.

وإنها والله لن تدع للكافرين ذرة تراب يهنؤون بها، وهي قادرة على ذلك، ها هي تعود ثانية فتغادر الحصن، وتنقض على الفريسة، تأخذ سيفه وسلاحه ودرعه، وتقف ثانية تنتظر التحدي، فلا يجرو وغد على مغادرة جحره.

إنها تتحدى كل يهود، وتبث الرعب في قلوبهم، ولكن خسثوا، فما لابنة عبد المطلب من مبارز.

عادت وقد عقد إكليل الغار على جبينها، وتاج النصر على رأسها. وبثت الرعب في قلوب بني قريظة، وزلزلت حصونهم، وبدو أن يهود ظنوا أن هذه الأطم والحصون المسلمة في منعة من الجيش الإسلامي - مع أنها خالية منهم تماماً - فلم يجرووا ثانية على القيام بمثل هذه المغامرة.

لك الله يا بنت عبد المطلب لك الله يا عمة محمد، فقد أرهبت يهود
بشجاعتك وصعقت بني قريظة ببطولتك. وصرت مثلاً يحتذى على مدار
التاريخ.

- ٣ -

الأسود العنسي في اليمن يملأ الأرض فساداً وفجوراً، ويدّعي النبوة
ويرهب الناس حتى يتخفى المسلمون بإسلامهم ويملاً الخوف من الطاغوت
كل فج.

لكن عزة الإسلام تأبى أن تهون. فهذا خطاب رسول الله ﷺ إلى
المسلمين يأمرهم بالقيام على دين الله والنهوض بالحرب. والعمل في
الأسود الكذاب إما غيلة وإما مصادمة.

واتجهت أنظار المسلمين إلى فكرة الاغتيال للطاغية، فكيف يصلون إليه
ودون ذلك خرط القتاد، ودون الوصول إليه الحرس والسلاح والجنود؟

وتدارس المجاهدون المسلمون أمرهم، وقلبوا كل وجهات النظر
وأعيتهم الحيلة، فالأمر على درجة من الصعوبة والخطورة بحيث يجعلهم
عرضة للإبادة، وقد انضم إليه فرسان العرب وصناديدهم.

من لهذه الطامة؟

وبرزت في قلب المعمة زوجته المسلمة. وكان صاحب الفكرة في
الاستفادة منها ابن عمها فيروز الفارسي المسلم، لكن الذي يروي لنا الخبر
ابن عمها الآخر جشيش بن الديلمي.

أما الزوجة المسلمة - آزاد - فقد كانت ممتحنة عند المتنبئ الكذاب،
الأسود العنسي، وقد أخذها قهراً وغلبة بعد أن قتل زوجها، وأعمل في قومها
الذبح والفتك،

يقول جشيش:

فدخلت على أزداد وهي امرأته فقلت :

يا ابنة عم قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك، قتل زوجك، وطأطأ في قومك القتل، وسفل بمن بقي منهم، وفضح النساء. فهل عندك من ممالأة عليه؟!

مأزاد رضي الله عنها ودخلها في حرب مهلكة ضد الأسود الطاغية! ولو افتضح أمرها لذبحت كما تذبح النعاج، أو ما يكفيها ما هي فيه من بلاء؟.

فلتجزع كؤوس الصبر تفادياً لمصيبة أعظم.

قالت أزداد: على أي أمره؟.

قلت: إخراجة.

فهذا هو المدى الذي يطمح إليه المجاهدون. إخراجة من حصنه حتى يتمكن المسلمون بعدها من قتله بالصورة المناسبة.

لكن مطامح أزداد كانت أبعد، وآفاقها كانت أوسع، وآمالها كانت أرحب فهي تعد نفسها لمسؤولية أضخم من مسؤولية الإخراج.

وهي لا ترضى أن يكون هذا دورها فقط.

قالت: أو قتله.

واهتز جشيش فرحاً من رأسه إلى أخمص قدميه متسائلاً: أو قتله؟

فأجابت بثقة لا تعرف الوهن:

نعم، والله ما خلق الله شخصاً أبغض إليّ منه، ما يقوم الله علي حق، ولا ينتهي له عند حرمة، فإذا عزمتم فأعلموني خبركم بمآتي هذا الأمر.

لقد تحملت هي مسؤولية الإعداد الكامل للقتل، وأهابت بالمجاهدين أن يكونوا على قدر طموحها، وعندما يبلغون هذه المخاطرة الجريئة فليعلموها بخبرهم.

تداول الفدائيون الأمر، ومدى إمكانية القتل، ورنوا إلى فيروز - زعيم
الفرس المؤمنين - أن يدفعهم إلى ذلك وهو من خلصائه وجلسائه .

أما الذعر من الأسود الطاغية فيقطع نياط القلوب .

هذا فيروز في دار الأسود ومع حرسه إذ بالأسود العنسي يخرج منتفخ
الأوداج . فيقف الناس له جميعاً قياماً وفيروز فيهم، وفي ردهة القصر مائة من
البقر والغنم . والحربة بيده، وأحب أن يثير الرعب أكثر، فيجرب وحشيته
وبطولته بهذه الأنعام .

ها هو يخط خطاً، فتقام الأنعام من ورائه، فيمضي ينحرفها بحرته وهي
غير محبوسة ولا معقولة، ما يخطيء منها شيئاً، ثم يتجه إلى فيروز قائلاً:
أحق ما بلغني عنك يا فيروز؟

ثم جعل الحربة على عنقه . فرأى فيروز أنه الموت الزؤام . وقال الأسود
له :

لقد هممت أن أنحرك فأنبعك هذه البهيمة .

وتمالك فيروز نفسه ولم يخنه ذكاؤه، ولم يفقد أعصابه فقال للأسود:
اخترتنا لصهرك، وفضلتنا على الأبناء، فلو لم تكن نبياً ما بعنا نصيبنا منك
فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر آخرة ودنيا .

وكانت هذه الهزة كفيفة أن تدفع المجاهدين ليحكموا أمرهم أكثر،
ويسارعوا في التنفيذ وإلا قتلهم جميعاً قبل أن يقتلوه، وكلفوا جيشياً أن يعود
ثانية إلى أزداد يحكم معها الأمر وأعلمها أن القوم قد أجمعوا على قتله، وعليها
وضع الخطة، وبقتله ينهار الكفر كله .

قالت رضي الله عنها :

هو متحرز متحرس، وليس من القصر شيء إلا والحرس محيطون

به . . .

وهمدجشيش وهو يسمع هذا الكلام لكنه سرعان ما أصاخ لما استدرckte . . . غير هذا البيت فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق .

وشدت انتباهه إلى المكان المطلوب، ثم راحت تشرح الخطة :

. . . فإذا أمسيتم فانقلبوا عليه، فإنكم من دون الحرس، وليس دون قتله شيء . وقالت : إنكم ستجدون سراجاً وسلاحاً .

استوعب جشيش الأمر، ودرس المكان، ورصد أبعاده، وتم الاتفاق على التنفيذ فالأمر جد خطير، ويحتاج إلى عمل دؤوب، مع حرصٍ شديد أن لا يفلت الأمر إلى أحد، وقام جشيش والههم قد احتوشه من صعوبة العمل، والإيمان يملأ قلبه ثقة بالله، ومضى كالعصفور الطائر قبل أن يناله الصياد، يتسلل من البيوت .

ورأى ويا لهول ما رأى

ها هو الأسود العنسي كالشيطان الرجيم ماثلاً أمامه، فكاد يسقط مغشياً عليه من هول المفاجأة، وكان الشرر يتطاير من عيني الأسود الحقود .

وصرخ بجشيش : ما أدخلك علي؟

ثم انقض عليه كالوحش المتلمظ للدم، ووجأ برأسه، فأهوى جشيش بين قدميه، ورأى الموت بين عينيه، فما هي إلا لحظة، ويغدو كامس الدابر .

ورأت أزاد أخاها المسلم بين قدمي زوجها الدجال، فما تفعل؟

هل تسقط مغشياً عليها من الخوف والرعب، وقد خرج الرجل الغريب

من حجرتها!!

هل تهوي على قدمي زوجها متضرعة خائفة تطلب منه المغفرة، وتعهده

ألا تعود قبل أن يسقط رأسها عن جسدها!!

ماذا تفعل؟

هل تتمالك أكثر فتقبل يد زوجها ورحله لتحمي جشيشاً من الموت،
والموت بانتظارها؟

صاحت المرأة العظيمة صيحة أذهلت زوجها وصرفته عن الرجل قائلة
بحدة وعصبية: ابن عمي جاءني زائراً.

واقتربت من زوجها وفي عينيها بريق الموت.

قال لها الأسود:

اسكتي لا أبالك، قد وهبته لك.

ثم ابتعد عن جشيش. فأتت إليه آزاد، وهذأت روعه حتى خرج.

أما جشيش فمضى يسابق الريح إلى إخوانه، وراح يقص عليهم ما رأى
ووجهه ممتنع من الخوف، حدثهم عن الخطة التي رسمتها آزاد، وأزمع على
تنفيذها معها، ثم أكدَّ لهم أنه صرف النظر عنها بعد انكشاف أمره، وليحمدوا
الله سبحانه، بنجاته ويبحثوا عن خطة أخرى لقتل الأسود.

وغدت المجموعة الفدائية في حيرة تسترجع وتحول، وأسقط في
أيديهم فقد فات الهدف، بعد أن كاد أن يسقط أحدهم ذبيحاً بيدي الدجال
لولا لطف الله.

وبينما هم يهمون بالانصراف إذا شبح يلوح من بعيد

من القادم؟

إنه رسول آزاد:

واعتلاهم الوجوم، ترى هل جاء الرسول للقبض على جشيش؟!

وصل إليهم ووجهه مغتبط، فسرى عنهم من علائم وجهه وقال لجشيش
بلسان آزاد: لا تدعنَّ ما فارقتك عليه، فإني لم أزل به حتى اطمأن.

فلئن أسقط في يد المجموعة الفدائية، لكن آزاد لم تهن عزماتها، ولم

تلن قناتها لا تزال مصممة على قتل عدو الله - زوجها - ولو كلفها القتل حياتها.

ومن أجل ذلك راحت تهدىء من أعصابه، وتطمئن من نفسه على أن الأمر عادي، ولا يعدو زيارة قريب حتى اطمأن.

وأكدت للمجموعة الفدائية أن الخطة لا تزال قائمة، وهي التنقيب عن البيت من الخارج والدخول على الأسود ليلاً لقتله.

قال فيروز لجشيش: ما ترى؟

قال جشيش. اثنتا فتبَّت منها، أما أنا فلا سبيل لي إلى الدخول بعد النهي.

ووافق فيروز على التَّو، وهو يرى صعوبة التنفيذ، لكن لا بد من زيارة سرية ثانية لأزاد لبحث هذا الأمر، ودراسته على الطبيعة.

لكن فيروز متهم مثل جشيش، ورأينا من قبل كيف وضعت الحربة على عنقه، ولم يكن بينه وبين الموت إلا أن يُمرَّها على حلقه فيذبح، يوم ذبح الأسود الأنعام التي كانت أمامه. ولكن الموت أهون الأمور على المسلم، ولا بد من زيارة أزاد.

مضى فيروز إليها، وطلب منها أن تريه المكان المحدد للتنقيب، فلما رآه لحظ ثغرة خطيرة في الخطة، هي أن البيت مبطن من الداخل، فقال لأزاد:

وكيف ينبغي لنا أن ننقب على بيوت مبطنة؟!

وأطرقت أزاد مفكرة: ومن الذي يقتلعها؟! ومن الذي يغامر، والأمر يحتاج إلى سرعة.

لا حل إلا أزاد وفيروز.

ومضيا في التنفيذ لا يكلان .

مضيا يعملان في اقتلاع بطانة البيت، والعرق يتصبب من جبينيهما، والصمت قد خيم عليهما فلا شيء إلا الجهد، والأنفاس لا تكاد تلتقط من شدة التعب .

وما زالا كذلك حتى اقتلعا بطانة البيت من الداخل .

وخافت أزداد أن يفتضح الأمر قبل تنفيذ العملية، فاقترحت أزداد أن تتم تغطية الجدار، وسارع فيروز لذلك، ونفذ الأمر .

كانا يعملان على أعصابهما في أشد الظروف حلقة .

كيف إذا جاء الأسود وهما على هذه الحالة؟

والشيطان الرجيم يرقب الأمر، ويتميز غيظاً من ذلك، فوسوس للأسود أن يدخل على أزداد، وكانت الصاعقة الثانية .

ها هو ذا الأسود العنسي يدخل على أزداد .

فيرى فيروز عندها .

فيستشيط غضباً . وأخذته الغيرة، وراح يجيل نظره بها توطئة لقتلها، فماذا تفعل؟ هل المهم أن تُقتل؟ أم المهم أن تنفذ العملية؟

الاستشهاد سهل، ويمكنها أن تعترف، وتبدي بطولة فائقة، وقد عملت ما عليها، لقد مر على خاطرها سريعاً هذا الموقف، ولكن لا بد لها من تدارك الأمر في مثل لمح البصر قبل أن تكون الجثتان هامدتين بلا حراك .

وما أنت فاعلة يا أزداد؟

وها هو الأسود الكذاب يهم بالانقضاء .

استدركت أزداد الموقف وبرباطة جأش المؤمن، وبأعصاب ثابتة أثبت من الجبال الرواسي، أخبرت أزداد الأسود، أن فيروز قريبها من الرضاع، وأضفت على الأمر شيئاً من الدعابة والمرح .

حملق الأسود في فيروز، وقلبه يتفطر حقداً منه، لكن ماذا يفعل، فهو قريب زوجه من الرضاع، فماذا يفعل؟

صاح به وأخرجه، والشرر يتطاير من عينيه.

بينما راحت أزداد تداعبه وتناغيه حتى سرت عنه، ثم خدرت مشاعره، لتتابع تنفيذ خطتها بسلام، وبقيت المهمة بعدها مهمة المجموعة الفدائية.

فكيف تم التنفيذ؟

جاء المساء، وابتدأت الخطوات الحاسمة من تنفيذ العملية، حيث تمت التوطئة لها بإزالة البطانة الداخلية للجدار.

تابع الفدائيون عملهم تحت جناح الظلام، وفتحوا الثغرة المطلوبة من الجدار الحصين، حتى صار بإمكانهم التسلل إلى داخل بيت المتنبئ الدجال.

وكُلف فيروز أن يكون أول الداخلين.

وكما يتسلل القطا تحرك فيروز وصاحبه، وراحوا يتحسسون طريقهم بخفة وحذر وسرية تامة، بينما كانت أزداد جالسة لا يرقأ لها جفن، ولا تغمض لها عين، فلا بد أن تؤدي دورها المطلوب في هذه العملية الفدائية، وكانت قد حددت مكان السراج لإخوتها المجاهدين، دون أن تغادر مخدعها حتى لا تتهم بالتواطؤ معهم.

كان غطيظ الدجال العنسي يملأ الغرفة، فاتجهوا صوب الصوت، ومعهم السراج الخافت، وكان الشيطان الرجيم يتلمظ حقداً على مقتل الأسود العنسي، فأيقظه، وإنه ليغط جالساً. وكانت اللحظة من أدق اللحظات في العملية، فإن تنبّه القوم عليهم فاتهم الهدف، وعرف فيروز أن التنفيذ ما لم يتم الآن وبالسرية الخاطفة، فسيباد القوم جميعاً بيد هذا المتنبئ الأفاك.

وانقض فيروز عليه انقضاض السبع على فريسته، وأخذ برأس الأسود

بقتله ودقَّ عنقه، ثم وضع ركبته على ظهره فدقَّه ثم قام ليخرج.

صاحت (أزاد) وأخذت بثوبه وهي ترى أنه لم يقتله:

أين تدعُني؟

أجاب فيروز: أخبر أصحابي بمقتله.

فهدأت أزاد قليلاً، لكنها لم تطمئن بعد: بينما استدعى فيروز صاحبيه بعد أن بشرهم بقتله.

كانت الخطوة التالية العنيفة كذلك هي: كيف يواجه الفدائيون جُندَ الأسود وحرسه فقد يقطعون إرباً قبل الوصول إلى من وراءهم من المسلمين، وأكبر ما يفت في عضد جند المتنبئ هو أن يرمى لهم برأسه.

ودرس الأمر في لحظات، وتقرر حزُّ رأسه.

يقول فيروز: فأردنا حز رأسه، فحركه الشيطان فاضطرب، فلم يضبطه، قلت: اجلسوا على صدره، فجلس اثنان على صدره.

ترى أيفوت المرأة المسلمة شرف المشاركة في التنفيذ؟

أو لم يكفها أنها قامت بالتخطيط والتوطئة للتنفيذ حين نقت مع فيروز البطانة من الداخل؟

وبينما هي ممسكة بشعره، والشفرة تمر على حلقه، إذ هو يخور كأشد خوار ثور سمع قط. انتبه الحرس فزعين، وكل واحد منهم يده على سلاحه، واتجهوا صوب الصوت وهم يتصايحون منجدين، ما هذا؟ ما هذا؟

ترى، هل آن الأوان لذبح المجموعة المسلمة، وتقطيع أوصالها.

وما هي إلا لحظة واحدة إلا وهم جميعاً جثث متناثرة، وقد فصلت أعناقهم عن أجسادهم، ومن الذي يوقف هذه الوحوش المسعورة عن الفتك بقتله نبيها المزعوم؟

ومن الذي ينقذ الموقف من جديد .

كانت آزاد بلباقتها وذكائها وعبقريتها الفذة هي المنقذ للمرة الثالثة،
والعنصر الأكبر في نجاح العملية .

برزت (أزاد) للحرس بأعصاب هادئة، ونفس مطمئنة، وكلمتهم برباطة
جأش تتزلزل منها الجبال قائمة :

النبي يوحى إليه، النبي يوحى إليه .

وهدأت الوحوش المسعورة، وانصرفت بعد أن طمأنتهم أن نبيهم
العنسي يوحى إليه، وتحت جنح الليل تمت دراسة بقية الخطة، بعيداً عن
الجزع والفرع، وتمت تعبئة الجنود المؤمنين ليواجهوا الموقف، ويصاولوا
الكفار .

طلع الفجر ونادى داذويه زعيم المؤمنين في اليمن بالشعار .
فلبى المؤمنون والكافرون .

قام الثالث فنادى بالأذان، وأعلن كلمته المدوية في أرجاء القصر :
أشهد أن محمداً رسول الله، وأشهد أن عبهلة كذاب (أي الأسود) وألقى
لأتباعه برأسه .

وكانت معركة سريعة حاسمة، هزم بها الكافرون، وأقيمت الصلاة،
ودوت كلمة التوحيد في أرجاء القصر .

وحفظت ذاكرة التاريخ لأزاد المرأة المسلمة دورها العظيم في هذه
العملية الفدائية، التي أعادت لليمن دوره الإسلامي المجيد، بعد موجة
المتنبىء الكذاب .

وكانت رمزاً وقدوة حية للمسلمات على مدار القرون .

دور المرأة المسلمة في أحد

في معترك الأحداث، ومن لهيب الجراح التي تحياها أمتنا، تمر بنا ذكرى غزوة أحد الخالدة. وسنتناول من هذه المعركة دور المرأة المسلمة فيها فقط؛ لتكون الأسوة الطيبة للفتاة المسلمة اليوم.

نحن أمام نماذج خالدة يضمن التاريخ بأمثالها على مداه الطويل.

المرأة المسلمة طيبة وممونة:

ولندع النصوص تقص علينا دور المرأة المسلمة في المداواة والتموين:

١ - روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال:

لقد رأيت عائشة وأم سليم وإنهما لمشمرتان تنقزان القرب على متونهما، تفرغان الماء في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملأنها، ثم تجيشان فتفرغانه في أفواه القوم.

٢ - (وذكر الطبراني أنه لما انصرف المشركون، خرج نساء الصحابة لتقديم العون لهم، فكانت فاطمة فيمن خرج، فلما لقيت النبي ﷺ اعتنقته وجعلت تغسل جراحاته بالماء فيزداد الدم، فلما رأت ذلك أخذت شيئاً من حصير فأحرقته بالنار وكمدته به حتى لصق الجرح فاستمسك الدم^(١)).

٣ - وعن أم عطية قالت:

(غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، فكنت أصنع لهم طعامهم

(١) سمط النجوم العوالي: ج ٢/ ٨٨.

وأخلفهم في رحالهم وأداوي الجرحى وأقوم على المرضى^(١).

٤ - قال محمد بن عمر:

(وقد حضرت أم أيمن أحداً، كانت تسقي الماء وتدأوي الجرحى)^(٢).

وإن كان لنا تعليق على هذه الصور الحية من النضال فهو أن سيدة نساء أهل الجنة فاطمة الزهراء بنت الرسول القائد عليه الصلاة والسلام، وعائشة بنت أبي بكر أفضل نساء المسلمين وزوج الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه، لم تكونا أثناء المعركة في سرادق ضخم تحيط به القوات المدججة بالسلح، ترقبان المعركة بعينين زائغتين، بل كانتا تعملان بين طعنات الرماح وضربات السيوف، وتساقط النبال كالمطر على المسلمين لإيصال الغذاء والدواء والسقاء للمقاتلين.

فقد دخلت أم أيمن المعركة متأخرة، والذي دفعها لدخول المعركة وصول فلول المنهزمين إلى المدينة، فغضبت الله ورسوله، وصرخت بالمنهزمين مزدرية قائلة لهم: هاك المغزل وهلم سيفك.

وعن عبدالله بن زيد قال:

(جرحت يومئذ جرحاً في عضدي اليسرى، وضربني رجل كأنه الرقل «النخلة الطويلة» ولم يعرج علي ومضى عني، وجعل الدم لا يرقأ، فقال رسول الله ﷺ: اعصب جرحك، فتقبل أُمِّي إِلَيَّ، ومعها عصائب في حقوبها قد أعدتها للجراح، فربطت جرحي والنبي واقف ينظر إلي، ثم قالت: انهض يا بني فضارب القوم!! فجعل النبي ﷺ يقول: ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة!!)^(٣).

(١) الطبقات الكبرى: ج ٨/٤٥٥.

(٢) الطبقات: ج ٨/٢٥٥.

(٣) الطبقات: ج ٨/٤١٤.

وصدق رسول الله، فأبي امرأة ترى جراح ابنها تنزف، ثم تحته على مضاربة القوم بجراحه الداميات!!؟

* * *

المرأة المسلمة مصابة :

جاء في «الكامل» لابن الأثير أن أم أيمن كانت تسقي الجرحى في الجيش، فرماها حبان بن العرقه بسهم فوقعت فانكشفت، فأغرق عدو الله في الضحك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فدفع إلى سعد بن أبي وقاص سهماً لا نصل له وقال:

ارم به، فرمى به، فوقع السهم في نحر حبان المشرك فوقع مستلقياً حتى تكشف، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: «استقاد لها سعد أجاب الله دعوته».

* * *

المرأة المسلمة متقمة :

قالت أم عمارة: وأقبل الرجل الذي ضرب ابني، فقال رسول الله ﷺ: «هذا ضارب ابنك».

قالت: فاعترض له، فأضرب ساقه؛ فبرك. قالت: فرأيت رسول الله ﷺ يتبسّم حتى رأيت نواجذه، وقال: استقدت (ثارت) يا أم عمارة.

ثم أقبلنا نعلّه بالسلاح حتى أتينا على نفسه، فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي ظفرك وأقر عينك من عدوك، وأراك تارك بعينك».

* * *

المرأة المسلمة فدائية :

قالت أم عمارة :

قد رأيتني وانكشف الناس عن رسول الله ﷺ، فما بقي إلا في نفي ما يتمون عشرة، وأنا وابنائي وزوجي بين يديه نذب عنه والناس يمرون به منهزمين، ورآني لا ترس معي، فرأى رجلاً مولياً معه ترس فقال لصاحب الترس: «اللق ترسك إلى من يقاتل».

فألقي ترسه فأخذته، فجعلت أترس به عن رسول الله ﷺ فيقبل رجل على فرس فضر بني وتترست له فلم يصنع سيفه شيئاً وولى وأضرب عرقوب فرسه، فوقع على ظهره، فجعل النبي ﷺ يصيح: يا ابن أم عمارة، أمك، أمك. قالت: فعاونني عليه حتى أوردته شعوب^(١).

وفي رواية عن أم سعيد بنت سعد بن الربيع تقول: دخلت عليها فقلت حديثني خبرك يوم أحد.

قالت: خرجت أول النهار إلى أحد وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعني سقاء فيه ماء. فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين. فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فجعلت أباشر القتال، وأذب عن رسول الله ﷺ بالسيف وأرمي بالقوس، حتى خلصت إلي الجراح.

قالت: فرأيت على عاتقها جرحاً له غور أجوف، فقلت: يا أم عمارة من أصابك هذا؟

قالت: أقبل إلي ابن قميئة وقد ولى الناس عن رسول الله ﷺ وهو يصيح دلوني على محمد فلا نجوت إن نجاء، فاعترض له مصعب بن عمير، وناس

(١) من أسماء المنية.

معه فكنت فيهم فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان.

* * *

المرأة المسلمة مثخنة بالجراح:

كان ضمرة بن سعيد المازني يحدث عن جدته، وكانت قد شهدت أحداً تسقي الماء، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان وكان يراها يومئذ تقاتل أشد القتال، وإنها لحاجة ثوبها على وسطها حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً.

وكانت تقول (جدة ضمرة):

إني لأنظر إلى ابن قمیئة وهو يضربها على عاتقها، وكان أعظم جراحها، فداوته سنة.

ثم نادى منادي رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد، فشدت عليها بثيابها فما استطاعت من نزف الدم، ولقد مكثنا ليلتنا نكمد الجراح حتى أصبحنا. فلما رجع رسول الله ﷺ من الحمراء، ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني يسأل عنها فرجع إليه يخبره بسلامتها؛ فسر بذلك النبي ﷺ^(١).

وسيبقى المسلمون في الأرض يذكرون المرأة الفدائية التي أثنخت بالجراح دفاعاً عن رسول الله. ولتتهنأ أم عمارة بمقامها في عليين، فلقد أفاقت من جروحها وهي تسمع رسول الله ﷺ يدعو لها ولابنيها وزوجها:

(اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة).

(١) الطبقات: ج ٨/٤١٣.

فردّد الصوت المفعم بالدم : ما أبالي ما أصابني من الدنيا .

وستبقى الدنيا كلها تنرو إلى هذه البطولات التي ساهمت في توجيه المعركة من الهزيمة إلى النصر؛ مثلتها أم عمارة الصحابية وغيرها الذين غيروا مسيرة التاريخ ، فلو انتهى المسلمون في أحد لكان للتاريخ شأن آخر .

* * *

المرأة المسلمة صابرة صامدة :

وحين تنزل المحنة ، وتتناثر الجثث ، وينزف الجرحى ويسقطون بلا ساعد أو عضد أو رجل ؛ في هذه الظروف نريد المرأة المسلمة كذلك :

هل تقيم النواح في بيتها أربعين يوماً؟! هل تجعل عمرها في حداد؟!!

لنستمع إلى المرأة النموذج في هذه الظروف :

مر رسول الله بامرأة من بني دinar وقد أصيب أخوها وزوجها وأبوها مع رسول الله ﷺ ؛ فلما نعوا لها قالت : فما فعل رسول الله ﷺ ؟

قالوا : خيراً يا أم فلان هو بحمد الله كما تحيين .

قالت : أروني حتى أنظر إليه ، فأشير لها إليه ، حتى إذا رأيته قالت : كل مصيبة بعدك جلل (أي صغيرة) .

ولعمري إن بطولة المرأة الدينارية وتجالدها لا يقل عن بطولة أم عمارة وهي تذود عن رسول الله . إنه الارتباط الحي مع الرسول القائد الذي بلغ مرحلة التضحية بالأب والأخ والزوج دونه .

* * *

المرأة المسلمة والجنته :

إنه الإيمان العميق الذي قدم كل هذه البطولات .

قبل أن يدخل رسول الله ﷺ جاءت أم سعد بن معاذ تعدو نحو رسول الله ﷺ وهو على فرسه، وسعد آخذ بلجامها؛ فقال سعد: يا رسول الله أمي. فقال: مرحباً بها.

فوقف لها، فلما دنت من رسول الله ﷺ عزاها بابنها عمرو بن معاذ، فقالت: أما إذا رأيتك سالماً فقد اشتويت^(١) المصيبة.

ثم دعا رسول الله ﷺ لأهل من قتل بأحد، وقال لأم سعد:

يا أم سعد أبشري، وبشري أهلهم أن قتلاهم ترافقوا في الجنة جميعاً. وقد شفّعوا إلى أهلهم جميعاً.

فقالت: يا رسول الله من يبكي عليهم بعد هذا؟!

إنه الموقف نفسه من أم حارثة التي جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله عن ابنها حارثة الذي قتل، فقالت:

يا رسول الله، ألا تحدثني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء؟!

قال: يا أم حارثة إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى.

* * *

أختي المسلمة:

هذا المستوى الذي وصلت له المرأة المسلمة لم يكن ليتحقق لولا الإيمان العميق، ويكفي أن نضع مقابل هذه النماذج جميعاً نموذج المرأة المشركة وأقصى حدّ بلغت إليه في كبرى شخصيات المشركات آنذاك وهي هند بنت عتبة:

(١) خُفّت وضعفت.

لقد كانت تشجع على النزال في أحد، وأكبر قيم الشرك عندها كي
يثبت المقاتلون في النزال هي إثارة الغريزة الجنسية الهابطة؛ فكانت تنشد مع
رفيقاتها:

نحن بنات طارق إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
والمسك في المفارق أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

ولكنها تعرضت مرتين للخطر، حدثنا عنهما الزبير رضي الله عنه، قال:

ثم رأيته (أي أبا دجانة) قد حمل السيف على مفارق هند بنت عتبة ثم
عدل السيف عنها. ويفسر لنا أبو دجانة ذلك فيقول:

رأيت إنساناً يحمّش الناس حمشاً شديداً (أي يهيجهم على القتال)
فصمدت له، فلما حملت عليه السيف وَلَوَ فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول
الله ﷺ أن أضرب به امرأة!!

والمرة الثانية يوم فررن مذعورات من الموت كما يقول الزبير: والله لقد
رأيتني أنظر إلى خدام هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب، ما دون
أخذهن قليل ولا كثير.

فما نراها إذن إلا فارة أو مولولة.

إنها هي التي قادت النسوة المسلمات لصد هجوم الروم يوم اليرموك
بأعمدة الخيام، بعد أن ذاقت حلاوة الإيمان والإسلام!!

البطولة إذن منبعثة من الإيمان، والنصر موقوف على الإيمان.

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا
بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون﴾^(١).

* * *

(١) سورة الحجرات: الآية ١٥.

دور المرأة المسلمة في الهجرة

تطل علينا ذكرى الهجرة مع بداية العام الهجري الجديد، وتحمل في ثناياها أمجاداً خالدة لأمتنا بمناسبة قيام أول دولة مسلمة على الأرض؛ والتي اختيرت لتكون رمزاً لتاريخنا بإجماع الصحابة رضوان الله عليهم، وذلك بعد أن استعرضوا أحداث الإسلام الكبرى، وانتهى رأيهم على أن الهجرة أعظم الأحداث على الإطلاق، لأنه بتحقيقها وجد الكيان الإسلامي والدولة المسلمة.

إن الهجرة تحمل في أفيائها ذكرى أول يوم أعز الله فيه المسلمين على الأرض، وأعلنوا كلمة التوحيد خفاقة عالية في ربوع العالمين.

ونحن لن نتمكن من استعراض أحداث الهجرة التي تحتاج إلى سفر كبير، بل سنتناولها من زاوية واحدة، وهذه الزاوية هي: دور المرأة المسلمة في الهجرة، وذلك ضمن الخطوط الرئيسية التالية:

- ١ - قبيل الهجرة، ٢ - في التمهيد للهجرة، ٣ - في التنفيذ العملي، ٤ - من ثمار الهجرة، ٥ - الفتاة المسلمة اليوم والهجرة.

١ - قبيل الهجرة

لا بد من الإشارة إلى أن الهجرة إلى المدينة كان لها مقدمات عديدة، وأهم هذه المقدمات الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة؛ حيث كانت رائدة للهجرة المعروفة. ويكفي أن نعرف مدى أهميتها من خلال النقاش الذي جرى بين مهاجري الحبشة وقد مثلت جانبهم أسماء بنت عميس رضوان الله

عليها، ومهاجري المدينة ومثل جانبهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ حيث راح عمر يؤكد أن هؤلاء المهاجرين للحبشة قد فاتهم أجر كبير، أجر الغزو مع رسول الله ﷺ، وأجر الهجرة نفسها، فلا تمالك أسماء المهاجرة المجاهدة من أن تنتظر رسول الله ﷺ بفاغ الصبر على بابه حتى يخرج، ثم تشكوله ما يلاقي الرواد الأوائل من عنت فيجيب عليه الصلاة والسلام: «لهم هجرة ولكم هجرتان».

فتمضي أسماء زوج جعفر بن أبي طالب مملوءة الوطاب بالرضا وقد تلاًلاً وجهها من الفرح.

إن التاريخ قد شهد هجرات عديدة لا تنقطع على مدى الزمان هجرات للغزو طمعاً في السلب والنهب، وهجرات للكسب بعد أن تأكل الفاقة قلوب القابعين في الأرض، وهجرات اضطرارية نتيجة عدوان صارخ. أما الهجرة لله، في سبيله ولإعلاء كلمته؛ فلقد أعلن رسول الله ﷺ أن أول مهاجرين في سبيل الله هما إبراهيم ولوط عليهما السلام.

وتمر القرون تلو القرون، وينشق فجر الدعوة من مكة، فيكون أول مهاجرين جديدين ليسا رجلين ولكنهما رجل وامرأة: هذان المهاجران هما عثمان بن عفان ورقية بنت محمد بن عبدالله رسول الله ﷺ.

ولئن كان ركب مهاجري الحبشة فيه ثلاثة وسبعون رجلاً، فقد ضم الركب الرائد إحدى عشرة امرأة. وهذا يعني أن المرأة المسلمة كانت جزءاً من الدعوة والجهاد في سبيل الله، تخلّت عن أعراض حياتها الزائلة من مالٍ وولد وأهل وبلد في سبيله، تركت وطنها الغالي ومضت إلى الحبشة حيث الأرض النائية، والغربة عن الجنس واللون والقوم في سبيل العقيدة التي آمنت بها.

ومرة ثانية يبرز عمر بن الخطاب في نقاش مع مهاجري الحبشة، ولكنه

الآن مشرك عنيد قد أذاق المسلمين صنوف التعذيب وألوانه. ومرة ثانية يمثل المهاجرين امرأة من الركب الرائد.

يقول عمر: إنه الإنطلاق يا أم عبد الله؟

فتجيب: نعم نخرج إلى أرض الله، فلقد آذيتُمونا وأخرجتُمونا من بلادنا. ويحضر زوجها فتقص عليه ما جرى بينها وبين ابن الخطاب مشيرة إلى رقة وجدتها فيه على غير عادته؛ فيقول لها: أو تطمعين أن يسلم عمر؟! فتجيب في ثقة: نعم، فيقول: لا والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب. ويمر الزمن ويثبت صدق فراسة المرأة العظيمة المهاجرة ليصبح عمر فيما بعد الفاروق الذي أعز به الإسلام، وخطأ رأي زوجها اليأس من إسلامه.

ومن كرام من هاجر إلى الحبشة من النساء المسلمات بنت رجل من أكبر المعاندين والمعادين للدعوة آنذاك: أم حبيبة بنت أبي سفيان تاركة أباها وأمها وأخواتها والعز والمنعة في ظلهم، ماضية إلى أرض الغربية والوحشة والنأي مع زوجها عبيد الله بن جحش. ولئن كان الزمان قد شهد كثيراً من النسوة اللاتي تركن اهلن مرضاة لأزواجهن؛ فإنه عقيم أن يلد - إلا النادر - مَنْ تترك زوجها وأهلها ووطنها لتبقى وحيدة في العراء لامعين لها ولا نصير إلا الله. فلقد تنصّر زوجها ودعاها إلى النصرانية فرفضته وقاطعته ولم تتخل عن دينها لشيء. وهي تعاني آلام الغربية القاتلة، وآلام الترميل، وآلام الوحدة والوحشة، لا يجمعها مع المهاجرين الرواد إلا رابطة العقيدة، بينما أبوها سيد مكة وصاحب الكلمة النافذة والرأي المطاع فيها؛ ترفض حماه وعزته، وتأوي إلى حمى الله وكنفه ورعايته صابرة صادقة مجاهدة.

٢ - في التمهيد للهجرة

وكان ذلك ليلة بيعة العقبة الثانية:

وشاءت إرادة الله أن يكون أول جيل فدائي على الموت عدده ثلاث

وسبعون رجلاً بايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام أولاً، ثم بايعوه على حرب الأحمر والأسود من الناس، وهلاك الأموال والأولاد والأنفس في سبيل الله.

والأصل في مثل هذه البيعة أن تكون لحملة السيوف ولا لربيات الخدور؛ ولكن تاريخنا العظيم أشار إلى امرأتين شهدتا هذه البيعة؛ وبايعتا رسول الله ﷺ على بذل المال والنفس في سبيل الله، وحرب الأحمر والأسود من الناس.

وكان يمكن لهذه البيعة لو كشفت من العدو أن يكون فيها جزّ الرقاب، وقطع الأعناق. فهؤلاء الثلاثة والسبعون في الأصل منشقون عن ركب حجاج يثرب الذي يتجاوز عددهم / ٣٠٠ /، وكل هذا الجيل الفدائي معرض للإفناء والقتل، وأم عمارة الأنصارية وأم منيع الأنصارية تعلمان ذلك، مع هذا بايعتا رسول الله وأعلنتا أن العقيدة فوق الحياة وفوق الروح والدم والوجود.

ولم تبخل أم عمارة بدمها يوم دعاها الواجب لذلك.

٣ - في التنفيذ العملي

وكان أول سباق إلى المدينة مهاجراً كذلك ركب صغير قوامه رجل وامرأة وطفل هم: أبو سلمة بن عبد الأسد، وزوجه أم سلمة وابنه سلمة. ابتدأت الهجرة عادية برفقة زوجها، لكن الأهل الحاقدين على الإسلام والمناوئين له، انقضّوا على الركب الآمن وأخذوا ابنتهم أم سلمة عنوة من زوجها مع طفلها الرضيع وبدأت المرأة المسلمة تعاني من هول الفجيعة، إذ أدت هذه العملية إلى خطوة أعنف؛ انقضّ أهل الزوج على الطفل الرضيع ليأخذوه انتقاماً لحبس زوجة ابنهم، وغدا ابنهم، وغدا الطفل بين شد وجذب حتى خلعت يده، وتحس أم سلمة أن قلبها قد خلع وراءه. وانتهى العراك وغدت المرأة المسلمة بلا زوج ولا طفل: زوجها هاجر إلى المدينة. وطفلها حبسه أحماؤها، وأمست نهبة للبكاء والحزن والألم، تخرج كل يوم إلى ظاهر

بيتها وتستسلم للنحيب، لا يرقأ لها دمع حتى مر عليها عام وهي على هذه الحال!!

ويتدخل أحد أقربائها قائلاً لأهلها:

ألا تخرجون هذه المسكينة؟! فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها. فقالوا لها: إلحقي بزوجك إن شئت.

تقول أم سلمة رضوان الله عليها:

(ورد بنو عبد الأسد عند ذلك ابني، فارتحلت بعيري ثم أخذت ابني فوضعتة في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة وما معي أحد من خلق الله..!!)

تمضي المجاهدة العظيمة وحدها في العراء، في الظلمة الموحشة، والبيد المقفرة، تسامر النجوم، وترعى السماء، أنيسها رب العالمين، تنهب الأرض بخطواتها، وتمر الأيام والليالي بطيئة ببطء الهم، ثقيلة ثقل الموت؛ حتى قادها الله إلى رجل دلهها على مكان زوجها، فنزلت هناك بين أهلها الجدد الذين انتمت إليهم بين المسلمين وفي رحاب زوجها الكريم.

* * *

ثم تكون الهجرة الخالدة، هجرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه:

دخل رسول الله ﷺ على صاحبه الصديق رضي الله عنه ووجد عنده ابنتيه أسماء وعائشة، فقال: أخرج من هنا. قال: يا رسول الله لا عليك إنما هما ابنتاي.

وأعلن النبي عليه الصلاة والسلام عزمه على الهجرة أمام البنتين الجالستين.

تري، أية ثقة هذه بالفتاة المسلمة! وأي إكبار هذا! أن تعلن أعظم مغامرة وأخطر خطة أمام هاتين الفتاتين.

إنه يكفي للفتاة المسلمة فخراً يرصع جبينها هذه الثقة العالية التي منحها رسول الله ﷺ لها يوم يعلن عن هجرته أمامها، ولو كانت في الطفولة المبكرة. إنه عليه الصلاة والسلام يعلن بنفس الوقت أنها أهل لتحمل المسؤولية، أهل لكتمان السر، أهل للمشاركة في الجهاد.

ولئن فات عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن تشارك في عمليات الهجرة لأنها كانت طفلة تدرج، وبقيت مع هذا أهلاً للثقة؛ فلم يفت أسماء الكبرى ذلك، وغدت جزءاً من عملية الهجرة، وكان دورها دور ضباط التموين في العمليات العسكرية اليوم: إن عليها أن تقطع شوارع مكة بين العيون الحاقدة، والقلوب التي تنزّ بالبغض، وتتلمظ للشار، وتمضي بعيداً بعيداً جنوبي مكة في أعلى الجبل تنقل الزاد لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه وصاحبه أبي بكر رضوان الله عليه.

● أما الأزمة الأولى: التي واجهتها حيث لم تجد ما تجمع به زادها، فهداها ذكاؤها إلى أن شقت نطاقها نصفين وربطت السفرة بأحدهما.

الله أنت يا ابنة أبي بكر، هل كنتِ تدرين وأنت تشقين النطاق أن هذا سيغدو علماً عليك أبد الدهر: ذات النطاقين؟!

● والأزمة الثانية: يوم طُرق عليها الباب بعنف، ففتحت الباب وفوجئت بفرعون الأمة أبي جهل يسأل عن أبيها متجهماً الوجه. كان يمكن لصناديد الرجال أن ينهاروا أمام هذا الموقف؛ لكن أسماء لا تنهار، أجابت بصلافة وثبات كالطود: لا أدري.

وجمع أبو جهل كل حقه ولؤمه في صفة وجهها لوجهها أطارت قرطها من أذنها، فبقيت في رزاة الجبال، بينما مضى العدو اللدود يأكل قلبه من الغيظ.

● وكانت الأزمة الثالثة: يوم ثار جدّها أبو قحافة على ابنه أبي بكر لأنه

أخذ ماله كله، وفي ذكاء نادر وعبقريّة عجيبة جمعت كوماً من الحصى وغطته بثوب، وقادت جدّها الأعمى ليتحسس الحصى على أنّه مال وجوهر - فتهدأ ثائرته ويكفّ عن الكلام في خروج ابنه أبي بكر.

وأثبتت أسماء رضي الله عنها أنّ المرأة كفء وأهل للمسؤولية والثقة ولو كانت في ميعة الصبا وريعان الشباب، لم تعركها يد الدهر بالخبرة الناضجة.

٤ - من ثمار الهجرة

ولئن كانت أسماء جزءاً من الهجرة ولا يمكن أن تنجح الخطة إلا بكل جزئياتها؛ فحق للمرأة المسلمة أن تجني الثمرة، وتشارك في الفرحة. وخرجت ولائد الأنصار صبية وجوار يضربن الدفوف وينشدن:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

لقد جنينَ ثمرة جهاد أسماء وأم سلمة وبنت عميس وأم حبيبة. فخفقت الفرحة في القلوب، وارتفعت كلمة التوحيد في ربوع المدينة. وأكرم الله المهاجرات المجاهدات.

● فإذا بأسماء بنت أبي بكر تغدو فيما بعد زوجاً للزبير حواري رسول الله. وأماً لعبد الله بن الزبير أمير المؤمنين.

● وإذا بأسماء بنت عميس تغدو بعد استشهاد زوجها جعفر الطيار رضي الله عنه زوجاً لأبي بكر ثم لعلي بن أبي طالب. خليفتي المسلمين وأميري المؤمنين.

● أما أم سلمة وأم حبيبة فقد فازتا بأعظم من ذلك كله؛ صارتا من زوجات رسول الله ﷺ، وأمّهات المؤمنين إلى يوم الدين.

٥ - الفتاة المسلمة اليوم والهجرة

أمامها أن تتخذ من هؤلاء الرائدات مثلاً يحتذى. ولئن أوكل إليها اليوم

أن تجاهد على مقعد الدرس تنهل العلم والمعرفة لتكون فيما بعد مربية
للأجيال وصانعة للأبطال؛ فأكرم به من جهاد، وأعظم به من نضال.

وتكون هجرتها في هجرة ما نهى الله عنه.

وتستلم اللواء من أسماء وأم حبيبة وأم سلمة، وتحمل راية الإسلام حتى
يرث الله الأرض ومن عليها. وبذلك تكون قد أثبتت بجدارة أنها بنت هذه
الأمة، وحفيدة أولئك الخالدات، وما ذلك على الله بعزيز.

* * *

الفهرس

مقدمة الطبعة الأولى	٥
مقدمة الطبعة الرابعة	٧
الباب الأول: الفتاة المسلمة	٩
رسالة المرأة المسلمة من خلال سورة التحريم	١١
١ - تبتغي مرضاة زوجك	١١
٢ - قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم	١٧
٣ - المرأة والسر	١٨
٤ - دعوة إلى التوبة .. وإلا	٢٣
٥ - المرأة المثالية كيف؟	٣١
٦ - من المسؤول عن التربية	٣٥
٧ - نماذج محدورة	٤٣
٨ - نماذج مقتداة	٤٧
٩ - فما هي قصة آلام آسيا	٤٩
١٠ - المصطفاة على نساء العالمين	٥٥
١١ - كلمة أخيرة	٦٢
قيمة المرأة المسلمة من خلال سورة الطلاق	٦٥
١ - بلوغ الأجل والتسريح	٧٤
٢ - العدة في الطلاق	٧٥
٣ - عدة الآية والصغيرة وذات الحمل	٨٣

٩٠	٤ - تكاليف العدة ومتطلباتها
١٠٠	٥ - عاقبة مخالفة أوامر الله
١٠٩	٦ - خاتمة
١١١	الباب الثاني: تربية الفتاة المسلمة
١١٣	أضواء على تربية الفتاة المسلمة
١١٤	أولاً: حكم تعليم المرأة
١١٦	ثانياً: واقع تعليم المرأة
١١٩	ثالثاً: أخطار في طريق تعليم المرأة
١٢٥	رابعاً: التصور المتميز لإعداد الطالبة المسلمة
١٣٩	نموذج من التربية النبوية (عائشة والطفولة)
١٣٩	١ - ابنة السادسة
١٤٣	٢ - ابنة التاسعة
١٤٩	٣ - ابنة العاشرة
١٥٠	٤ - ابنة الحادية عشرة- الفتاة في المعركة
١٥٢	الفتاة الغيرى
١٥٧	٥ - ابنة الثانية عشرة
١٦٥	٦ - ابنة الثالثة عشرة
١٩٧	٧ - ابنة الرابعة عشرة
٢٠٣	٨ - ابنة الخامسة عشرة
٢١٢	٩ - ابنة السادسة عشرة
٢١٤	١٠ - ابنة السابعة عشرة
٢٢٧	١١ - ابنة الثامنة عشرة
٢٤٧	أم سلمة والتربية بالسنة
٢٥٧	أم سلمة والتربية بالقدوة
٢٦٧	الإسلام والأغنية العاطفية

٢٧٥	 مفهوم الحب في الإسلام
٢٧٧	 حب الذات
٢٧٩	 حب الآخرين
٢٨٠	 الحب الجنسي
٢٨٧	 بدعة أعياد الميلاد
٢٩١	 الباب الثالث: جهاد المرأة المسلمة
٢٩٣	 دور المرأة المسلمة في الجهاد
٣٠٢	 الغيرة والجهاد
٣١٩	 عمليات فدائية لنساء مسلمات
٣٣٧	 دور المرأة المسلمة في أحد
٣٤٥	 دور المرأة المسلمة في الهجرة
٣٥٣	 الفهرس

